رواية

نابش القبور

وابن زنبل الرمال

****

محمد عمار

الكتاب: نابش القبور

المؤلف: محمد عمار

رقم الإيداع: ١٧٠٠\ ٢٠٢٠

الترقيم الدولي: ٨- ٥٠ - ٦٧٤١- ٩٧٧- ٩٧٨

***

دار الميدان للنشر و التوزيع

جمهورية مصر العربية

هاتف ٠١٢١٠٣٤٣٥٩٣/٠٥٥٢٣١١٤٠٨

Website: www.daralmidan.com

E- mail: almidan@daralmidan.com

FB: fb.com/dar.almidan





١- اللَّحاد

حافي القدمين مرتديًا جلبابًا ممزّقًا؛ كان الطفل سعيد زيدان يسير خلف أمه مُمسكًا بطرف جلبابها، في حين كان أبيه يُسرع الخطى نحو محطة القطار..

كانت المعيشة قد ضاقت للغاية على هذه الأسرة، لم تكن أزمة ربّ الأسرة أنَّه يعمل باليومية، ولكن لأنه لا يمتهن مهنة أو حرفة معينة. لذلك ضاقت به المعيشة داخل قريته - التابعة لمركز ملوي بمحافظة المنيا -، كما ضاقت على الكثير أمثاله؛ كان ذلك في منتصف مارس ١٩٦٧ عندما قرر الأب الهجرة إلى القاهرة بحثًا عن حياة له ولأسرته.

لم تشفع له تذكرتا الدرجة الثالثة لكي يجد له أو لزوجته مقعد بداخل القطار، لذلك فقد تحمّل عناء السفر واقفًا على قدميه طوال الطريق وقد أغرقت عينا زوجته بالدموع، ليس من شدة الألم ولكن عندما أصرّ الكمساري على قطع نصف تذكرة للطفل الصغير..

- يا سعادة البيه أنا قاطع تذكرتين وبالرغم من كده واقف طول الطريق، عاوز كمان تذكرة للولد الصغير ده؟!

- أنا قولت نص تذكرة للولد... ولو إتكلمت كتير هعملّك محضر.

- إدفع يا زيدان، إدفع لايخدوك... أروح فين أنا والولد؟

قالتها زوجته وهي تنكزه في ظهره، فأخرج من جيبه مبلغ ضئيل جدًا من المال أعطى نصفه للكمساري؛ ثمن لنصف التذكرة.

وفي القاهرة لم تجد الأسرة الجديد.... نفس الظروف القاسية، ولكن هنا يوجد أمل بعكس القرية.. مرت الأيام في غاية الصعوبة على رب الأسرة،

يومًا يذهب إلى السوق ويومًا لمحطة القطار.. وأيامًا مع عمال البناء يتسوّل العمل، راضياَ بأي عمل مهما كان عسيراَ، قانعًا بأي مقابل مهما كان ضئيلًا ثم يعود وقد أهلكه التعب إلى زوجته وابنه، حيث يقيمون بداخل المكان الوحيد الذي رحّب بهم.... المقابر.

وتمر الأيام وتُقرَ ع طبول الحرب ثم هزيمة نكراء لم تعنِ له شيئًا، فالمهم قوت اليوم الذي أصبح صعب المنال.. كان يستيقظ ليصلي الفجر ثم يسعى طالباَ للرزق في كل أنحاء المحروسة، ولكن الأمر كان عسيراَ، ثم أصبح مستحيلًا..

أوشك على التسوّل، ولكن بداخله النخوة تنهره.. الطفل جائع.. الطفل يبكي.. الطفل...الطفل.....

كان يجوب الشوارع بجسده، بينما عقله معلَّقًا بإبنه الصغير سعيد........ زيدان لا يسرق..... زيدان لا يتسوّل. زيدان فقير للغاية، ولكنه يحمل من عزة النفس والرضا ما لا يحمله أصحاب تلك القصور الفاخرة التى يمر أمامها أو هذه السيارات الفارهة التى تمر أمامه.

وبينما يسير مُمزّق الثياب والفؤاد وعلى وجهه علامات الحزن إذ بشاب يبدو عليه الثراء يقود سيارة فخمة لم يرَ زيدان مثلها من قبل.. توقف إلى جوار زيدان دون أن يبرح سيارته، أخرج من جيبه مبلغ مالي كبير، مد يده نحو زيدان.. نظر الأخير إليه بقلق ولكن ابتسامة قائد السيارة بثَّت بداخله الطمأنينة، فقد كان شاب شديد بياض الوجه.. وسيم الملامح.. ذو لحية دائرية.. يرتدي جلباباَ أبيض، ملامحه تقول أنه فى بداية الثلاثينات من عمره. ردَّ زيدان يد الرجل والمبلغ بلُطف.. وبالرغم من حاجته الشديدة قال:

- أنا مش شحات .. لو عندك شغل شغَّلني غير كده لا.

الرجل وهو يدس المال فى يد زيدان :

- كلنا بنشحت من ربنا.. خد الفلوس دي.. إنت محتاجها وأنا معايا من خير ربنا الكتير.

أراد زيدان رد المال للرجل ولكن الرجل نظر إليه مبتسمًا وسحب يده تاركًا له المال، همّ الرجل بمغادرة المكان إلا أنَّ زيدان لمح بداخل السيارة قطعة من القماش برتقالية اللون من التي يتم استخدامها في تنظيف السيارات، فمدَّ يده لداخل السيارة وتناول هذه القطعة وراح يمسح زجاج السيارة أولًا.. ثم كل السيارة بحماس منقطع النظير، غير مبالٍ بطلبات الرجل له بالتوقف، ثم نظر زيدان للمبلغ المالي الذى في يده وسحب منه ورقة واحدة ثم أعاد باقي المبلغ للرجل قائلًا:

- أخدت قوت يومي، ورزق بكرة على الرزاق.

ابتسم الرجل وهزّ رأسه برضا قبل أن يتناول باقي المبلغ وينطلق بسيارته.

****

قبيل المغرب وبعد أن تناول زيدان طعامه ظل ينظر لوجه ابنه سعيد - الذي كان يواصل تناول طعامه البسيط بشراهة تنمّ عن جوع داخلي شديد-، راح يتذكر التعب الشديد الذى أصابه طوال اليوم والألم الحاد الذي أصاب ساقيه من أجل هذه اللقيمات.. لولا أن أرسل الله له ذلك الرجل الطيب.. لذلك قرّر مواصلة السعي مرة أخرى، فرغ من أداء صلاة المغرب ثم خرج بذات نشاط الصباح، سار عدة خطوات متّجهًا نحو بوابة المقابر، عند البوابة استمع لصوت عبد الكريم لحّاد المقابر العجوز الذي

يسكن فى المقابر ويتخذ من حجرة صغيرة بدون باب قريبة من البوابة مقرَا لعمله.

كان عبد الكريم يؤنِّب ابنه الذي يرفض العمل معه، والابن يردْ:

- يابا أنا نجار وعندي صنعتي.. ليه أشتغل مع الجثث والأموات؟!
- بتستعرّ من شغل أبوك يا ولدى!!

اقترب الابن من أبيه وأمسك يده وقبّلها في بر قائلًا:

- العفو يابا.... بس أنا مش حابب الشغلانة دي.. كفاية الكوابيس إللي بشوفها بعد كل دفنة.
- كوابيس إيه بس!! عيب عليك تكون ابن عبد الكريم وتقول الكلام ده.
- معلش يابا.. أنا نجار وبحب شغلي وبرتاح فيه.

رد عبد الكريم بهدوء:

- طب والشغل الكتير أوي أعمل فيه إيه؟! أنا عاوز حد يساعدني في شغلي.. من يوم الحرب والجثث كل يوم بالكوم مش ملاحق عليها.
- هات لك مساعد.
- وإنت فاكرها سهلة...؟ محدش بيرضى يشتغل شغلانتنا يابنى

ثم تردَّد عبد الكريم قليلًا قبل أن يقول:

- ثم إن فيه سر كنت أتمنى إنك تعرفه وتحافظ عليه
- سر ايه؟!!
- علشان تعرف السر لازم تشتغل معايا وتبطل الخوف إللي جواك ده.

- سامحنى يابا.. ربنا خلقنى كده قلبى ضعيف أعمل ايه فى حكمته.

طرق عبد الكريم كفاه ببعضهما وقال بحزن:

- كنت عارف إنك هترفض.. مش بسبب خوفك، لكن بسبب الرؤيا
- رؤيا؟!!

عبد الكريم بهدوء وسكينة:

- إمبارح بعد صلاة العشا وبعد ما صليت الشفع والوتر نمت في المسجد وأنا بدعي ربنا ينوّر بصيرتى ويظهر لى الإنسان إللى يحمل السر من بعدى، ف شوفتك فى رؤيا إنت وناس كتير واقفين جنب بعض، وشوفت سيدنا موسى عليه السلام واقف قصادي وبيشاور على واحد من الواقفين وبيقول - بكلامنا المصرى - : ده إللى هيشيل السر من بعدك، أنا كنت أتمنى تكون إنت.. لكنه شاور على واحد كده شكله غلبان جدًا وهدومه متقطّعة!! أنا اعترضت وقولت معقولة يحمل السر بعد مني الأشعث الأجرب ده؟! فقرّب سيدنا موسى مني وحط إيده القوية على كتفي وقال: (رُبّ أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبرّه) صحيت من النوم كتفي بيوجعني أوي، ومن ساعتها وأنا عارف إنك مش هتشيل السر، ولكن قولت تساعدني فى شغلي.

- قولتلك يابا أنا مش هنفع للشغلانة دي.
- طيب أنا عاوز حد يشتغل معايا ويكون قلبه حديد.. أجيبه منين قوللى؟

فجأة اقترب زيدان منهما بعدما استمع للعبارة الأخيرة وقال بدون مقدمات:

- أنا.... أنا عاوز أي شغل.... ولو طلبت مني أبات مع الميتين أبات معاهم في المدفن كمان.

نظر عبد الكريم إلى زيدان وراح يتفحّص وجهه الأسمر النحيل وشعره المجعد، ثم نظر إلى جلبابه القديم الرثّ ونعله الممزق قبل أن يقول:

- إنت مين؟!! وجيت هنا إمتى؟!!

- أنا عبد من عباد الله.. طالب رزق بالحلال، ينفع تكون إنت سببه؟

****

تحسّنت أحوال زيدان كثيرًا، فحاجته للمال وما مرّ به خلال الأيام التي سبقت عمله كمساعد لحّاد جعلته يتقن هذا العمل بشدة، فقد كان يقوم بمجهود خرافي جعل عبد الكريم ينبهر به.

كان لعبد الكريم نظرة ثاقبة تجاه زيدان، فهذا الأخير أحبّ عمله بشدة وأحب المقابر والأموات كما إنه شديد الأمانة، وكان ذلك جديرًا بأن يخبره بالسر.. لذلك وفي إحدى الليالي المقمرة، وكان ذلك في منتصف عام ١٩٧١ خرج عبد الكريم من غرفته وسار وحيدًا.. ساقته قدماه إلى حيث يسكن زيدان، وقف خارج الجبانة مناديًا إياه بهدوء حتى لا يفزع أهل البيت، أطلّ زيدان برأسه من خلف الباب بملابسه الداخلية.. وما هي إلا لحظات حتى خرج مسرعًا وهو يستكمل ارتداءه لجلبابه الأبيض الجديد الذى أهداه له عبد الكريم، حاول جاهدًا استضافة عبد الكريم ولكن الأخير أمسك بإحدى يديه برفق وجذبه للسير بعيدًا..

كانا يسيران بين اللحود والأضرحة بسكينة شديدة.. إلى أن وصلا إلى أحد الأركان البعيدة قرب ضريح عليه قبة خضراء، جلس عبد الكريم وأشار

لزيدان بالجلوس قبل أن يقول :

- إسمع يا زيدان..
- نعم يا حاج عبد الكريم
- فيه سر كبير أنا عاوز أقولك عليه.. والسر إللي هقولَّك عليه ده سر متوارث من أكثر من تلتلاف سنة.. له شروط وصفات معينة لازم تكون في إللي هيحمل السر... وأنا شايف إن الصفات دي فيك...

هز زيدان رأسه برضا وعبد الكريم يواصل:

- أهم شئ إنك زي ما ورثت السر تورّثه، وإللي يورث السر من بعدك لازم تكون فيه الصفات دي.. فلو كان منك يبقى خير، وإن كان غريب فوصِيه يحافظ على السر.. تمام يا زيدان؟

زيدان بهدوء:

- تمام يا حاج عبد الكريم

أخرج عبد الكريم من جلبابه شئ أشبه بسوط مطاطي من الجلد، أصفر اللون، لا يزيد طوله عن المتر مُغطَّى بفراء أصفر ناعم، رفع عبد الكريم هذا السوط لأعلى قبل أن يناوله لزيدان..... ارتعشت يد زيدان وهو يمسك هذا الشئ قبل أن يقول:

- ايه ده؟!!

عبد الكريم بهدوء:

- ده سر الأموات

زيدان بتعجّب:

- يعنى ايه؟!!

أشار له عبد الكريم بالجلوس قائلًا:

- أقعد وإنت تعرف كل حاجة، بس الأول سامحنى وما تزعلش منى

- أسامحك على ايه؟ دا إنت جميلك فوق راسى

- سامحني على الشتيمة إللى شتمتهالك

ضحك زيدان قائلًا:

- شتمتني إمتى؟!! دا إنت عمر العيبة ما طلعت منك يا حاج عبد الكريم.

عبد الكريم ضاحكًا:

- شتمتك قبل ما أشوفك، وقولت عليك الأشعث الأغبر.

****

٢- سر الأموات

١٣٧١ قبل الميلاد

كان شاؤول يمتلك ثروة كبيرة جدًا، أموال طائلة.. تكفيه وتغنيه هو وأبناءه وأحفاده وأحفاد أحفاده....

ولكن....

ولكنه لم ولن يكن له أولاد ولا أحفاد ولا أحفاد أحفاد، فلقد بلغ من العمر عتيًا ولم ينجب بالرغم من تعدد مرات زواجه.... هو عقيم وقد استسلم لذلك.. لن تذهب هذه الثروة إلى ابنه ولكنها ستذهب إلى ابن أخيه ويُدعَى "راقى".. ذلك الشاب الهادئ المهذب الذي لم يكن بمثابة ابنه بل كان ابنه بالفعل، فالحوار بينهما لا يخلو من كلمات (يابني.. ويا أبي) ...

كان شاؤول يُحدِّث نفسه كثيرًا بأنه لن يحزن لذهاب أمواله لراقى... لأنها ستذهب لابن أخ بار بعمه.... كان يحدث نفسه كثيرًا بذلك، ولكنه يخفي بداخله نزعة أخرى.. كم كان يشتهي أن يكون له ولد من صلبه.. حتى ولو ابن عاق يرث أمواله.

اقتربت الخادمة من سيدها شاؤول وقالت بإستحياء وهي تخفض رأسها فى طاعة:

- سيدي شاؤول... سيدي راقي ينتظرك خارج الدار بـ .....

قاطعها شاؤول قائلًا بهدوء:

- ولماذا ينتظر بالخارج؟.... دعيه يدخل

أكملت الخادمة عبارتها بتردد:

- بـ... بـ.... برفقة كاميل

وهنا انتفض شاؤول قائلا بحدة:

- كاميل!!!.... كيف يجرؤ هذا اللص الأسود على المجئ إلى هنا مرة أخرى؟!

اندفع شاؤول لخارج داره.. وما أن رأى راڤي بصحبه كاميل حتى صفع هذا الأخير على وجهه وهو يقول:

- ابتعد عن داري أيها الخنزير اللعين.

وبالرغم من جسده الأسود الضخم وعضلاته المفتولة، وضع كاميل كفيه على وجهه وقال باكيَا كالأطفال:

- العفو والمغفرة... العفو والمغفرة يا سيدي

شاؤول بحدة:

- لا تصطنع أمامي الذلة والمسكنة أيها اللص... أغرب عن وجهي، وحذار أن تقترب من هذه الدار مرة أخرى.... هذه الدار التي آوتك قبل أن تمتد يدك لتسرقها أيها العبد الأسود

تدخل راڤي بصوت هادئ قائلًا لعمه:

- يكفي ما ناله من عقاب يا أبي.. لقد جلدته مائتي وخمسون جلدة، وحلقت شعر رأسه ولحيته، و.....

قاطعه شاؤول قائلًا:

- لا يكفي... لقد دخل داري خادمًا وضيعًا يوشك على الموت جوعًا.. فأحسنت إليه وزوّجته لخادمة كانت تعمل لديّ، وأنفقت

عليه وعلى زوجته وعلى بناته، ثم يسرقني..!! ثم يسرقني هذا اللص الخائن الـ ....!

اندفع شاؤول مجددًا للتعدِّي على كاميل، ولكن راقي وقف حائلًا بينهما وهو يقول بهدوء:

- من أجلي أنا يا أبي.... من أجلي أنا.... إصفح عنه.

شاؤول غاضبًا:

- لا.. لن أصفح عنه أبدًا.

- إذن إ صفح عن زوجته وعن بناته الخمس.. سوف يموتون جوعًا إن لم تصفح عنه.. كاميل لديه طفلة رضيعة لم تتجاوز الشهرين من عمرها و..

شاؤول مقاطعًا بحدة:

- راقي.... لقد انتهى الأمر.. فلا تجعلني أغضب منك أنت.

صمت راقي بأدب وابتسم إبتسامته الجميلة في وجه عمه قبل أن يقول:

- حسنًا يا أبي... الأمر لك.

غادر راقي المكان برفقة كاميل بعدما ودَّع عمه الذي راح ينظر بغضب لكاميل..

وما أن ابتعد راقي عن منزل عمه حتى مدَّ يده ببعض الأموال لكاميل قائلًا:

- لا تقلق.... سأتكفَّل بنفقتك حتى تعود لعملك.

في المساء كان هناك وفدًا من المزارعين يقفون أمام منزل شاؤول طالبين

مقابلته، وهذا الأخير يرفض بالرغم من محاولات راقي المتكررة.

- يا أبي..... لقد عرف المزارعون خطأهم وأقسموا على عدم تكراره.

شاؤول بظفر:

- وأنا أيضًا عرفت خطأهم وأقسمت على ألَّا أشتري منهم المحصول.

- إذن... دع باقي التجار يشترون منهم محصولهم.

- لا... فقد أقسمت أن التاجر الذي سيشتري منهم سوف يفلس قبل مرور العام.

تنهد شاؤول بإرتياح وقال:

- دعهم يا راقي.. إنهم لا يستحقون عطفك هذا. هل نسيت ما فعلوه معي؟!! ألم نتفق على سعر المحصول؟ وعندما ذهبت في الموعد المُحدَّد لشراءه ظلوا يساوموني حتى وصلوا بالسعر للضعف.. وبالرغم من ذلك وافقت وحدَّدنا موعدًا لإستلام المحصول، إلا إنهم قاموا برفع السعر مرة أخرى ليكون الضعفين. فهل هذا عدل؟!! أنا لم أظلمهم.. كل ما فعلته أنني وافقت على هذا السعر، ولكنني ظللت أؤجل الدفع حتى حصدوا محصولهم وعدت لأماطل مرة أخرى حتى أوشك محصولهم على البوار، والآن أنا لا أريد أن أشتري محصولهم إلا بنصف ثمنه الأصلي، فإن وافقوا دفعت لهم.. وإن رفضوا فما عليهم إلا أن ينتظروا حتى يفسد محصولهم.

لمحة حزن ظهرت في وجه راقي وهو يقول لعمه:

- يا أبي.... رفقًا بالفقراء.

ضحك شاؤول بشدة قائلًا:

- رفقًا بالفقراء طالما كانوا في خدمتنا.

- يا أبي... إن المزارعين غرّهم شيطانهم وزيّن لهم الجشع والطمع، فلا يغرنَّك أنت أيضًا ويُزيّن لك حب الإنتقام.

- ألم ترَ هم عندما كانوا يتحدثون معي بتعالٍ شديد وهم يقولون نريد الضعف... بل نريد الضعفين؟

راقي بهدوء:

- وها أنا أراكَ أيضًا تتحدث بتعالٍ يا أبي وأنت تقول نصف الثمن وإلا البوار.

نظر شاؤول لراقي بحدة والأخير يواصل:

- أنت تعلم أنه لا أب لي سواك... وتعلم أيضًا أنني أحبك حبًا شديدًا.. وأريد أن يحبك كل الناس أيضًا.... يا أبي لو أعطيت كل ذي حقٍ حقه ما انتقص ذلك من مالك إلا كما ينتقص النهر من سد ظمأ العصفور... إن لهؤلاء المزارعين أطفال جوعى ينتظرون فتات طعامك يا أبي، فلا تحرمهم ذلك الفتات.

أشار له شاؤول بغضب قائلًا:

- عندما أموت يا راقي فلتفعل في هذا المال ما تشاء.... أما في حياتي فلا أمر إلا أمري.. ولقد نفذ الأمر.

****

- ماذا تفعل يا كاميل ؟ وما هذا الشئ الذي خبأته؟!!

قالتها زوجة كاميل عندما دخلت حجرتها فجأة، فإرتبك كاميل قليلًا، ثم قال:

- لا شئ.. لا شئ

اقتربت زوجة كاميل من زوجها وهي تقول بحدة:

- كاميل... لا تُخفي على .. لقد رأيتك تُخفي خنجراَ في أغراضك.

أشار لها كاميل بالصمت، ولكنها واصلت:

- هل تنوي قتل سيدك شاؤول؟

جحظ كاميل عيناه في شر، وقال:

- لم يَعُد سيدي....

صباح اليوم التالي صاح أحد الرجال:

- يا قوم.. لقد قُتِلَ السيد شاؤول... شخص مجهول طعنه بخنجر.

****

ظهيرة أحد الأيام انتهى عبد الكريم بمساعدة زيدان من دفن جثمان شيخ فى السبعين من عمره انتقل اليوم إلى مثواه الأخير في الدنيا... كان زيدان هذه المرة ـ وعلى غير عادته - مُرتبك بشدة.. قلق للغاية.. ولأول مرة تظهر عليه علامات الرعب الشديد، وكلما رمقه عبد الكريم بنظره ازداد رعبه وقلقه، لذلك فقد حاول تجنُّب النظر إليه، ولكن عيناه كانت تخونه من وقت لآخر... وفور رحيل المشيِعين اقترب عبد الكريم من زيدان قائلًا بهمس:

- الليلة.... عند منتصف الليل.

احتقن وجه زيدان وابتلع لعابه بصعوبة قبل أن يقول:

- طب ممكن أأ........

قاطعه عبد الكريم بهدوء قائلًا:

- لا... مش ممكن.

عند منتصف الليل كان زيدان يسير بخوف شديد بين المقابر متّجهًا نحو مقبرة الرجل الذى دفن ظهر اليوم، كان يتجه نحو المقبرة وكأنَّه مُنساق إليها دون رغبته.. وكأنَّ هناك قوة خفية تجذبه إليها؛ عقله يرفض الأمر ولكن جسده يتجه إليه بهدوء.... اقترب زيدان من المقبرة حاملًا بين طيّات ملابسه مصباح يدوي صغير أعطاه إياه عبد الكريم، وما أن وصل ورأى فتحة القبر المغلقة حتى قفز قلبه لحلقومه من شدة الرعب... نظر زيدان حوله وعندما إطمأن لعدم وجود أحد بالقرب منه شرع في فتح المقبرة في صمت شديد.. كانت يداه ترتجفتان بشدة، لم يكن هناك أية أصوات سوى صوت أنفاسه المتلاحقة رعبًا.

فتحة المقبرة لا تزال لزجة سهلة الفتح لم يجف ماؤها بعد، لذلك انفتحت بسهولة.. أزاح زيدان الغطاء بهدوء، نظر بداخل المقبرة.. فإذا هي حالكة السواد.. شديدة الظلمة أقصى درجات اللون الأسود، حاول التماسك، أخرج مصباحه اليدوي، أضاء المقبرة، نظر في أركانها ثم استدار ليكون ظهره مواجهً ا للمقبرة قبل أن يدخلها بهدوء وهو يولِيها ظهره كما جرت العادة عند دخول المقبرة.. استغرق كل هذا دقائق ظن زيدانِ أنها أطول من عمره كله .. دخل زيدان المقبرة وساقاه تتخبطان رعبًا ويداه ترتجفان بشدة، وما أن رأى الجثة ملتفة فى كفنها الأبيض حتى شهق بشدة وجحظت عيناه؛ حاول أن يبتلع لعابه.. ولكنه فشل، انتظر حتى هدأت ضربات قلبه من خفقها الذى وصل إلى أذنيه، ثم تحرك ببطء نحو الجثة وجلس إلى جوارها، نزع الرباط الأبيض حول الكفن، ثم راح يُحرر الكفن بهدوء من حول الجسد!!

****

سادت حالة من الهرج بين الناس، وكثر اللغط، وراحت الإتهامات تقفز من شخص لآخر، إلى أن قال كاميل:

- إن القاتل هو أحد المزارعين... لقد كانوا يُعدُّون العدة للإنتقام من سيدي شاؤول.

رد أحد المزارعين:

- ولماذا لا تكون أنت يا كاميل...؟ وقد طردك سيدك شاؤول وجلدك ونزع شعر رأسك ولحيتك حتى أصبحت تبدو كفرس النهر.

كاميل :

- أقسم برب موسى أننى لم أقتله.

المزارع :

- وأنا أيضًا أقسم برب موسى أنني لم أقتله.

كاميل :

- أنا لم أقصدك تحديدًا عندما قلت أحد المزارعين هو القاتل، بل قصدت أن الفاعل لن يخرج من بين أقرانك.

رد مزارع آخر:

- لا تلقي بالإتهامات دون دليل.

وهنا تدخل أحد الرجال قائلًا:

- ما أن سمع راقي بالخبر حتى سقط مغشياَ عليه.

رجل آخر:

- لقد أفاق، ولكنه يهذي بكلمات غير مفهومة.
- فليعينه رب موسى... إن الصدمة شديدة علينا، فما بالنا بالسيد راقي؟

وعند جثة السيد شاؤول كان عدد من الرجال يتشاورون، فيما كان راقي يجهش بالبكاء وهو يقول:

- مَن قتل أبي يا قوم...؟ مَن قتل هذا الرجل الطيب؟

اختلس الرجال الواقفون حوله النظر إلى بعضهم البعض، نطقت عيونهم بسخرية.

وراقي يواصل:

- أعلم أن منكم مَن يبغض أبي.. ومنكم مَن يحسده... ومنكم مَن تمنّى موته، ولكن مَن الذي قتله؟

قال أحد الرجال بهدوء:

- فلتهدِّئ من روعك يا سيد راقي.. فلا داعي للحديث عن البغضاء والحسد.. ودَّعنا نرى مَن قتل عمك.

نظر له راقي بغضب، فقال الرجل:

- أقصد أبيك..
- لم يكن أبي بخيلًا أو شحيحًا ولم يكن ظالمًا أو جبارا... ولكنه كان تاجر ماهر يعلم كيف يربح أمواله بسهولة.

ثم صاح راقي بعصبية لم يعهدها أحدًا فيه، قائلًا:

- مَن قتل أبي؟!! مَن قتل أبي؟!! أخبروني يا قوم مَن قتل أبي؟

- كاميل!!! كاميل هو الذي قتل أبيك.

جاءت هذه العبارة الحادة من صوت نسائي رفيع، تطلَّع الجمع نحو مصدر الصوت.. فإذا هي زوجة كاميل.

نظر الجميع إلى زوجة كاميل التي كرَّرت عبارتها بشجاعة:

- نعم، فلقد رأيت زوجي كاميل يُخفي خنجراً في ثيابه وعندما نهرته وحذَّرته من قتل سيده قال: لم يعد سيدى.

صك كاميل على وجهه وهو ينظر لزوجته بحسرة ويقول:

- أيتها اللعينة.... أنا لم أقتله فعلًا، كنت أنوي على الإنتقام.. ولكنني لم أجرؤ على القتل.

اقترب راقي من كاميل ثم صفعه صفعة قوية، تلتها عدة صفعات وهو يقول:

- أيها القاتل... أيها العبد الأسود اللعين.

وهنا شارك الجمع في صفع وركل وضرب كاميل الذي اختفى صوته وهو يُقسم بأنه لم يفعل.. وما هي إلا لحظات حتى كان الحشد قد تهيأ للقصاص من كاميل، لم يشفع له بكاء بناته الأربع وصراخهن، إلى جوارهن تقف زوجته حاملة رضيعتها، خيط من الدموع انساب من عينيها، أما كاميل فقد أوثقه الرجال بالحبال بقوة من خلاف وطرحوه أرضًا مكبًا على وجهه، حتى أنه لم يعد يستطيع تحريك أى عضو من جسده، استلَّ راقي خنجرا، اقترب من كاميل قائلًا:

- وجب عليك القتل أيها الخائن اللعين.

ثم توقف راقي ونظر للرجال المحيطين لهذا المشهد قائلًا:

- ولكنني لا أجرؤ على القتل... فليقُم أحدكم بذلك نيابة عني.

نظر الجمع لبعضه معلنين فى صمت رفضهم القيام بذلك، إلا أن رجل ضخم الجثة كثيف اللحية والشارب شقَّ الصفوف وتوسّط الميدان وتناول الخنجر من يد راقي وهو يقول:

- أنا أقوم بذلك نيابة عنك.

أ مسك الرجل بالخنجر فى وحشية وكأنَّ هناك ثأر قديم بينه وبين كاميل، راح يضغط على أسنانه في غيظ شديد. بينما تعالت صرخات بنات كاميل الأربع، اقترب الرجل من كاميل بحدة ثم رفع خنجره لأعلى ولكن.... ولكن زوجة كاميل صرخت فجأة قائلًا:

- توقف...... توقف..... زوجي ليس القاتل.... زوجي ليس القاتل.

توقف الرجل فجأة ونظر لها راقي بغضب!! راح الناس يتحدثون في أحاديث جانبية مرتبطة بما يدور أمامهم.

- لعنة الله على النساء.... الشئ وعكسه في آن واحد.

قالها راقى وهو يقترب من زوجة كاميل ويصيح في وجهها :

- أيتها اللعينة... هل تتلاعبين بنا؟

الزوجة باكية وهى تحتضن رضيعتها وتضم باقى بناتها السمروات الصغيرات إليها:

- لا.... ولكنني .... ولكنني حدثت نفسي الآن كيف أكون سبباَ في قتل زوجي وأنا لم أتأكد أنه القاتل، نعم رأيته يخفي خنجراَ ولكنني لم أرَه يقتل السيد شاؤول.

هنا صاح أحد الرجال:

- المرأة محقة.... أنا أيضًا سمعت رجلين يتفقان على قتل السيد شاؤول، ولكنني لم أرَ أحدهما وهو يقتل، لذلك فقد إلتزمت الصمت.

إلتفت إليه راقي قائلًا:

- مَن هما؟

قال الرجل وهو يخفض رأسه:

- سبق وأن اتفقت أنا واثنان من المزارعين زملائي على قتل السيد شاؤول بسبب ما فعله والأضرار التى أصابت محصولنا، ثم تراجعت أنا.. وأصرا هما على قتله

راقي بحدة:

- مَن هما؟

إلتفت الرجل حوله برعب، ثم قال:

- إبراهام وبنشكران..... ولكنني لا أجزم بأنهما القاتلين.

قال رجل يبدو عليه الحكمة يَدعى كالب بن يوفنا:

- لقد اختلط الأمر يا سيد راقي ولا نستطيع تحديد القاتل، لا سيما وأن عمك له العديد من الأعداء.

هز راقي رأسه بالإيجاب قبل أن يخفضها قائلًا:

- حقًا...؟ وقد يكون القاتل غير هؤلاء جميعًا... ولكن هل سيضيع دم أبي؟

قال كالب بن يوفنا وهو يشير بذراعيه فى تعجب:

- أراكم قد نسيتم موسى بن عمران.... لماذا لا نذهب إليه ونسأله؟

لعله يأتينا بمعجزة أخرى تخبرنا من القاتل.

قال أحد الوقوف:

- ولكنه غاضب منّا بشدة.... ودائمًا يُذكِّرنا بالعجل الذي عبدناه.

كالب بن يوفنا:

- ولكنه نبي الله ولن يردَّكم على أعقابكم..... هيا نذهب إليه ونسأله عن القاتل

- وماذا لو ذكَّرنا بعبادة العجل؟

- لن يفعل يا رجل

- بل سيفعل، وسيقول إسألوا العجل وإن لم تجدوه فاسألوا بقرة أو ثور.

كالب بهدوء وهو يشير نحو كاميل:

- أرى أنك يجب أن تتوقف عن الثرثرة وتحلّ وثاق هذا الرجل المسكين ونذهب إلى موسى.

****



٣- تحدث أيها الميت

سحب زيدان الكفن محرراً الجزء العلوي من الجثة.. كان يرتجف بشدة، وكلما نظرت عيناه إلى وجه الميت الصامت الهادي يزداد رعبه.. للحظة شعر أن الميت فتح عينيه ورمقه فى غفلة منه ثم أغمض عينيه مرة أخرى. لذا كان يسلط ضوء المصباح اليدوي على وجه الجثة كثيراَ ليتأكد من سباته الأبدي، لسانه يستغفر الله كثيراَ، قلبه يخبره أ ن عرش السموات سيهتز ممّا يفعله، عرقه لم يعد قطرات.. بل سيل ينهال من جبهته، ويداه تواصل مهمتهما... أخرج من بين ثيابه السوط الأصفر "سر الأموات" ونفَّذ كل التعليمات؛ ضرب الجثة بالسوط ثلاث مرات وهو يتمتم بالكلمات التى لقَّنه إياها عبد الكريم، كان يُحدِّ ق فى وجه الميت بشدة مُسلِّطًا كل ضوء المصباح على وجهه، ولكن لم يحدث أى تغيير!!!

أوشك قلبه على التوقف رعباَ رغم أن الميت نائم نوم هادئ وديع أبدى ولا يشعر بشئ، قرّب زيدان وجهه من وجه الجثة ونظر إلى عينيه المغمضتين.. ما زالت هادئة ساكنة، لماذا الخوف والرعب؟!!

ظل زيدان يُحدِّق فى الوجه الساكن حتى تساقطت بعض قطرات العرق على وجه الميت.. فمسح زيدان كفَّه الأيمن فى جلبابه أولًا حتى يزيل تلك القطرات عن الجثة، مدَّ زيدان كفه المُرتعشة نحو وجه الميت وما أن لمسه حتى فتح الميت عيناه فجأة بحدة، سحب زيدان يده وكأن لدغه ثعبان وتراجع للخلف.. وما هى إلا ثوانٍ حتى شاهد أسوأ كوابيسه أمام عينيه، إذ جلس الميت بحدة ونظر إليه قائلًا بغضب شديد:

- مَن أنت؟!!

جحظت عينا زيدان، أراد أن ينطق.. ولكن لسانه أصابه الشلل، والميت

يصرخ بشدة:

- مَن أنت؟!! مَن أنت؟!!

****

اجتمع الحشد من بني إسرائيل يتداولون الحديث بينهم، البعض يؤيِّد فكرة الذهاب لنبي الله موسى حتى يسأل ربه ويخبرهم عن القاتل.. بينما رفض البعض الآخر الفكرة معلِّلين ذلك بأن النبي موسى غاضب منهم بسبب كثرة تجاوزاتهم في حق ربه، وخاصة عبادتهم للعجل الذي صنعه موسى السامري قبل أن يرحل عنهم ويختفي تمامًا.

فى هذه الأثناء حضر يوشع بن نون تلميذ موسى، اقترب من كالب بن يوفنا – زوج مريم أخت موسى – مستفسراَ عن سبب هذا الحشد..

قال راقي باكياَ:

- يا سيد يوشع.. نريد أن نذهب إلى موسى ونسأله عن قاتل أبى لعله يأتى بمعجزة جديدة.

يوشع بن نون:

- وما منعكم من الذهاب إليه؟
- نخشى أن يسخر منا ويذكرنا بعبادة العجل.

زفر يوشع بن نون بقوة ونظر لكالب بن يوفنا الذى طرق كفاه مستنكراَ ما سمعه، قبل أن يقول:

- اتقوا الله يا بني إسرائيل.. أبَعد كل هذه السنين تفترون على موسى الكذب..؟ هل سخر موسى بأحد منكم من قبل؟!

قال أحد الرجال بصوت أخنف:

- لقد ذهبت من قبل إلى موسى وطلبت منه أن يدعو ربه أن يرزقنى مالًا كثيراَ فقال لى موسى إذهب وأطلب المال من العجل الذى عبدته.. وإن لم تجد العجل فأطلبه من أى بقرة، فالبقرة هى مَن أنجبت العجل.. أقسم برب موسى انه قال هذا.

هنا انفعل كالب بن يوفنا قائلًا:

- لا فائدة منكم يا بني إسرائيل، تختلقون الكذب ثم تصدِّقونه ثم تُقسمون عليه.. أدَعاك موسى لعبادة العجل أيها الكاذب؟!!

- لقد أقسمت لك أن موسى قال هذا.

قاطعهما يوشع قائلًا:

- أصمت يا كالب، فلن تفلح فى الجدال مع بني إسرائيل.

ثم نظر يوشع لراقي قائلًا:

- هيا نذهب لنبى الله موسى ونخبره بالأمر.

****

استمع موسى لسرد راقي للواقعة، ثم صمت وطال صمته كثيراَ.. ومع طول صمته زادت همهمة الحشد وراحوا يلقون العبارات:

"... سيَذكّرنا الآن بعبادة العجل.... موسى أصبح عاجزاً..... سيَذكّرنا بعبادة العجل.... لقد سلب الرب النبوة من موسى لأنه فشل في هداية بني إسرائيل... لذا سيذكرنا بعبادة العجل.... لقد فقد موسى النطق لقد أصبح أبكمًا.... ولكنه سيذكرنا بعبادة العجل "

كسر الصمت رجل من بني إسرائيل، علا صوته قائلًا:

- هيا يا موسى، أخبرنا مَن القاتل؟ وبدون سخرية منا.. وإحذر أن تنطق بكلمة عجل أو ثور.

رد موسى بهدوء:

- حسنًا.. إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة!!!

****

انتفض عبد الكريم بشدة بعدما سرت بجسده قشعريرة شديدة.. فهبّ واقفًا، خرج من حجرته متوجهًا نحو المقبرة.. قلبه يخبره أن الأمور هناك ليست على ما يرام، سار بخطوات مسرعة.. ولكن القلق الشديد جعل ساقاه تركضان لا إراديًا، انطلق العجوز مسرعًا؛ فالأمر جد عسير.

بمجرد وصوله استدار موليًا ظهره للمقبرة ودخلها مسرعًا، فوجد زيدان مغشيًا عليه وبيده سر الأموات وإلى جواره يجلس الشيخ الفانى يُحدِّق فى زيدان بصمت شديد بلا وعى، أمسك عبد الكريم المصباح الملقى أرضًا قبل أن ينتزع السوط الأصفر من يد زيدان وراح يصفعه بكفيه برفق محاولًا إفاقته، وعندما لم يستجِب هذا الأخير أخرج عبد الكريم من طيّات ملابسه زجاجة نشادر صغيرة سكب نصفها على أنف ووجه زيدان حتى استرد هذا الأخير وعيه.

بمجرد إفاقته قال زيدان بصوت مبوح:

- إيه داااه.........؟ إيه ده يا حاج عبد الكريم؟

ثم نظر زيدان إلى الجثة التى لا تزال جالسة، فإنتفض برعب وأمسك بجلباب عبد الكريم محتمياَ به.. ضغط عبد الكريم على يد زيدان القابضة على جلبابه قائلًا:

- يعني أنا قاعد أسبوع بحاله أحفَّظك كل كبيرة وصغيرة، وفى الآخر تسورء كده زى العيال الصغيرين؟!

أفلت زيدان قبضته من جلباب عبد الكريم ومسح نصف وجهه الممزوج بالعرق والتراب معًا وقال:

- آمنت بالله المحيي المميت.. معقولة الميت إللى أنا دفنته بإيدى يقعد يتكلم معايا؟

عبد الكريم بهدوء وهو يمسح ما تبقَّى من التراب على وجه زيدان:

- دا أنا اخترت لك ميت من أهل الخير والإحسان، أنا عارفُه كويس علشان ما تتعبش ويكون ده أول استخدامك لسر الأموات.

ثم نظر عبد الكريم إلى الجثة قائلًا:

- اسمع يا راجل.. أمر الله نفذ عليك وأصابتك فاجعة الموت وإنت دلوقتى فى عالم الأموات مش فى عالمنا، فلو فيه عندك سر أو أمانة عاوز توصّلها لأهلك أو لأى حد إحنا بإذن الله هنساعدك..

قال الميت بلغة عربية فصحى؛ وهى اللغة التى ينطق بها جميع الأموات مهما اختلفت ألسنتهم:

- أنا إسماعيل بن أحمد العجمي.. أشهر تاجر أقمشة فى بر مصر.. ورثت تجارة وثروة أبي منذ ما يزيد عن خمسين عامًا.. أنا رجل الخير الذى أنفقت نصف ثروتي على أعمال البر فكفلت خمسة آلاف طفل يتيم، وزوّجت أكثر من عشرين ألف فتاة يتيمة، وأنشأت ستة عشر مصنع ملابس كي تعمل بهم النساء الأرامل والمُطلَّقات، ووزَّعت أرباح المصانع عليهم، أنا الذى أعطيت كل من احتاجني والسعادة والإبتسامة تغمر وجهي.. فلا تجد مريضًا أو مسكينًا أو ضعيفًا استجار بى إلا وكنت سنده.. أنا صاحب الثروة الطائلة الذى كنت أستمد قوتي من الفقراء الذين كنت أنفق عليهم..

بدأت قصتي يوم أن رُزِقَ أبي الحاج أحمد العجمي تاجر الأقمشة بولدين توأم هما أنا وشقيقى إبراهيم، كانت سعادة أبى لا توصف.. خاصة أنه أنجبنا بعد عشرة أعوام من زواجه بأمنا، يقول أبى أنه يوم ولادتنا أقام حفلة ذكر استمرت ثلاثة ليال على التوالي. نشأت أنا وشقيقي إبراهيم فى كنف أب طيب سخي وأم حنون، كنا نقيم في بناية عتيقة مكونة من ثلاثة طوابق أقامها أبي من حُرِّ ماله.. أقمنا فى الطابقين العلويين، وجعل أبي الطابق الأرضى أربعة محلات لبيع الأقمشة.. تطل جميعها على الشارع الرئيسي، بينما جعل المخزن فى ذات البناية ولكن خلف المحلات عند الحارة الضيقة، بداخل هذا المخزن كان هناك سرداب سرى له مفتاح واحد فقط مع أبي.. وبعد وفاة أبي أصبح لهذا السرداب نسخة أخرى من المفتاح سلمتها لتوأمي إبراهيم.

كنت أحب شقيقي بشدة.. أشعر بأننا شخصين بروح واحدة.. نصفها بداخلي والنصف الآخر بداخله، لعبنا سوياً، ذهبنا إلى المدرسة معًا متشابكي الأيدى، لم يكن بيننا سر، تشاركنا جميع اللحظات السعيدة والغير سعيدة؛ خاصة لحظة وفاة والدنا والتى كنا وقتها فى التاسعة عشر من عمرنا، وضعت يدي بيد توأمي وقررنا الحفاظ على ثروة أبي وزيادتها، ولكن أخي لم يكن يهوي التجارة بأى حال من الأحوال.. كان هادئ رومانسي حالم يعيش فى المدينة الفاضلة، ففي الوقت الذى كانت رائحة الأقمشة والصبغات تنبعث مني.. كانت تنبعث من إبراهيم رائحة عطر "شانيل" الشهير، كان هذا هو العطر المفضل لشقيقي.. الذي كان يأتيه خصيصًا من باريس... كان متميزاً جدًا به... كانت أنفي تخبرني في الماضي بقدوم إبراهيم قبل عيناي عندما أشتمّ هذا العطر من مسافة بعيدة.. كان قلبي معلَّقًا بالتجارة والأقمشة والأموال، وكان قلب أخى معلَّقا بفتاة تعمل فى أحد محلاتنا!!

حاولت أنا وأمي إثناء أخي عنها، ولكن القلب عشق.. وعندما يعشق

يصبح السيد لباقي الجسد. أقسمت أمى أن تقاطع أخي حتى يقطع صلته بهذه الفتاة، وأقسم أخي أن هذا لن يحدث أبدًا. أصبحت قصة أخي هى محور حديث كل الأهل والجيران والعاملين بمحلاتنا ومصانعنا، انتظر الجميع النهاية ليروا مَن المنتصر ولكن........ ولكن فجأة اختفى شقيقي إبراهيم!!

بحثنا عنه كثيراَ فلم نجده، انتظرنا عودته فلم يعد، ذهبت إلى كل أقاربي وكل أصدقائنا وكل مَن نتوقع أو لا نتوقع ذهابه إليهم، ولكن الجميع ينفي رؤيته تمامًا.. حررت محضراَ بقسم الشرطة واتهمت الفتاة التى أحبها أخي بأنها - وأمها التى تعمل لدينا أيضًا – وراء اختفاء أخي، وأنهما تعرفان مكان اختباءه وتتستّران عليه..

بعد تحقيقات النيابة وتحريات الشرطة وبعد ضغوط شديدة عليهما ثبت عدم علمهما بشئ، فتنازلت عن اتهامهما وأعطيتهما تعويضًا عن فترة حبسهما واعتذرت لهما أمام جميع العاملين، إلا أنهما أصرّتا على ترك العمل ورحلا إلى جهة غير معلومة.

أين ذهب أخي؟! أين ذهب توأم روحي؟! لقد بدأت أشعر بإختناق شديد، وكلما مرت الأيام أشعر بغصة شديدة فى القلب، لدرجة أنني صرت أعتب على والدتي بسبب قسوتها عليه.. لم أترك بقعة إلا وبحثت فيها عن أخي.. وبعد عام توفت والدتي حزنًا وكمدًا، أما أنا فلم أتوقف مطلقًا عن البحث عن إبراهيم.

بعد مرور ما يقرب من عامين.. شعرت بوحدة شديدة فتزوجت فى منزلنا الكبير، كبرت تجارتي واستطعت ببعض الدهاء الهروب من قرارات التأميم التى صدرت ضد بعض الشركات والتجارات الكبرى في الماضي.

أنجبت ابنتي سعاد بعد عشر سنوات من زواجي، ثم رزقنى الله بعد سنوات طوال بولد جميل أطلقت عليه اسم "إبراهيم"، توفت زوجتي أثناء

ولادته، أصبح هو مصدر سعادتي وأنسي فى الحياة الدنيا. وبالرغم من تدليلي له إلا أنه كان شديد الأدب.. شديد الحياء.. متواضع للغاية.. ومتفوق جدًا فى دراسته، كان نسخة من عمه إبراهيم فى الملامح والمثالية والهدوء والرومانسية، اليوم أكمل ابراهيم عامه التاسع عشر والليلة هى ليلة زفافه على زميلته بكلية الهندسة، أقسمت أن تستمر الأفراح لمدة أربعين ليلة متواصلة دون انقطاع. إنه فرح ابني إبراهيم ويجب ألا يتشابه مع غيره.. بعد صلاة العصر تأكَّدت بنفسي أن كل الضيوف وخاصة الفقراء منهم قد تناولوا غداءهم وجميعهم فى سعادة غامرة، ولكننى انتبهت إلى أننى لم أشاهد إبراهيم منذ الصباح، سألت ابنتي لم تشاهده، سألت أصدقاءه وجيراننا أيضًا لم يشاهدونه.. الكل أجمع على شئ واحد؛ لم نشاهده منذ الصباح، بعض أصدقائى راحوا يخمنون بعض الأماكن.. بحثنا في كل مكان فلم نجده، بدأ قلبى يخفق بشدة.. أرسلت كل عمالي يبحثون عنه دون جدوى.. أين ذهبت يا إبراهيم فِي يوم عرسك...؟ صار القلق كحشرة عملاقة تلتهمني من الداخل.وأخيرا جاءني سيد النوبى - أحد العاملين بمحلاتى الكبرى والذي كنت قد أرسلته في مهمة توصيل بعض البضائع لتاجر كبير بالمنصورة - وأخبرني أنه شاهد إبراهيم في الصباح وكانت تبدو على وجهه مظاهر الفرح والسعادة، وعندما عرض عليه سيد تقديم مساعدة ابتسم إبراهيم في وجهه كعادته ثم شكره وقال أن والدي الحاج إسماعيل أرسل لي شخص ما وطلب مقابلتي الآن في المخزن الخلفي... ازدادت دقات قلبي وتساقطت قطرات العرق فجأة على جبهتي، أنا لم أطلب مقابلة ابني إبراهيم.. ولم أرسل إليه أحد، ثم وإن فعلت فلماذا تكون المقابلة في المخزن الخلفى العتيق المملوء بالأقمشة؟ حيث رائحة الصبغة تكتم الأنفاس....

تركت سيد واقفًا وانطلقت نحو المخزن، لا أعلم من أين جاءتني هذه القوة فجأة... فتحت الباب الحديدي العملاق وأضأت نور المخزن ثم

اندفعت للداخل... فتّشت في جميع أركان المخزن فلم أجد أحدًا...، قلت بصوت هادئ:

- إبراهيم...

ثم علا صوتي:

- إبراهيييييم.

وعندما لم أجد مجيب عدت مرة أخرى نحو الباب فأطفأت مفتاح الكهرباء وأمسكت بالباب، إلا أنني تراجعت وأضأت النور مرة أخرى!!!!!

شئ عجيب... وسط روائح القماش والصبغات والنفتالين إلتقطت أنفي رائحة عطر " شانيل " العطر المفضل لشقيقي إبراهيم.. سرت ببطء نحو باب السرداب السرى الموجود أسفل المخزن، أزلت بعض العوائق وأخرجت نسخة المفتاح الوحيدة التي أحتفظ بها.. ففوجئت أن الباب مفتوحاً!! دفعت الباب فظهرت أمامي بعض درجات السلم التي تقود للأسفل... هبطت في بطء مع ازدياد رائحة العطر.. حتى وصلت إلى ساحة السرداب، حركت زر الإضاءة ليكشف النور عن أسوأ مشهد رأيته في حياتي؛ كان هناك جسد منزوع الرأس، نصفه الأعلى عاري مُلقى أرضًا على صدره... حاولت الصراخ ولكن لساني بدا وكأنه جسم صلب ثقيل، أوشك قلبي على التوقف، بدأت أشعر بدوران الأرض أسفل قدمي، كدت أغيب عن الوعي.. إلا أنني سمعت صوته، إلتفتُّ خلفي لأجده!!!!!!

كان شقيقي إبراهيم ينظر لي بغضب شديد وهو على آخر هيئة رأيتها له.. يرتدي بنطال رمادي اللون واسع جدًا مرتفع حتى منتصف بطنه.. وقميص أبيض فضفاض وعلى رأسه طربوشه الأحمر العتيق، كانت وقفته أشبه بالوقفات العسكرية.. إلا أن الساقين منفرجتين قليلًا وذراعيه خلف ظهره، لم يكن هو ذلك الشاب العاطفي الرومانسي رقيق الملامح والمشاعر.. بل

كان إنسان شديد الغضب.. عاقدًا حاجبيه، ضغط على أسنانه بغيظ عندما قال:

- لماذا يا أخي؟! لماذا يا توأمي؟!

قلت بعجز:

- كنت أحافظ على ثروة أبي.

قال بحدة :

- ألهذا قتلتني؟!!!

أطرقت رأسي لأسفل خجلًا وليس رعبًا... هذا المشهد الغريب الذي أراه الآن حيث أرى شقيقي التوأم الذي قتلته بيدي منذ خمسين عامًا بأن هويت على رأسه بمطرقة حديدية ثم قمت بدفنه داخل هذا السرداب السري.. لم يعنِ لي هذا أي شئ، لا أشعر بالخوف.. فطالما جاءت النهاية فلتأتِ كما شاءت. أنا فقط خائف على مصير ابني إبراهيم، إن هذا الجسد المنزوع الرأس يشبه جسد إبراهيم ولكنه ليس جسده، هكذا أوهمت نفسي، كما أ ن شقيقي إبراهيم ذو الحسّ المُرهف من المستحيل أن يقتل قطة حتى ولو تحوّل إلى شبح.

قلت بحدة:

- أين ابني يا إبراهيم؟

قال بسخرية:

- جسده أمامك... أما رأسه فلقد ألقيتها الآن في قارعة الطريق... أخرج من السرداب وإذهب إلى أول الطريقِ ستجد الناس قد التفوا حول الرأس الملقاة، منهم مَن يحوقل ومنهم مَن يضرب كفًا بكف.

ثم قال صارخًا وصدى الصوت يتردد:

- هيا إصعد لترى رأس ابنك الوحيد قرّة عينك ملقاة في الشارع.. هيا إذهب لتأخذها قبل أن تتخطَّفها الكلاب المسعورة.

ثم أتبع عبارته هذه بضحكة مجلجلة، وبينما كانت قدماي لا تقوى على حملي صعدت مترنِّحَا درجات السرداب، عند الباب إلتفت خلفي أتوسل إليه أن يكون كل هذا هراء ولعب بأعصابي ليس إلا، ولكنني فوجئت بملامحه الشريرة التي لم أرَ ها قبل اليوم وهو يقول مشيراَ نحوي:

- لم يعد لديك ولد، لذلك فعندما تموت يا إسماعيل ستذهب نصف ثروتك لابنتك والنصف الآخر سيذهب إلى إبني إسماعيل الذي أنجبته سَرا بعد زواجي الشرعي ممّن رفضتموها قديمًا... ها هو العدل يعود بعد سنوات طوال... ها هي الثروة تعود لتنقسم بيننا بالتساوي مرة أخرى... وها هي روح تزهق مقابل روح.... تعادلنا وتساوينا في كل شئ.

قلت باكيَا:

- ولكنه شاب صغير....

قاطعني قائلًا:

- أنا أَيضًا كنت شاب صغير في التاسعة عشر من عمري، مثله تمامًا.. شاب مؤدب هادئ محبوب من الجميع... سنوات وروحي القلقة تنتظر هذه اللحظة يا إسماعيل.

ثم صرخ قائلًا:

- هيا إصعد لترى أسوأ كوابيسك في الحياة.

وبالفعل كان أسوأ كابوس، لم يتحمله قلبي ولا عقلي فسقطت صريعًا.

فرغ إسماعيل العجمي من سرد قصته، فنظر إليه عبد الكريم بإشمئزاز وغضب قبل أن يوجِه حديثه لزيدان وهو يناوله سر الأموات:

- زيدان.. إضربه بالسوط ثلاث مرات، وفى كل مرة قول (بسم الله المميت).

فرغا من إجراءات إعادة الدفن فخرجا من المقبرة، سار عبد الكريم عدة خطوات صامتًا وكأنَّه يفكر فى أمرٍ ما قبل أن يقول:

- روح إنت نام يا زيدان وإرتاح شوية علشان من بكرة هتكون عندك مهمة صعبة خارج المقابر.

زيدان بالرغم من شعوره بدوار شديد:

- أؤمرنى يا حاج عبد الكريم.

تنهد عبد الكريم بشدة قائلًا:

- الأمر لله وحده.. من بكرة هتبدأ تبحث عن واحد اسمه إسماعيل إبراهيم أحمد العجمي، ولما توصل له بلغه إن له ميراث كبير عن عمه يروح يستلمه.

****

٤- سر بقرة بني إسرائيل

تعالت الأصوات والصيحات استنكاراً لرد موسى، ابتسم الرجل الذي إدَّعى على موسى أنه أمره بعبادة العجل.. في حين اتسعت حدقتا كالب بن يوفنا وتدلَّى فكه السفلي لا إرادياً قبل أن يقول أحد الرجال بصوت أجشّ للغاية:

- أتتخذنا هزواً يا موسى...؟ أتُذكِّرنا بالعجل مرة أخرى؟
- موسى بهدوء:
- أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين

رجل آخر:

- ولماذا نذبح بقرة؟

موسى:

- هذا أمر الله لي ولكم

ثم ا نسحب موسى بهدوء ووقار شديدين مبتعدًا عن القوم الذين غرقوا في جدال حاد، إلى أن قال يوشع بن نون:

- كفوا عن الجدال يا قوم.. واذبحوا بقرة وسوف ترون معجزة جديدة من معجزات الله.

في اليوم التالي اجتمع القوم عند موسى الذي ظن أنهم قد أتوا بالبقرة ليذبحوها، إلا أنهم قالوا:

- إدعُ لنا ربك يبين لنا ما هي البقرة التي يريد أن نذبحها.

صمت موسى كثيرًا ثم قال:

- إن الله يقول إنها بقرة لا فارض ولا بكر، عوان بين ذلك.. فإفعلوا ما تؤمرون

هنا قال كالب بن يوفنا:

- يا بني إسرائيل.. لا تشقوا على أنفسكم بكثرة أسئلتكم.

تشاور القوم مع أنفسهم قليلًا ثم قال أحدهم نائبَا عن الجمع:

- نريد فقط أن نعرف لونها

قال موسى:

- إن الله يقول إنها بقرةٌ صفراء فاقعٌ لونها تسر الناظرين.

قال أحدهم:

- يوجد مئات الأبقار بهذا الوصف

وقال آخر:

- موسى يستهزئ بنا.

قال رجل مسنّ بهدوء:

- ادعُ لنا ربك يبين لنا ما هي، إن البقر تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون

ابتسم يوشع بن نون ومال على كالب بن يوفنا قائلًا:

- أخيراَ قال رجل من بني إسرائيل عبارة إن شاء الله

رد كالب قائلًا:

- وإن كان تشابه معهم فى قوله لموسى إدعُ لنا ربك وليس ربنا

قال موسى للقوم وكأنه ينهي الجدال:

- إن الله يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقي الحرث مسلمة لا شية فيها.

شعر القوم أن مهمتهم ازدادت صعوبة، لذلك سارعوا قائلين:

- الآن جئت بالحق يا موسى.. فلتدعنا نذهب ونبحث عن هذه البقرة.

يوشع بن نون:

- تشدَّدتم فشدَّد الله عليكم، ولو كنتم ذبحتم أيّة بقرة من أول الامر لما كنتم وصلتم لهذا الإختبار القاسي.

غادر القوم المكان وقد شرعوا في البحث عن هذه البقرة الذهبية التي سوف تدلهم على القاتل وقد وعد راقي بألف قطعة ذهبية لمَن يجد بقرة بهذه المواصفات.

****

أتى القوم فرحين وكأنَّهم في عرس كبير.. تسبقهم بقرة صفراء خطفت أبصار وقلوب القوم وهى تسير كقطعة من الذهب تزيدها أشعة الشمس جمالًا إلى جمالها... ظن البعض منهم أن البقرة ستنطق بإسم القاتل، لذا فعندما أمر موسى بذبحها عند رأس القتيل اعترضوا قائلين:

- كيف نذبح البقرة؟ دفع راقي وزنها ذهبَا لأم الأيتام صاحبة البقرة.

موسى بهدوء:

- لقد كان أمر الله لكم من البداية أن تذبحوا بقرة.. هل نسيتم؟! كما أنني لم أخبركم أن هذه البقرة مخلَّدة أو أنها ستنطق بإسم القاتل كما تظنون.

حالة من النميمة الصامتة سرت بين القوم، قبل أن يقول موسى بحدة:

- والآن فلتذبحوا البقرة

وسط ذهول القوم خرج منهم رجلًا يحمل سكينًا تقدم نحو البقرة واقترب منه ما يزيد عن عشرة رجال أقوياء قام وا بشل حركتها وطرحوها أرضًا..

ما أن تم الذبح وغرقت البقرة فى دماءها حتى أمر موسى بقطع ذيل البقرة، فقام الرجل على الفور بقطع الذيل وناوله لموسى الذى اقترب من جثة القتيل ثم جثى على ركبتيه وقام بضرب القتيل بإستخدام الذيل ثلاث مرات برفق قائلًا:

- بسم الله المُحيي.. بسم الله المُحيي.. بسم الله المُحيي

ثم هبّ موسى واقفًا وراح هو والحشد ينظرون إلى القتيل الذى بدا صامتًا لفترة طويلة جدًا.. مما دعى القوم إلى الهمز واللمز بصوت منخفض، ومع طول المدة ارتفعت أصواتهم وبدأت السخرية تنهال على موسى.. فجأة جلس القتيل بحدة دون مقدمات، راح يتطلع للقوم الذين أصابهم الرعب الشديد فراحوا يتخبطون فى بعضهم البعض وهم يتراجعون رويدًا رويدًا.. إلى أن أشار القتيل شاؤول بسبابته للأمام قائلًا:

- هذا الذي قتلني

تحوّلت أنظار الجميع إلى الرجل الذي أشار اليه شاؤول، فجحظت العيون وعلت الدهشة على الوجوه، إلى أن قال موسى:

- مَن الذي قتلك يا شاؤول..؟ انطق اسمه

شاؤول بصعوبة:

- راقي... راقي ابن أخى هو الذي قتلنى.

****

فى الليلة التالية وفى ركنهما المعهود إلى جوار أحد المقابر.. جلس عبد الكريم أرضًا وإلى جواره زيدان الذى أشعل نارًا وراح يُعد الشاى لهما بهدوء، كان عبد الكريم يداعب النار بعود من الحطب أمسكه بيده وقد وضح عليه الشرود الشديد.. مدَّ زيدان يده له بكوب الشاى فتناوله صامتًا وواصل مداعبة النار. ولأن زيدان - الذي لم ينل أى قدر من التعليم ولكنه نال قدرًا كبيرَا من دماثة الخلق – يعي تمامًا أنه لا يجب أن يبدأ بالحديث إلا بعد أن ينتهي عبد الكريم من تفكيره، لذلك فقد طال انتظاره كثيرَا إلى أن قال هذا الأخير:

- إنت خلاص حملت الأمانة ومش هنقدر لا أنا ولا إنت نرجع فيها، إنت يا زيدان إنسان مؤمن بالله من قلبك.. طيب.. بتحب الناس وبتحب الخير للناس..

ثم إلتفت عبد الكريم خلفه فجأة قائلًا بصوت مرتفع وكأنما يتحدث مع شخص آخر:

- حاضر سمعت سمعت.

نظر زيدان خلفه ليرى مَن هذا الشخص، فلم يجد أحد.. فسأل عبد الكريم:

- إنت بتكلم مين يا حاج؟!! مفيش حد غير أنا وإنت.

واصل عبد الكريم حديثه لزيدان متلاشياَ الرد على سؤاله:

- إنت يا زيدان إنسان قنوع، راضي، والأهم من كل ده إن الدنيا مش غالباك.. وإن الشيطان مش لاقيلك مدخل.. علشان كده أنا سلمتك الأمانة الكبيرة دي. السر العظيم إللي مش أى حد يقدر عليه.

- وأنا أد الأمانة يا حاج عبد الكريم.

- مش باين يا زيدان.. إنت لسه خايف متردد، مش قادر تستوعب السر.

زيدان ببساطة:

- ما هو برضه السر مش هيّن يا حاج.. ثم إنت قولتلي على شروط السر وسيبتني تايه مش فاهم ايه إللى بيحصل. مش يمكن لما أعرف كل حاجة قلبي يطّمن شوية.

- ممكن برضه..

اعتدل عبد الكريم فى جلسته وتطلع نحو السماء وهو يقول بهدوء:

- زمااان على أرض مصر وفى عهد سيدنا موسى إتقتل واحد من بني إسرائيل، وإحتار الناس وما عرفوش مين القاتل، فربنا صنع معجزة لسيدنا موسى.. أمرهم يدبحوا بقرة صفرا شديدة الصفار ما فيهاش نقطة واحدة بيضا أو سودا، وبعد دبحها سيدنا موسى أخد الديل وضرب بيه الميت ٣ مرات وهو بيقول بسم الله المُحيي فقام الميت وقالّهم على اسم إللى قتله، وبعد ما قال على اسم القاتل سيدنا موسى ضربه بالديل ٣ مرات وفى كل مرة كان بيقول بسم الله المُميت.. وبعد وفاة سيدنا موسى أأأأ....

فجأة قطع عبد الكريم حديثه مرة أخرى وإلتفت خلفه قائلًا بصوت أعلى من المرة السابقة:

- حاضر.. حاضر سمعت وجاي في ميعادي أسكت بقى!!!

نظر زيدان خلفه مرة أخرى ليرى مَن هذا الشخص الذى يُحدّثه عبد الكريم، فلم يجد أحد، فعاود السؤال:

- إنت بتكلم مين يا حاج؟!!

عبد الكريم متلاشياَ سؤاله مجدداً ومواصلًا حديثه:

- وبعد وفاة سيدنا موسى ورث تلميذه يوشع ابن نون السر إللى فى إيدك ده، سر الأموات إللى هو فى الأصل ديل البقرة الصفرا، وقبل ما يموت يوشع ورّثه لواحد من أولاده... ثم استمر السر يتورّث من قديم الأزل لحد ما وصلّك يا زيدان.. وياما السوط الأصفر كشف حقايق وردّ أمانات لأصحابها، وياما أنقذ أبرياء كانوا هيتقتلوا ظلم وياما وياما..

ثم وضع عبد الكريم يده على كتف زيدان وقال:

- المهم إنك تحافظ على السر.. والأهم من المحافظة على السر إنك يوم ما تيجى تورّثه لحد تختار إنسان فيه الصفات إللى إنت شوفتها فيا وإللى أنا شوفتها فيك.

أومأ زيدان رأسه بالإيجاب قائلًا:

- حاضر يا حاج عبد الكريم.. بس أنا كنت عاوز أستفسر عن كام حاجة فى موضوع سر الأموات ده..

- إستفسر براحتك.. أنا هقولك دلوقتي على كل حاجة ومفيش

معلومة هتخفى عليك؛ علشان خلاص مفيش وقت.

إلتفت عبد الكريم خلفه قائلًا بصوت أعلى من المرات السابقة:

- حاضر سمعت سمعت، وجاي فى ميعادي.

وقف زيدان هذه المرة ونظر حوله طويلًا فلم يجد أحد، فسأل عبد الكريم:

- إنت بتكلم مين يا حاج عبد الكريم؟!! أنا مش شايف حد غيري أنا وإنت

عبد الكريم مبتسمًا:

- ده قبري بينده عليّا.. بيقوللي وقت إمتحانك خلص، قوم سلِّم ورقة إمتحانك.

****

٥- المماليك

١٢ ديسمبر ١٤٩٨ ميلادية

إلتفَّ الناس حول ذلك الشاب الوسيم الذي لم يتجاوز العشرين من عمره ويُدعى أحمد بن زنبل، كان يرتدي جلباب بالي مُمزّق.. تكسوه بعض الرّقع. أطلق عليه البعض لقب ابن زنبل المحلي نسبة لبلدته القادم منها المحلة، في حين أطلق عليه البعض الآخر اسم ابن زنبل الرمّال وذلك لأنه كان يمتهن ضرب الرمل والتنجيم، وسامته ولباقته وحُسن حديثه كانوا يجذبون القلوب والأبصار إليه، أما سبب الحشد الكبير هو أن هذا الشاب أحمد بن زنبل الرمّال المحلي ليس مُدَّعيًا أو كاذبًا كباقي النجّامين والرمّالين، بل هو ذو علم حقيقي وذو كفاءة كبيرة بالرغم من حداثة سنه، جاء إلى القاهرة منذ أسبوع واحد فقط، يسأله الناس _وأغلبهم من النسوة_ وهو يجيب رمزًا أو إشارة دون إفصاح، كانت إجابته تكشف للسائل حقًا عن صدق هذا الشاب. أما فطنته وذكاءه وسرعة رده وصحة ما ينطق به كانوا يجذبون الألباب.

كانت هذه الفترة الزمنية زاخرة بالأحداث السياسية.. فدولة المماليك تترنَّح والسلطان لا يمكث في الحكم سوى شهور قليلة، وربما أيام.. لأن الصراع بين أمراء المماليك على الحكم في أقصى درجات الغليان.... السلطان الحالي الناصر محمد بن قايتباي.. خلال عام واحد تولَّى السلطنة وعمرة ١٤ عامًا، وأقسم له الأمراء بالولاء، ثم تمّ عزله.. وبعد ثلاثة أيام فقط عاد للحكم مرة أخرى، وعاد معه الظلم والقتل والفساد والعربدة من هذا السلطان الطائش.

أمراء المماليك جميعًا يسعون للحكم.. يسعون للمال، للنفوذ، وللسيطرة

على مقاليد الأمور، بإستثناء رجل واحد منهم يُدعى قنصوة الغوري.. كان هذا الأخير والذي تخطى منتصف الخمسينات من عمره رجل مُسالم، طيب، ضعيف الشخصية، رعديد، متردد، غير عابئ بالحكم، بعيدًا عن المؤامرات والخلافات لا يسعى للحكم، وليس عنده شهوة المال.. هو رجل يعشق بيته وأبناءه، يحب الفنون والشعر والعمارة وزراعة الأزهار وقراءة سير الأولين.

تعجب الغوري عندما مرّ راكبًا حصانه من أمام ابن زنبل الرمّال والحشد الملتف حوله، إذ قام هذا الحشد فجأة بالإلتفاف حوله وهم يهتفون:

- عاش السلطان.... عاش السلطان!!!!!

نزل الغوري من فوق حصانه وهو يشير للناس بالصمت خشية أن يسمعهم أحد بصّاصين السلطان فيطيح هذا الأخير برقبته.

الغوري بصوت خافت:

- أنا مش السلطان.... السلطان هناك في قلعة البرج، أنا الأمير قنصوّة الغوري.

أحد الرجال:

- ما إحنا عارفين إنك مش السلطان، لكنك هتكون سلطان قريب.

إلتفت الغوري يمينًا ويسارًا قبل أن يندفع واضعًا كفه على فم الرجل وهو يقول:

- أسكت وإلا قتلتني وقتلت نفسك... إيه التخاريف إللي إنت بتقولها دي؟ ربنا يحفظ لنا السلطان الناصر محمد ويطوِل فى عمره ويحكمنا للأبد.

أشار رجل آخر نحو ابن زنبل الرمّال قائلًا:

- إحنا كنا بنسأل الرمّال البارع ده عن أحوال السلطنة وفجأة لقيناه بيقول هيمرّ علينا دلوقتي سلطان مصر المكتوب اسمه في الرمل عندي.... فجأة لقيناك جاي، عشان كده قولنا أأ....

قاطعه الغوري وهو يركب حصانه:

- عشان كده أنا همشي، أنا لا سلطان ولا أتمنى أكون سلطان، رقبتي أغلى حاجة عندي.

ثم انطلق مبتعدًا وسط دهشة الناس من هذا الأمير الجبان على غير عادة الأمراء الشراكسة.

كانت البلاد فوق فوهة بركان، فالسلطان المراهق الناصر محمد بن قايتباي يغادر كل ليلة القلعة ليتقابل مع مجموعة الأوباش من عامة الناس، يقضون ليلتهم في السُكر والعربدة والملذات المحرمة ثم يعود فى الصباح محمولًا إلى سريره، وعند إفاقته يفرض ضرائب ومكوس جديدة ترهق الشعب، أمراء المماليك انقسموا لعدة أقسام: منهم الناصرية وهم أعوان السلطان الحالي الناصر، ومنهم الأشرفية وهم الذين كانوا أعوان والده السلطان السابق الأشرف قايتباي، ومنهم مَن ينتظر الوقت المناسب ليقفز فوق كرسي السلطنة...

رجل واحد ليس من كل هؤلاء؛ هو الأمير قنصوة الغوري.. لا تهويه المناصب ولا يهواها، يرفض كل مؤامرات المماليك ولا يشارك فيها، كل علاقته بالسلطنة أنه سوف يُقبَل الأرض – كما جرت العادة – تحت أقدام أي شخص يتولى الحكم... ولأنه يخشى أن يتم احتسابه على أي مجموعة، لذلك فقد كان من النادر أن يسير برفقة أي حشد من أمراء المماليك.

١٥ ديسمبر ١٤٩٨ ميلادية :

كان يمتطي حصانه يتبعه ثلاثة من حراسه وأمامه يسير خادمه الأمين ممسكًا ا بسرج حصانه عندما وقف أمامه بثبات هذا الرمّال الوسيم ذو الملابس البالية، فأجبره على التوقف، ارتبك الغوري وإستلَّ الحرس سيوفهم بعصبية، أشار لهم الغوري بالتوقف قبل أن ينزل عن حصانه ويقف أمام ابن زنبل الرمّال قائلًا له بحدة وهو يشير بسبابته نحوه:

- دجال كداب... كل يوم بشوف ألف واحد زيك ومش بصدق حد منهم.

بثقة قال:

- أنا مش كداب ورمالي مش بتكدب.. بينك وبين السلطنة ثلاثة.

إلتفت الغوري حوله ثم أمر حراسه بالإنصراف وظل معه خادمه فقط.

سأل الغوري الرمّال:

- اسمك إيه؟

مبتسمًا:

- أحمد بن علي ذ ور الدين بن زنبل الرمّال المحلي.

الغوري بحدة:

- إسمع مني يا أحمد يا رمّال.. الأكاذيب دي تعملهم على حد غيري... حد نفسه يبقى سلطان أو حد عنده طموح في الحكم، أما إللي واقف أمامك ده لو السلطنة إتعرضت عليه مش هيوافق... لأن أنا مجرد أمير في جيش مولاي السلطان الناصر محمد أطال الله عمره.

ثم أخرج الغوري من جيبه كيس ممتلئ بالنقود، مدَّ يده بها للرمّال.. إلا

أن الأخير تجاهلها مبتسمًا وهو يقول بلغة عربية فصحى:

- السلطان غير موجود فى العام الجديد.. هذا آخر أعوامه فى الحكم، ثم سيأتي بعده ثلاثة سلاطين يمرون على الحكم كمر السهام من القوس، ثم حكم طويل جدًا لك وأنت على رأس السلطنة... رمالي لا تكذب.

****

٢٩ من ديسمبر ١٤٩٨ :

بعد أسبوعين من آخر مقابلة بين الغوري وابن زنبل الرمّال انتشر في القاهرة خبر مقتل السلطان الناصر محمد بن قايتباي، حدثت حالة من الهرج بين العامة واشتد الجدال بين متفائل بموته ومتشائم، إلا أن أمر اغتياله كان حدثًا عاديًا لدى أمراء المماليك كالعادة، فهذا السلطان الطائش قد تجاوز في فسقه ومجونه وساديّته وحبه للقتل والدماء، لدرجة أنه كان يأمر الحرس يوميًا بإخراج بعض المساجين ليتلذّذ بقطع أصابعهم وآذانهم وألسنتهم ثم يجلس ليشاهدهم يتعذبون وسط ضحكاته الماجنة، كان لا بد من قتله، وقد عزم الأمراء على ذلك ولم يعترض منهم أحدًا حتى خاله (قانصوه) شارك في قتله بعدما يأس من إصلاحه.

هرج ومرج لدى العامة... ثبات وصمت لدى المماليك.. أما الغوري فقد وقع الأمر عليه كصدمة شديدة، أرسل حرسه في كل مكان يبحثون عن ذلك الرمّال ولكنهم فشلوا في العثور عليه، سافر بعضهم إلى المحلة دون جدوى، وقف مماليكه أمامه فى يأس يستمعون لتوبيخه لهم لفشلهم فى العثور عليه. وبينما كان يشدد عليهم إذ أخبره الخادم أن هذا الرمّال يقف عند الباب يطلب الإذن بالدخول.. لم ينتظر الغوري إعطاء الإذن اندفع

بنفسه نحو الباب وجذب ضيفه للداخل..

ابن زنبل بثقة وثبات:

- كان لسليمان جنود من الإنس والجان والريح ولكن الهدهد علم ما لم يعلمه أحد.

الغوري:

- المجاذيب في مصر أصبحوا بيتكلموا بالمنطق أفضل من العاقلين.

ابن زنبل:

- بس أنا مش مجذوب... ومش بتكلم بالمنطق، أنا بتكلم عن علم!!

الغوري بهدوء:

- إوعى تفتكر إنك علشان توقَّعت موت السلطان إن أنا صدَّقتك أو هصدَّقك .. الناس كلها كانت عارفة إن نهايته قرّبت بسبب فجوره، فإنت ما قولتش حاجة معجزة.

ابن زنبل باسمًا:

- أومال كنت بتدور عليّا ليه؟

تردَّد الغوري قليلًا قبل أن يقول:

- ومين قالَّك إني كنت بدوّر عليك؟

- رمالي.. وعشان كده أنا جيت بنفسي.

ضحك الغوري بسخرية قبل أن يقول:

- طيب اسأل رمالك مين السلطان القادم..؟ الأمراء حتى هذه اللحظة

لسه ما إختاروش سلطان.. أنا إللي واحد من أكبر أمراء المماليك لسه معرفش مين هو السلطان القادم.. تقدر إنت ورمالك تقولي مين هو؟

ابتسم ابن زنبل بثقة قبل أن يُخرج منديلًا كبيرًا مملوء بالرمال وضعه أرضًا، وراح يساوي الرمال بكفّيه وهو يرسم عليها بعض الخطوط الغريبة المكسوّة بالأرقام والحروف.

طال انشغال ابن زنبل وسط ترقُّب من الغوري وقلق حاول أن يواريه وهو يقول:

- شايفك فشلت يا رمّال.

لم يُجبه ابن زنبل واستمر في رسم الخطوط .. بعد فترة قليلة كرّر الغوري عبارته السابقة ولم يُجبه ابن زنبل... نظر الغوري لخادمه وابتسم في سخرية، إلا أن ابن زنبل أجاب قائلًا:

- أنا عرفت السلطان القادم مين هو

احتقن وجه الغوري وشعر بالعرق يكسو وجهه بالرغم من برودة الجو، فقال:

- مين هو؟

ابن زنبل بهدوء:

- معرفش

الغوري بعصبية:

- أومال بتقول أنا عرفت السلطان ليه...؟ مش بقولك إنت كداب كبير!

ابن زنبل:

- رمالي لا تكذب.

- لأ بتكذب.. بدليل إنك ما عرفتش مين السلطان القادم.

- لأ عرفته وقولتلك عليه

- مين هو؟

- معرفش

الغورى بعصبية:

- إنت بتستخفّ بيَا..؟ أنا قولت من الأول إنك كداب مجذوب... يا حراس، إرموا الدجال ده برة.

****

كان الأمير " أزبك " هو الأقرب لمنصب السلطان بعد اغتيال الناصر محمد بن قايتباي، ولكنه أعلن عن عدم رغبته في تولي السلطنة بشرط ألَّا يتخذ السلطان القادم أي قرارات دون الرجوع إليه وإذا تعارض رأيه مع رأي السلطان فيكون رأيه الأرجح... ورأى الأمير جان بلاط أنَّ أحق شخص بالسلطنة في هذا الوقت هو عدوه اللدود طومان باي!!! ولكن الأخير فطن إلى أن هذا فخ الغرض منه القضاء عليه فرفض المنصب...

بعد يومين إتفق أمراء المماليك على تعيين الأمير قانصوه – خال السلطان السابق – سلطانًا لمصر، ولكن دون أي إختصاصات!!! فالأمراء أحضروه وعنّفوه وسبّوه بأفظع الشتائم والسباب ثم قبّلوا الأرض تحت قدمه معلنين ولاءهم للسلطان بعدما اشترطوا عليه بألا يتدخل في شئون الحكم!!!!!

كان السلطان الجديد الذي لم يتجاوز الثلاثين من عمره محبوبًا جدًا من الشعب، فهو الذي لم يكن له مكانًا بين الأمراء.. وجد نفسه بين العوام يسير بينهم دون حراسة.. يلقي التحية للرجال ويشير للسيدات بيده محييًا إياهن فيردُنَّ عليه بالزغاريد...

ابتهج الشعب بهذا السلطان الأشقر الوسيم أزرق العينين البسيط المتواضع الذي يشاركهم أفراحهم وأحزانهم، ولكنهم اغتمّوا منه بسبب تهرّبه من الرد عليهم، فكلما سأله أحدهم في شأن من شئون السلطنة كالضرائب الجديدة أو الأسعار أو خلافه يرد عليهم بكلمة واحدة "معرفش" !! كانت هذه هي الإجابة الوحيدة لكل أسئلة الشعب، الذي أطلق فيما بعد على هذا السلطان لقب "السلطان معرفش"

****

مرة أخرى يتصادف مرور الغوري مع إلتفاف الناس حول ذلك الرمّال ابن زنبل... هذه المرة تجاهل ابن زنبل وجود الغوري الذي وقف خلف الناس راكبًا حصانه، واصل ضرب الرمّال والرد على تساؤلات الناس... وبعد وقت ليس بالقليل تكلم الغوري بحدة موجّهًا حديثه للعامة:

- أنا شايفكم مصدقين الرمّال ده.. ممكن أعرف السبب؟ مين له تجربة سابقة معاه وطلع كلامه سليم؟

ابتسم ابن زنبل إبتسامة زادته وسامة، والرجال والنساء يتسابقون لسرد معجزاته للغوري الذي كان يُبدي دهشته أحيانًا ويسخر أحيانًا أخرى، إلى أن قال أحمد بن زنبل:

- رمالي لا تكذب

الغوري بسخرية:

- بأمارة لما سألتك عن اسم السلطان إللي هييجي بعد الناصر محمد ابن قايتباي وما عرفتش ترد وفشلت في مهمتك...! تحب أفضحك أمام الناس؟

اقترب ابن زنبل منه قائلًا:

- إنت وقتها سألتني عن السلطان القادم وأنا جاوبتك.

الغوري بسخرية:

- لأ ما جاوبتش.. إنت قلت " معرفش "

ابن زنبل:

- ما هي دي الإجابة

أدار ابن زنبل وجهه نحو الناس قائلًا وهو يرفع يده بأداء تمثيلى مبالغ فيه:

- تقدروا تقولولى مين هو السلطان الحالى إللى بيحكم مصر والشام والحجاز؟

الناس جميعًا بنبرات صوتية مختلفة:

- السلطان معرفش... السلطان معرفش

تردَّد الغوري للحظات فكر قليلًا ... نعم هذا الرجل غير كل العرّافين والرمّالين... هو بالفعل لديه علم ما، ولكن......

أمر الغوري الحشد بالإنصراف ونزل عن حصانه ثم وقف هو وابن زنبل وجهًا لوجه في مشهد تكرّر كثيراَ، قبل أن يقول بحكمة:

- أحلامنا يا ابن زنبل زي أعمارنا.. بتمر بمراحل مختلفة... أنا ما أنكرش إني كان عندي طموح كبير لحكم مصر، ولكن الكلام ده كان من أكثر من تلاتين سنة.. وأنا في قمة شبابي وعنفواني، أما دلوقتي وأنا داخل على الستين أصبحت بودَّع أحلامي وطموحاتي ومش عاوزهم خلاص.

ابن زنبل بهدوء:

- رمالي لا تكذب

الغوري بعطف:

- لأ... المرة دي بتكدب.... صدَّقني يا رمّال لو قولتلك إن السلطنة لو جاتني دلوقتي هرفضها... ومسيرك في يوم هتقارب على الستين وتعرف إن كل طموحاتك وأحلامك هتتبدل وتتغير لشئ واحد بس.. هو إنك تقضي أيامك الأخيرة في سلام مع النفس ومع الغير.

صمت الغوري قليلًا قبل أن يضع كفه على كتف ابن زنبل قائلًا:

- يا ريت تنسى موضوع السلطنة ده خالص، ولو صادف وشوفتني في أي مكان يا ريت ما تفتحش الموضوع ده تاني ولا تتكلم فيه لأنه مش هيحصل حتى لو فيها موتي.

امتطى الغوري حصانه مبتعدًا.. في حين ظل ابن زنبل الرمّال واقفًا مكانه للحظات قبل أن يقول:

- هتهرب من أمر ربنا تروح فين غير لأمر ربنا؟

كحجري الرحى تدور الصراعات بين أمراء المماليك، وبينهما الشعب يُطحن في صمت... فجأة قرر أمراء المماليك أن "السلطان معرفش" لا يصلح للسلطنة، ووجب قتله والتخلص منه. إلا أنه استطاع الهرب بالتنكُّر في

ملابس امرأة والخروج من قلعة الجبل، ثم تولى الشعب الذي أحبه مهمة إخفاءه عن سيوف الأمراء.

تم خلع السلطان الملك الظاهر أبو سعيد قانصوه الأشرف الشهير بالسلطان معرفش وأصبح كرسي السلطنة في انتظار السلطان القادم، والذي لن يخرج عن اثنين الأمير طومان باي والأمير جان بلاط، انقسم أمراء المماليك حول الأصلح للسلطنة.. وأوشك أن يدور بينهما قتالًا، خاصة أن ما بين هذين الأميرين عداء شديد. إلا أن الأمير طومان باي حسم الأمر عندما قام أمام جميع الأمراء بتقبيل الأرض تحت قدمي جان بلاط ليِعلنه سلطانًا لمصر ويكتفي هو بمنصب مدير المملكة...

استقر الحكم هادئًا للسلطان جان بلاط لمدة نصف عام، ثم بدأ التمرد عليه من نائبه في الشام " قاصروه " فاستأذن طومان باي من السلطان أن يتوجّه للشام بقيادة الجيش لتأديب هذا المارق " قاصروه "، فأذن له السلطان.

وفي الشام جلس كُلًا من طومان باي وقاصروه وحولهما جيش المماليك في مصر والشام وكبار أمراء المماليك يتبادلون الضحك على هذا السلطان الغبي جان بلاط الذي ابتلع الطُعم!!

أعلنوا عزله من السلطنة وتولية طومان باي سلطانًا للبلاد، ومن الشام يعود السلطان الجديد وسط هتافات الشعب فيتجه مباشرة إلى السجن حيث يمكث السلطان السابق جان بلاط، فيقوم بخنقه بيديه معتمدًا على قوته الجسمانية الجبارة، وذراعيه المفتولين بالعضلات، وقلبه الذي يعشق هذه الطريقه في القتل... فتخلو ساحة الحكم للسلطان الجديد الملك العادل أبو النصر طومان باي سنة ١٥٠١ ميلادية وهو في الأربعين من

عمره..

لم ينسَ السلطان الجديد حليفه " قاصروه " نائب الشام الذى كان له الدور الأكبر فى وصوله لكرسي السلطنة، فقام بمكافأته هو أيضًا بخنقه بيديه بعد أن دعاه لأحد الولائم.

غدر طومان باي بأقرب المقربين إليه، مما جعل أمراء المماليك ينفرون منه ويغضبون عليه، فيقرر السلطان والذي مر على توليته للحكم أربعة أشهر أن يتخلص من جميع الأمراء كلٌ على حدة، إلا أنهم يطيحون به من الحكم في نهار رمضان فيفر من القلعة.

تخلو ساحة الحكم من جديد.. يتعاقب الليل والنهار.. تمر الأيام ومصر بلا سلطان... إجتماعات أمراء المماليك لا تنتهي ولا تثمر عن شئ، كل الأمراء يرفضون منصب السلطان.. الفراغ السياسي القاتل قد يؤدي لكارثة.

وأخيراَ استقر الأمراء على السلطان الجديد، فأرسلوا الجند لإحضاره.....

دخل الغوري ساحة القصر فألقى السلام على الأمراء فلم يجبه أحد، شعر بالقلق الشديد.. إلتفت حوله بترقُّب ليجد أن كل الأبواب قد أوصدت!! دقائق من الصمت المقيت قبل أن تخرج من الأمير " قيت الرحبي " عبارة:

- أهلًا بالسلطان الجديد

انخلع قلب الغوري من العبارة السابقة، إلتفت خلفه ليرى السلطان الجديد فلم يجد أحدًا، فقال شبه باكياَ وقد فهم الأمر:

- مين .... مـ ... مين هو السلــ .. السلطان الجديد؟

الأمير قيت الرحبى:

- مولانا السلطان الغوري طبعًا

بكى الغوري قبل أن يندفع نحو الباب محاولًا الفرار، ولكن الأمراء أمسكوا به وجذبوه من ملابسه.. فخلعها وحاول الفرار مرة أخرى، ولكنهم أسقطوه أرضًا ثم جروه جراَ من ساقيه حتى كرسي السلطنة، لم تفلح استغاثاته وتوسلاته إليهم لكي يتركوه يرحل ويعود لمنزله وأولاده سالمًا، هيهات.. فأمر المماليك قد نفذ.

أجلسوه عنوة على كرسي السلطنة، حاول أكثر من مرة الوقوف ولكنه فشل إلا أن قام الأمير مصرباي بوضع السيف على رقبته وأقسم أن رأسه ستغادر جسده إن غادر هو هذا الكرسي...

بكى الغوري بكاءَا شديدًا قبل أن يوافق مُرغمًا:

- خلاص موافق.... مو.... موافق ... هكون سلطان خلاص، بس بشرط محدش يقتلني، ولو في يوم مش عاوزني في الحكم قولولي إمشي وأنا همشي على طول من غير قتل.

وهنا قبّل جميع الأمراء الأرض تحت أقدام السلطان قنصوه الغوري.

ظهيرة اليوم التالي خرج موكب مهيب يجوب أنحاء القاهرة، حيث قرر السلطان قنصوه الغوري -مُرغمًا- النزول للشوارع والطرقات لتقبّل التهنئة من الشعب، اصطفَّ الناس على جانبي الطريق لتحية السلطان الغاضب المتجهِّم الذي لا يجرؤ على البوح بما في داخله ونفسه تحدثه قائلة: " كل هذه الناس سعيدة إلا أنت أيها السلطان... كل هذه الناس آمنة مطمئنة إلا أنت "، على يمينه الخليفة العباسي "المتوكّل على الله" يعقوب، وعلى يساره الأمير قيت الرحبى، وأمامهم قضاة المذاهب الأربعة وعدد كبير من أمراء المماليك ... وجوه مصرية بسيطة تبتسم وتلوَح للسلطان العابس،

ومن وقت لآ خر يميل الأمير قيت الرجبى ناحية السلطان آمراَ إياه - بغلظة مع إبتسامة خبيثة - أن يتحرر من مخاوفه ويرد التحية على الشعب... ولكن الغوري نقي السريرة لا يستطيع إظهار عكس ما يكمن بداخله، لذلك داوم على العبوس وتجهم الوجه وسط سعادة الناس " علامَ تفرح وتمرح وتُهلِّل أيها الشعب البائس التعسّ...؟! إن سنوات حالكة السواد في إنتظارك.... أسعيدٌ أنت لرحيل سلطان ظالم؟ فلتسعد أكثر فأنت الآن يحكمك أمراء أشد ظلماً وطغياناً يتوارون خلف السلطان منزوع الإرادة ".

بين تلويحات الشعب وعبوس السلطان ظهر وسط المصطفين شاب طويل وسيم يبتسم للسلطان دون أن يلوح له.

انتفض السلطان بمجرد رؤيته وصاح فيمن حوله وهو يشير إليه:

- أحضروه.

انتهى الموكب وبداخل القصر انفرد الغوري بهذا الشاب الرمّال ابن زنبل الذي لم تفارق الإبتسامة وجهه وهو يقول:

- وفوق كل ذي علمٍ عليم... هو علم حقيقي وليس دجل، علم الرمال وقراءة الطالع من أقدم العلوم إللي عرفتها البشرية ولكن لها قواعد وأصول... الرمال مش بتكدب أبدًا، لكنها ما تقدرش تقولّك على كل حاجة. هي بس بتدلَّك برموز بسيطة على أشياء في علم الغيب وما تحاولش تعرف أكثر من إ للي الرمّال قالتلك عليه لأنها مش هتقولَّك ولا هتقوللي إلا على الحاجة إللي ربنا أراد لنا أن نطَّلع عليها وبس.

قطرات عرق برزت على جبهة السلطان الغورى فبلَّلت طرف العمامة بالرغم من برودة الجو، الغوري بقلق:

- طيب شوف كدة في الرمال... فيه حد عاوز يقتلني...؟ حد طمعان في

السلطنة؟ وشوف أنا هعيش أد أيه... وهل هموت وأنا في السلطنة...؟ وشوف هموت مقتول ولا موتة عادية؟ وشوف كمان مين إللي هيكون سلطان بعدي.... وشوف أأ...

قاطعه ابن زنبل الرمّال بهدوء:

- علم ذلك عند ربي.... أنا مش هقدر أقولَّك غير على إللي هيتكشف لي وبس

الغوري:

- طيب شوف إيه المكشوف عندك.

راح ابن زنبل يضع بعض الخطوط على رماله، ثم قال بعد تفكير طويل متعمّد:

- سلطانك سيدوم طويلًا.. طويلًا جدًا. سنوات عديدة.

ا بتسم الغوري في سعادة قبل أن تتحوّل تعبيرات وجهه للجمود عقب عبارة ابن زنبل:

- ثم ستأتي النهاية.... لا محالة ستأتي.
- إزاي؟!

ابن زنبل وهو يلملم أدواته:

- الله أعلم... ده إللي وصّلني من علم الله.... ولو قلت أكثر من كده أكون كداب.

٦- التجربة

بوفاة عبد الكريم أصبح زيدان هو لحّاد المقابر الوحيد، مرّت سنوات تحوّلت خلالهم أحوال زيدان المادّية للأفضل، كما تحوّلت الهزيمة لنصر.. وشتّان ما بينهما، استمع زيدان لأسرار شهداء حرب أكتوبر وتواصل بطريقة غير مباشرة مع ذويهم.. كانت سعادته كبيرة وهو يتحدث مع الشهداء، عرف أسرارهم وحمل أماناتهم، وهو ما أعطاه دفعة قوية.. فصار أكثر شجاعة من ذى قبل.. لم يعد يهاب أى شئ، ولكن عندما جاء هذا اليوم أيقن زيدان أن مهمته ليست سهلة..

منتصف إبريل ١٩٧٥ :

بعد منتصف الليل بساعة.. اقتحم زيدان مقبرة الشاب الذى دُفِنَ ظهر اليوم، وبعد إفاقة الميت الذى تحوّل لون شعره من السواد الحالك إلى بياض القطن تحدَّث بهدوء شديد قائلًا:

- أنا محمد عبد العظيم درويش.... كنت أعمل مدرس مساعد بكلية العلوم جامعة القاهرة، كانت حياتي هادئة مستقرة.. كل اهتماماتي الدراسة والعلم والأبحاث والتجارب العلمية فقط، حياة المدينة الصاخبة لم تنزع مني تلك الصبغة الريفية التى ورثتها عن والدي بالرغم من نشأتى بحي روض الفرج، ملابسي البسيطة وعفويتي في النقاش وإصراري على نيل درجة الدكتوراة كانت أشياء تميزني بشدة بين أساتذتي وزملائى.. لم أكن اعلم وقتها أن الطموح والفضول العلمي أشدَّ خطراَ على حياة الإنسان من كل الأمراض والأوبئة التي عرفتها البشرية. رسالة الدكتوراة الخاصة بي كانت عن بروتين الكولاجين، لذا فقد قمت بعمل عدة تجارب وأبحاث عنه، كان البحث الخاص بى من الناحية النظرية سليم مائة في المائة..

ولكنه من الناحية العملية يُعطي نتائج مختلفة تمامًا.. معمل الكلية شاهد على كمّ التجارب التي قمت بها حتى ينجح البحث وأنال درجة الدكتوراة، كل شئ على الورق سليم ولكن هناك شئ ما خطأ في التطبيق لا أعلم ما هو، لذلك كنت أعيد التجربة مرة تلو المرة، وفى كل مرة تفشل. هكذا سارت حياتي إلى أن جاء إلى الكلية الدكتور الشاب أحمد علي نور الدين.

في البداية ظننته أحد نجوم السينما الذين لا تكف الطالبات من الحديث عنهم، ولكنني علمت بعد ذلك أنه أحد العائدين من الإتحاد السوفيتي عقب حصوله على درجة الدكتوراة من جامعة موسكو العريقة.. وسامته ولباقتة وأناقته وثراءه الفاحش وحب الجميع له لم يجعلوني أشعر بالغيرة منه ولكنني شعرت بالغيرة حقًا من علمه الغزير وبساطته في شرح أعقد المسائل العلمية... تمنّيت الإقتراب منه ولكنني تردَّدت خجلًا، إلى أن جاء اليوم الذي كنت مندمجَا في إعادة تجربتي الفاشلة للمرة المائة بعد الألف.. كنت أتصبّب عرقًا.. أحتاج فقط للتركيز الشديد لمعرفة سبب فشل التجربة علميًا، أوشكت نظارتي على السقوط دون أن أنتبه، النسب سليمة والمعايير سليمة والدقه في أعلى درجاتها و..... وفشل جديد يُضاف للقائمة، مسحت عرقي بطرف ملابسي وسحبت مقعد قريب مني لأرتاح قليلًا، فوجدته جالس أمامي في هدوء ممسكًا بدفتر ما.... بعفويّتي المعهودة نسيت الترحيب به وسألته:

- متى دخلت المعمل؟!!

أغلق الدفتر وقال بهدوء:

- النظري كشمعة أضأتُها لتنير لك الطريق وسط الظهيرة، والعملي نفس الشمعة فى ذات الطريق فى ليلة مظلمة.

لم أفهم ما يقصده، ولكنه قام من مقعده وسار إلى منتصف المعمل وأشار

لي بكلتا يديه كأنه يُقدِّم عرض لفقرة ساحر، وقال:

- لماذا تضيف الجزئ أولًا ثم تنتظر الغليان؟!! يجب إضافة الجزئ بعد الوصول لدرجة الغليان.

ألقى إليّ بالدفتر الذي لم يكن سوى دفتري الخاص الذي دوّنت به النظرية، والذي دائمًا ما أتركه على منضدة المعمل، قبل أن ينسحب خارجًا في هدوء قائلًا والإبتسامة لا تفارق وجهه:

- سأنتظرك بالخارج.

ما هذا المعتوه؟ وماذا يقصد بإضافة الجزئ بعد الوصول لدرجة الغليان...؟ فكرت قليلًا ثم أعدت التجربة مع الإختلاف البسيط الذي أخبرنى به دكتور أحمد لتنجح التجربة أخيرًا...... أخيرًا سأنال الدكتوراااااااااه.

خرجت لأجده في الممر المؤدِّي للمعمل لا أعرف كيف اندفعت نحوه واحتضنته بشدة، دموعى نصفها أغرق وجهي والنصف الآخر مسحته في ملابسه، شكرته بحرارة على مساعدته ومشاركته لى. عبارة واحدة قالها ثم غادر:

- إنه بحثك أنت.. التجربة نجحت وأنت وحدك في المعمل بينما كنت أنتظرك بالخارج.

يا لنبل أخلاقه وسموّ روحه مع علمه.. منذ ذلك الحين صرنا صديقين حميمين، ذهبت لفيلته الكائنة بحي الزمالك التي يقطن بها وحيدًا.. تناولنا الغداء ثم تحدَّثنا في بعض الأمور العلمية، هذا الشاب يمتلك علمًا غزيرًا لا أعلم متى اكتسبه؟!!

بداخل الفيلا وجدت أكبر وأروع و أفخم معمل قد تجده في حياتك، عرض

عليّ مساعدته في بعض الأبحاث العلمية التي يقوم بها فى معمله هذا، فوافقت على الفور قائلًا: "ومَن يرفض مساعدة بائع المسك؟!"، قضينا أوقاتًا طويلة في العمل على مدار شهر كامل.. تعلمت منه الكثير والكثير، لدرجة إنني تساءلت هل يحقنون الطلاب في الخارج بمواد معينة بحيث يستوعب العلم كله دفعة واحدة فيصير نابغة كالدكتور أحمد؟، أنا أبلغ الثامنة والعشرون من عمري وهو كما علمت أكبر مني بعامين فقط، ولكنه يعلم أكثر مني بمئات السنين، منذ أسبوعين عرض عليّ دكتور أحمد إحدى اكتشافاته العلمية التي جعلتني كالمخمور... أخبرني أنه عمل أولًا بجامعة إمستردام بهولندا، وأنه توصّل إلى اكتشاف عقار مستخلص من مادة الميتفورمين التي تستخدم لعلاج انخفاض سكر الدم، هذا العقار يمنع من إصابة الإنسان بالشيخوخة، فهذه المادة تجعل جميع أجهزة الإنسان تعمل بكفاءة تامة مهما بلغ السن من تقدم، وأنه سافر إلى الولايات المتحدة لعرض أبحاثه هذه على معهد " باك " لأبحاث الشيخوخة في كاليفورنيا ولكنه لم يجد التعاون الكاف، وأخبرني أن عدم التعاون معه وقتها كان لأسباب سياسية.... لذلك قرر الرحيل إلى الإتحاد السوفيتي.

وهناك وجد الترحاب الشديد وفتحت له المعامل ومراكز الأبحاث الكبرى ليواصل اكتشافاته.. وهو ما جعله يقفز للخطوة التالية.

فبعد أن توصّل دكتور أحمد لإبتكار عقار جديد يجعل أجهزة الجسم تعمل بكفاءة كاملة - طوال عمر الإنسان، فلا تتلف أو تضعف بل تصير شابة للأبد - وجد مشكلة كبرى تتمثل فى أن مع هذا العقار سيجعل الإنسان شابًا من الداخل وعجوزًا من الخارج.. فما جدوى أن يكون رجلًا فى السبعين أو الثمانين من عمره يحمل بداخله أجهزة سليمة بينما قد انكمش جلده وازدادت تجاعيده وأصبح يحمل ملامح رجل عجوز..؟ لذلك

توصّل دكتور أحمد لعقار آخر تمّ استخلاصه من بروتين الكولاجين، يجعل هذا العقار خلايا الجلد تتجدد دائمًا فلا يصاب الجلد بالشيخوخة ولا تتسرب التجاعيد الناتجة عن نقص الكولاجين إلى الجسم.. وبدمج العقارين الذين اكتشفهما دكتور أحمد نجد أن الإنسان سينجو من الإصابة بالشيخوخة ويصير المرء شابًا دائمًا قلبًا وقالبًا، حتى ولو تجاوز المائة أو حتى الألف عام..

يقول البعض أن بين العبقرية والجنون خيط رفيع، وكنت أقول أنه لا يوجد بينهما أي خيوط على الإطلاق.

ظهيرة أحد الأيام وبينما نحن في معمله الخاص يواصل شرح نظريته لي إذ دق هاتف المنزل، بعد حوار طويل بينه وبين الطرف الآخر إستأذن على الفور متعللًا بضرورة ذهابه إلى السفارة الروسية على الفور لإنهاء بعض الأمور الخاصة به، طلب مني البقاء في المعمل حتى يعود ولسوف يحضر لنا طعام الغداء..

رحل، فواصلت إطلاعي الجاد على أبحاثه وأنا معجب بهذا الشاب العبقرى الذي يسبق عمره بسنوات.. بعد فترة شعرت بالإرهاق فإرتميت على أقرب مقعد و ثير بأحد الأركان، نصف ساعة من النوم كانت كفيلة بإستعادة نشاطي مرة أخرى، قمت من مقعدي ورحت أتجوّل في أركان المعمل.. بعض الصور العتيقة جدًا مُعلَّقة على الجدار.. إحدى الصور لرجل وسيم يشبه دكتور أحمد ولكنه ذو شارب رفيع وإلى جواره صورة أخرى لرجل عجوز جدًا تجاعيد وجهه تخبر أنه تجاوز الثمانين، ثم صورة لنفس الرجل الوسيم يجلس حاملًا طفل صغير.... صور عتيقة جدًا جدًا يبدو أنها أخذت بإستخدام أول آلة تصوير فى العالم.. هناك مكتب فاخر ممتلئ بالكتب العلمية و الأوراق والرسائل توجّهت إليه ورحت أقلِّب في الكتب

القيمة.. فسقطت صورة من بين الكتب هي نفس الصورة المُعلَّقة بالجدار للرجل الوسيم والطفل. ونظراَ لأن فضولى العلمي لا يتجزأ من فضولى الشخصي أمسكت بالصورة محاولًا قراءة تاريخها الذي يدوِّنه المصور خلف الصورة حتى يتيسّر له استخراج نسخ فى أى وقت بسهولة..

المهم وجدت تاريخ ١٩٠٢/٣/١٢ مدوّنًا عليها فعلًا، فهي صورة عتيقة كما ذكرت، ولكن........!!!!

أرعبني المكتوب فوق التاريخ بقلم حبر أزرق؛ حيث كُتِبَ اسمين هما (علي نور الدين وأحمد علي نور الدين) !!

هنا بدأت أشعر بالتوتر الشديد من فكرة قفزت لرأسى، رحت أنقب وأبحث بين الأوراق عن شئ ما فلم أجده فتحت كل أدراج المكتب مبعثراَ محتوياته.. إلى أن وجدت ملف حررت فوقه عبارة " سري للغاية "، سحبت الملف وبدأت في مطالعته.. وهنا وجدت ما كنت أصبو إليه.. صورة ضوئية لبطاقة شخصية بإسم أحمد علي نور الدين سنبل وصورة ضوئية أخرى لجواز السفر الخاص به... وعليهما وبخط واضح تاريخ ميلاده ٢٦ من مايو عام ١٩٠٢؟!!!!

معنى هذا أن دكتور أحمد هذا الشاب الرياضي الوسيم الممشوق القوام والذي يكبرني بعامين فقط يبلغ من العمر ثلاثة وسبعين عامًا!! كيف ؟!! لا !! هذا مستحيل!! ولكن لمَ الإستحالة..؟ لقد كنت أتساءل من البداية كيف لشابٍ مثله أن يمتلك كل هذه المعلومات والخبرات والعلم الغزير...؟ نعم لقد تساءلت يومًا ما عن نبوغه العلمي الفائق وعبقريته الفذة، ولـ كنني أوهمت نفسي بأن التعليم في الخارج أقوى كثيرَا... ثم لماذا لم أسأل نفسي كيف أصبح هذا الشاب أستاذ دكتور في هذه السن الصغير؟

فمثل هذا الأمر يحتاج لسنوات!!

كنت أعبث بهذا الملف السري للدكتور أحمد والذي يحوي على شهادات تقدير من جامعات عالمية مختلفة جميعها تشهد بأن الدكتور أحمد علي نور الدين سنبل المولود في مدينة المحلة عام ١٩٠٢ قد حصل على الدكتوراة في مجالات علمية مختلفة.

أوشكت على الجنون وأنا أتصفح هذه المعجزة العلمية الرهيبة والخطيرة في ذات الوقت، لا أعلم متى فرغت من قراءة كل الأوراق والمستندات السرية للدكتور أحمد، أعدتها مكانها مرة أخرى ورفعت رأسى لأجده أمامي جالسًا على المقعد المقابل ينظر لي مبتسمًا ابتسامته الهادئة الواثقة، متى جاء؟!! ومتى دخل المعمل؟!! ومنذ متى وهو يراقبني؟!! لم يعد هناك وقت للخجل أو الإعتذار عمَا فعلته... قمت على الفور واقتربت منه، رحت أمرَر أصابعي على وجهه الناضر المفعم بالحيوية، تركني أداعب وجنتيه أحيانًا وأجذبها بسبابتي وإبهامي تارة أخرى وأنا أقول:

- هل هذا وجه رجل يبلغ من العمر ثلاثة وسبعين عامًا؟!!

وقف فجأة وعلت ضحكته وهو يقول:

- نعم يا بني هذا وجه جدو أحمد...هل تصدق ذلك؟

إنبهاري بالعلم وحبي للعلماء العظماء الذين كنت أقرأ عنهم ولم أرَهم جعلني أحتضنه في سعادة شديدة، لدرجة أنني حاولت رفعه عن الأرض ولكنني فشلت، فهتفت:

- يحيا العلم ويحيا معجزة العلم الحديث دكتور أحمد علي نور الدين.

حملنى وهو يضحك بذراعيه القويتين وأنا أواصل الهتاف..

منذ ذلك الحين أصبحت إقامتي شبه دائمة بفيلا دكتور أحمد بناءَا على رغبتي وبعد ترحيبه.. أصبحت أوقره أكثر ممّا سبق وأتعامل معه كأنه شيخ مُسنّ يحتاج للمساعدة طوال الوقت.. مرت أيام كنت ألتهم فيهم العلم كتمساح جائع.. لم يخلُ الحديث العلمي طبعًا من بعض المقتطفات الشخصية و التي رأيتها غير ذات أهمية.

الخميس نهاية الأسبوع أمرني والدي بالذهاب مع والدتي لإحدى المستشفيات لزيارة خالها حسين... وبصفتي رجل علم أمقت وبشدة كل الزيارات العائلية والعلاقات الإجتماعية التي لا تخلو من بعض بلهاء العائلة وهم يسألونك بصفتك دكتور عن أفضل علاج للإسهال، فتجد ردًا عليهم من أحد المتعلمين من الحاصلين على الإبتدائية قائلا أنه دكتور في كلية العلوم وليس طبيب لذلك لا يستطيع أن يوصف لكم علاجَا للإسهال، ولكنه يستطيع وصف أعشاب لذلك... ذهبت للمستشفى برفقة أمي التي ما أن رأت خالها ممددًا على سرير ما حتى أجهشت بالبكاء.. كان طاعنًا في السن تجاوز الثمانين، شقت التجاعيد وجهه وتوغّلت فيه، يداه المرتعشتان وعيناه الشاخصتان تبثان الرعب بداخلك، قلبك يخبرك أنه قد يموت في أي لحظة فإستعد لذلك.

مكثنا عنده بعض الوقت إلى أن قام بالتبول لا إراديّا على فراشه فطلبت منا إحدى الممرضات بتأفّف وإشمئزاز وهى تشير نحو الباب الخروج من الغرفة وكأننا نحن الذي قمنا بالتبول، أثناء عودتنا للمنزل أخبرتني أمي أن خالها حسين منذ أن ماتت زوجته ترك شقته وذهب ليقيم لدى ابنه رمضان، ولكن زوجة هذا الأخير كانت غاية في السوء.. سليطة اللسان.. فلم يتحمل العجوز وقاحتها فقرر العودة لشقته ليعيش بها منفردًا، وأول أمس تعثّر فسقط أرضًا ولم يشعر به أحد إلا في اليوم التالي...

كنت قد سرحت قليلًا في المستقبل وتخيلت نفسي أمر بمثل ما يمر به هذا الرجل.... إن الشيخوخة ليست حكمة ووقار كما يعتقد البعض، ولكنها لعنة... لعنة ما قبل الموت.

صباح اليوم التالي " الجمعة " استيقظت مبكرًا كعادتي، وقفت في شرفة المنزل أحتسي كوب الشاي بالحليب الذي أعدَّته لي أمي، كنت قد إتخذت قرارًا لا رجعة فيه.. سأتعاطى العقارين الذين اخترعهما دكتور أحمد.. لن أنتظر تلك اللحظة التي يتقوس فيها ظهري وأسير متعكزًا على عصا خشبية لعينة، لن أنتظر حتى ترتعش يداي وأنا أتسلَّم معاشي الشهري لأنفق نصفه على طعامي ونصفه الآخر على علاجي.. لن أنتظر نظرة العطف التي سيلقيها على أقاربي وهم يزورونني في المستشفى وأنا طريح الفراش.. لن أنتظر صراخ ممرضة في وجهي بسبب تبولي اللا إرادى وهي تقول: " يا لك من عجوز عفن ". لن أنتظر... انتبهت على صوت أمي وهي تستدعيني للداخل، وما أن فعلت حتى راحت تُمرِر البخور فوق رأسي وهي تردد بعض الأدعية خوفًا على من الحسد... بعد ذلك كان لا بد من الإستحمام وإرتداء الجلباب الأبيض والذهاب إلى المسجد المجاور للمنزل، لا أخفي سرا عندما أقول أنني واصلت السرحان طوال خطبة الجمعة ولم أنتبه لكلمة واحدة مما قالها خطيب المسجد إلا عندما بدأ بالدعاء والناس يردِّدون خلفه فإنتبهت جيدًا للدعاء خاصة عندما قال اللهم إنا نعوذ بك من العجز والكسل، فقلت وما الشيخوخة إلا عجز وكسل.. اللهم إني أعوذ بك منهما.. بعد أن فرغنا من آداء الصلاة انفردت بإمام المسجد ذو الزي الأزهري العتيق، سألته عن مدى مشروعية أن يحافظ الإنسان على شبابه طوال عمره فأجاب بسطحية -مثلما سألته- المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف وعليك بممارسة الرياضة حتى تحافظ على نشاطك وقوتك

وصحتك و...

قاطعته قائلًا وقد أيقنت أنني يجب أن أوجَه سؤالي مباشرة:

- ما رأي الدين إذا حاولت أن أكون شابًا طوال حياتي مهما بلغ بي العمر؟!!

ابتسم الشيخ وربّت على كتفي بهدوء قائلًا:

- أتخشى الشيخوخة؟

- نعم أخشاها كالموت.

قال بهدوء:

- ومن منّا لا يخشاها؟! ولكنها حكمة الله.. "والله خلقكم ثم يتوفاكم ومنكم من يُردّ إلى أرذل العمر لكي لا يعلم بعد علمٍ شيئًا"

قلت له:

- أترى؟ لقد سمَاها الله أرذل العمر..

انتهى النقاش على أمر سبق وأن عقدت العزم على تنفيذه، وما كان رأي إمام المسجد إلا محاولة لإرضاء ضميري فقط....

في اليوم التالي قابلت الدكتور أحمد في الجامعة كان يرتدي ملابس شبابية عصرية كعادته، أخبرته برغبتي في خوض التجربة حالًا وطلبت منه أن يحقننى بالعقارين الآن، ضحك كثيراَ وراحت ضحكاته تتعالى وهو يضرب كفًّا بكف، مما جعلني أشعر بالغضب الشديد من هذا الأحمق المتصابي هل نسي نفسه هذا العجوز حتى يتصرف كالصبيان ويطرق على كتفي كالشباب...؟ عندما رأى إحمرار وجهي والشرر الذي يتطاير من عيني،

حاول كتم ضحكته وهو يجذبني من يدي ويتجه نحو المعمل..

في المعمل بادرني قائلًا وهو لا يزال يضحك:

- هل من المعقول أن أستاذ مساعد بكلية العلوم لا يعرف أبسط القواعد العلمية؟! كيف أحقنك بعقارين شديدى التفاعل دون إجراء التحاليل الطبية اللازمة؟

شعرت بالخجل قبل أن أقول:

- وهل خطأ بسيط مثل هذا يستدعي كل هذا الضحك.

لوّح لي بسبابته قائلًا بدهشة:

- خطأ بسيط!!! غير مسموح بالأخطاء في التجارب والنظريات العلمية على الإطلاق.

قلت في نفسي:

- أنت محق أيها الوغد العجوز.

ابتسم بمكر وغادر المعمل... هل قرأ هذا الشئ العجيب أفكاري؟!! لا أعلم.

أسبوع كامل استغرقه دكتور أحمد قبل أن يقول لي:

- أنا جاهز بالعقارين... هل أنت مستعد لنبدأ مهمتنا؟

خفق قلبي بشدة وراح عقلي يذكرني ببعض الإجتماعيات التي سأفقدها مستقبلًا فمن المستحيل أن أتزوّج امرأة واحدة تكون زوجة لي طول العمر، ومن المستحيل أن يكون لي ابنًا يشيخ أمامي وأنا ما زلت شابًا، ومستحيل أن أواصل العيش في ذات الحي الذي ولدت فيه ويحمل معه

كل ذكرياتي... لساني تغلَّب على قلبي وعقلي معًا عندما قال:

- نعم أنا مستعد تمامًا.

قام دكتور أحمد بحقني أولًا بعقار مكوّن من مادة الميتفورمين مخلوطة بزيت من نبات المدرة المخزنية، وهي نفس العشبة التي يستخرج منها الميتفورمين، وهذا العقار بحسب وصف دكتور أحمد يحافظ على أجهزة الجسم الداخلية سليمة وخالية من الأسقام والتلف لمئات السنين... لم أشعر بعد هذه الحقنة بأي تغيرات أو أي أعراض جانبية فعلًا كما أخبرني دكتور أحمد.. ثم جاء دور الحقنة الثانية وهي عبارة عن صبغة الميثلين الأزرق التي تطيل عمر الخلايا الليفية المسئوولة عن تشكيل الأوعية الدموية ونضارة الجلد وتخليق الكولاجين والإيلاستين، وهذا العقار خاص بالحفاظ على أنسجة الجلد لتظل مفعمه بالحيوية طوال الحياة فلا يتجعّد الجلد ولا يشيخ ويصير شابًا للأبد.

سبق وأن أخبرني دكتور أحمد بأن الحقنة الأولى لا تحدث أية تغيرات بالجسم بالرغم من أنها تتعامل مع أجهزة الجسم الحيوية، في حين إن الحقنة الثانية والتي تبدو نظريًا أكثر سهولة ذات أعراض جانبية شديدة تبدأ بالدوار والغثيان الشديد مع إفراز العرق والقئ وتنتهي بإرتفاع شديد في درجة الحرارة تستمر لمدة ثلاثة أيام بعدها تبدأ الحياة الشابة الجديدة.... أوهمت والدتي بأن إرتفاع درجة حرارتي أو السخونية كما تطلق عليها سببها إصابتي بنزلة برد، فراحت ترعاني طوال اليومين الأولين، ثم جاء اليوم الثالث والأخير الذي لن أنتظر بعده أي خدمة أو رعاية صحية من أحد،

قبيل العصر شعرت بإزدياد فى ضربات القلب وضيق شديد في التنفس..

حاولت جاهدًا الإتصال بدكتور أحمد على هاتف منزله، ولكنه لم يجِب كررت المحاولة وأنا أشعر بالعرق يغمرني بشدة وبرودة في جميع أطرافي وقلبي يوشك على القفز خارج القفص الصدري من شدة الخفق... أين ذهب هذا الرجل إنه لا يغادر معمله إلا نادرًا.

إشتدت أزمتي الصحية ووالدتي لا تكفُّ عن عمل كمادات مياه مع بعض الأدعية ضد العين والحسد، ولم يخلُ الأمر من رسم عروسة من الورق مع طعنها عدة طعنات بإستخدام إبرة صغيرة. طلبت من والدتي الكفّ عن المزاح ولولا إحترامي لها لقلت الجهل.

في المساء إزداد الألم جدًا قمت بالإتصال بالدكتور أحمد ولكنه لم يرد على الهاتف، هو لا يخرج ولا يغادر منزله أو معمله فى المساء أبدًا، راودنى شك أنه يستمع إلى رنين جرس الهاتف ويضحك في سخرية ولا يجيب....

ارتديت ملابسى بصعوبة وانطلقت كالطير الذبيح متجاهلًا نداءات أمي بالبقاء حتى تتحسّن حالتي... تظن أمي أن خروجى خطر على حياتي، وأرى أنا العكس.

بداخل فيلا دكتور أحمد صرخت بشدة وأنا أبحث عنه:

- دكتور أحمد...... دكتور أحماااااااد.... إنقذني، إنى أموت.

بحثت في المعمل فلم أجده، ثم اندفعت مترنِّحًا لكل الغرف كل الأركان لم أجده، عدت إلى المعمل مرة أخرى.... كانت قدماي بالكاد تحملاني، ناهيك إنني سقطت أرضًا عدة مرات، ولكن عند عودتي للمعمل ووجدته أمامي!!!!!!!!

تسمّرت أطرافي.. لم أستطع مواصلة السير أو الوقوف.... كان دكتور أحمد

جالسًا يدوِّن شئ ما دون أن ينظر إليّ!! للوهلة الأولى أدركت أنني وقعت لمكيدة صنعها لي هذا الرجل، وبالرغم من ذلك توسّلت إليه قائلًا وأنا أسقط أرضًا:

- دكتور أحمد..... إنقذني.

قلت عبارتي السابقة ورُحت أتقيأ دمًا بغزارة، فنظر لي قائلًا ببرود:

- يبدو أن هناك خطأ في العقار... سأعيد حساب النسب والمكونات، ثم سأجري التجربة مرة أخرى على متطوَع جديد.

خطأ في العقار؟!! التجربة؟!! متطوع جديد؟!! هذه الكلمات لا تعني إلا شيئًا واحدًا؛ كم كنت غبيًا حين صدقت هذا النصاب.

الألم يعتصر صدري وأشعر بإختناق شديد، ولكن فضول العلماء لا ينتهي حتى فى سكرات الموت، لذا سألته وتمنيت أن تصلني الإجابة قبل الموت:

- ألم تتعاطى هذا العقار منذ سنوات كما أخبرتني؟ أم إنك كنت تخدعني وصنعت مني فريسة لك ولتجاربك؟

رد بهدوء وهو يواصل كتابته:

- بالفعل كنت أنت الفريسة.. ولكنني لست حزينًا من أجلك. كيف لرجل يطلق على نفسه لقب عالم ويصدِّق نظرية علمية على الورق وينخدع بسهولة شديدة هكذا؟ كيف صدقت أنني مواليد عام ١٩٠٢ ؟ كيف لم تفطن إلى أن جميع الأوراق والمستندات الخاصة بهويتي مزوّرة؟ كيف سيتم استخراج بطاقة شخصية لرجل يبلغ من العمر ثلاثة وسبعين عامًا وعليها صورة شاب في العشرينات؟ أنت تستحق بالفعل أن تكون فريسة للعلم.

- أفهم من ذلك.....

- تفهم من ذلك أنك في عداد الموتى أيها الغبي.

ثم هب واقفًا في خيلاء وقد صارت ملامحه مرعبة، سار عدة خطوات حتى اقترب مني وقال في غرور:

- العلم للعلماء وليس للأغبياء... أمثالك يتم ذكرهم في المجلات العلمية في صفحة الفكاهة فقط.

كنت كقطعة القماش المهترئة مستلقياَ على الأرض لم أستطع إلا أن أقول عبارة:

- إنقذني أرجوك

نظر لي وهو يبتسم في سخرية شديدة.. وأطال النظر والإبتسام قبل أن يقول:

- حسنًا... سأنقذك.

تعجبت من استجابته السريعة الغير متوقعة وظننته يسخر منى، وإزددت تعجبَا عندما رأيته يتجه نحو مكتبه ويُخرج زجاجة بها سائل شفاف اللون من أحد الأدراج، ملأ أحد الحقن بهذا السائل وقال في جدية ممزوجة بالإبتسام كما عهدته من قبل:

- بمجرد أن أحقنك بهذا السائل ستعود كما كنت بل أفضل مما كنت، فهذا العقار يزيل أي أثار حدثت لك.

قلت والألم يعتصر صدري ولم أعد أشعر بأطراف قدماي مطلقًا:

- وما أدراني أنك صادق معي هذه المرة ولا تريد تجربة عقار جديد؟

ابتسم ثم تجهم وجهه وقال:

- عندك حق... أنا آسف فعلًا.

ثم رفع الحقنة لأعلى ليقذفها بعيدًا، إلا أنني صرخت _أو شبه صرخت_ فلم تعد لدي أي قوة:

- إنتظر، لقد وافقت.

قال بخبث:

- ولكن لي شروط ثلاث يجب أن توافق عليهم جميعًا

قلت على الفور:

- حسنًا ... موافق وسأنفذها جميعًا

فقال بعصبية:

- أصمت أيها الغبي حتى تستمع للشروط

أومأت برأسي موافقًا، فواصل حديثه بحدة:

- الشرط الأول أن ما حدث يظل سرَا بيننا فلا يعلم به أي مخلوق آخر.

- موافق

- الشرط الثاني أن تعترف بفضلي عليك وأنني أحييتك من جديد بعد موتك

لم أفهم ما كان يصبو إليه فقلت موافق، قبل أن يفاجئني بالشرط الثالث قائلًا:

- أما الشرط الثالث فهو .....

قال عبارته السابقة وانتظر طويلًا وهو يحدق في وجهي وكأنه يقرأ ما بداخلي قبل أن يواصل:

- أن تشهد أني ربك وأن تعبدني بإخلاص!!

نزلت جملته عليّ كالصاعقة، فتحولت نظرتي إليه من التوسل إلى الغضب وأنا أقول بتحدى رغم الألم الشديد:

- لا إله إلا الله

فركلني بقدمه في وجهي بقوة صارخًا:

- لماذا؟ لماذا أيها الغبي؟ ألم أميتك وأحييك؟ .... ألم أعلمك علمًا يصعب على غيري معرفته؟.... ألم ....

كان يواصل صراخه عندما شعرت بسكرات الموت تتسلل من قدماي، وبدأت الروح في وداع هذا الجسد الذي رافقته أعواماً قليلة، ثم لم أشعر بأي شئ بعد ذلك إلا بدعوتك هذه لي بالقيام من قبري.

****



٧- السلطان قنصوة الغورى

خائفًا مترددًا بدأ السلطان قنصوّة الغورى حكم مصر، وإن كان الأمير قيت الرجبى أتابك العسكر هو الحاكم الفعلي، فهو الذى يقوم بتعيين الدوادار (مسئول المراسلات والمكاتبات السلطانية) والاستادار (المشرف على احتياجات السلطان من طعام وشراب وكساء وما إلى ذلك) والجاشنكير (المسئول عن تذوق الطعام والشراب قبل السلطان خشية السم) وأمراء المجلس والنواب وحاجب الحجاب والكشافين وشاد العمائر وناظر الخاص ووالي القلعة ووالي القاهرة والمُحتسب (المسئول عن الأمور المالية ومراقبة السلع والأسواق والأسعار)

لولا ذ لك الشاب أحمد بن زنبل الرمّال - الذى صار أكثر وسامة وأناقة بزى الفرسان - لما مكث الغوري فى الحكم يومًا واحدًا، فهذا الأخير كان يبثّ جرعات التفاؤل طوال الوقت ويدفع عن السلطان المؤامرات من وقت لآخر ويقسم أن رماله تخبره بعلو شأن السلطان فى كل مكان وفى كل الأزمنة.. وأن فترة حكمه ستطول كثيرًا عمّا سبقوه وأن شأنه سيرتفع فى السنوات القادمة أكثر فأكثر.. لذا لم يكن الغوري يقدم على أى فعل إلا بعد استشارة هذا الرمّال الحاذق كما كان يطلق عليه.

اكتفى ابن زنبل الرمّال بالمشورة فقط، وراح يكشف للغوري بإستخدام رماله بعض المكائد والدسائس التى شرع بعض الأمراء فى تنفيذها للإطاحة بالسلطان، وكان هذا الأخير يكتفي بإبلاغ الأتابكي قيت الرجبي ليقوم بدوره بإفساد هذه المؤامرات بطريقته القاسية.. فهو الذى أخطر الغوري بمؤامرة " تاني بك الجمالي " الذى كان لا يزال يُمنّي نفسه بالسلطنة، فتم نفيه خارج البلاد.

كما كشف الفخ الذى نصبه الأمير " مصرباي " فكانت عقوبته السجن.. أضف إلى ذلك أن والي القاهرة وأغلب المماليك قد فشلوا فى العثور على السلطان السابق "العادل طومان باي" والذى ترك السلطنة وهرب منذ أكثر من أربعين يومًا ولم يعرف أحد مخبأه، وكان يبعث برسائل تهديد من الحين للآخر، مما أدى إلى ارتباك القصر السلطاني، إلا أن ابن زنبل بواسطة رماله قد عرف مخبأه، طلب من أمراء المماليك أن يقسموا ألا يقتلوه إن أخبرهم بمكانه حتى لا يحمل وزر سفك دماءه.. فأقسموا جميعًا وأغلظوا الأيمان بعدم قتله، فأخبرهم بمخبأه... وبعد ساعة كان مقتولًا، قتله مماليك السلطان السابق جان بلاط ثأرًا لأميرهم الذى قتل بيد طومان باى ظلمًا.

يستقر الحكم للغوري كما لم يحدث لسابقيه، فلا مؤامرات ولا اغتيالات ولا انقلابات على الحكم بإستثناء بعض المناوشات البسيطة التى كان ابن زنبل الرمّال جدير بمعرفتها قبل قيامها.

بعد انتهاء صلاة جمعة إلتفَّ حول السلطان كبار الأمراء وأصحاب المناصب الجديدة، و راحوا يمدحونه ويُقبَلون الأرض تحت قدميه فى مودة لا تخلو من النفاق للسلطان الذى أنعم عليهم فى الليلة السابقة بعدة منح ومناصب..

وعن بعد وقف ابن زنبل يراقب الموقف صامتًا، وعلى انفراد:

- يعني إنت عاوز ايه يا رمّال..؟ طلبت منى أعزل جان بردي الغزالي من الحسبة وعزلته.

ابن زنبل بحدة:

- إنت مصدَّق نفسك!!! هو إنت إللي عزلته ولا هو إللي هرب بعد ما تآمر مع مصرباي ضدك قبل ما يتقبض عليهم؟

صمت السلطان قليلًا قبل أن يقول:

- المهم أهو الغزالي الخاين راح

ابن زنبل:

- راح خاين وأتى خاين

الغوري بقلق:

- تقصد الأمير جان بلاط الموتر إللى إتعين مكانه فى الحسبة؟
- لأ.. أقصد إللى إنت عيَنته حاجب الحجاب

فتح الغوري فمه بتعجب قبل أن يقول:

- خاير بك؟!! .... مستحيل، ده واحد من أشد الناس إخلاص ليا هو وإخواته كلهم.
- المخلص من أخلصك القول.
- هل رمالك بلغتك إنه بيتآمر عليا؟
- لأ.. لكنها أخبرتنى إنه خاين
- خاين لمين؟!!
- خاين لمصر... ولازم يتنفي وما يرجعش أبدًا.
- لكن إنت عارف إن أتابك العسكر هو إللي بيختار أأ....

قاطعه ابن زنبل قائلًا:

- خاير بك هيخون مصر، مش هيخون أتابك العسكر.

السلطان وهو ينظر أرضًا بخجل:

- إنت عارف أنا مقدرش أعزل حد إختاره أتابك العسكر.

نظر ابن زنبل للسلطان بغضب قبل أن يقول:

- يبقى تعزلنى أنا من مهامى.

****

بعيدًا عن القلعة وعن زحام الحكم، بالجزيرة الوسطى المواجهة لبولاق مبنى مكوّن من طابق واحد.. انكبّ ابن زنبل فى منزله بين بعض الأوانى النحاسية وبعض الزجاجات والأوانى الفخارية الممتلئة بسوائل مختلفة الألوان، راح يمزج بعضها ببعض ثم يدوِّن شيئًا ما فى سجلاته، بارع جدًا هو فى علم الفلك وضرب الرمال والجغرافيا والتأريخ، ولكن هذا العلم الجديد الذى بين يديه الآن يفوق كل العلوم السابقة والقادمة.

استغل الخلاف البسيط الذى حدث مع السلطان وأصبح شبه متفرَغ لعلومه فقط.. لم يعد يهتم بشئون الدولة، قطع شوطًا كبيرًا فى اكتشاف شئٍ ما.. يحتاج فقط لبعض النباتات والأعشاب التى تنمو فى الهند والصين لإتمام علومه، وقد أوصى بعض التجار بإحضارهم إليه.

استدعاه السلطان أكثر من مرة ولكنه كان مشغولًا جدًا بعلومه، ثم فى اليوم الأخير من شعبان صعد القلعة اختياريًا ليهنئ السلطان بقدوم شهر رمضان.

استقبله الغوري معاتبًا إياه بهدوء:

- هتتآمر ضدي إنت كمان يا ابن زنبل؟!!

بهدوء وبابتسامته التى لا تفارقه:

- ابن زنبل عمره ما يخون

- إنت سايبنى متخبط بقالى سبع شهور.. ما تنساش إنك بدأت معايا ولازم تكمل مشوار الحكم للآخر معايا.

- موافق، بس بشروط..

- إنت بتتشرط على السلطان؟!

واصل ابن زنبل متلاشياَ عبارة السلطان الأخيرة:

- أنا ما بحبش الظلم ولا القتل ولا الفجور..

الغوري برضا:

- ومين بيحبهم؟ لولا بس أمراء الجراكسة إللى متحكّمين فى كل حاجة.. أنا نفسى أرضي الناس كلها.

ابن زنبل بحدة:

- يبقى ترد جوامك الأيتام والنساء وأولاد الناس وكل إللى إنت قطعت جوامكهم، وكل إللى له مظلمة يطلع بكرة القلعة يستردها.

صمت السلطان، فأكمل ابن زنبل:

- لو عملت كده ورجّعت للناس حقوقهم هتلاقينى جنبك على طول.. غير كده لأ

صباح اليوم التالي نادى المنادي أ ن كل من له مظلمة أو قُطِعَت جوامكه فليصعد إلى القلعة فلقد قرر السلطان بمناسبة شهر رمضان رد الجوامك لأصحابها.. تهلل الناس وارتفع الدعاء فى المساجد للسلطان وصعد أصحاب الحقوق مسرعين ليجدوا الأتابكي " قيت الرحبى" على بوابة القلعة يوبّخهم بشدة، فنزلوا أسوأ ممّا صعدوا بعدما أمر الأتابكي بجلد كل واحد منهم

مائة جلدة، حتى النساء والأطفال لم يسلموا.

بدون إذن حاجب الحجاب اخترق ابن زنبل قاعة السلطان، صوت خطواته القوية وهي تطرق الأرض تنمّ عن غضب شديد.. وقف أمام السلطان وعلى وجهه أشد تعبيرات الغضب وقال:

- بعد إذن السلطان، ممكن أتفرّغ لعلومى الفترة الجاية؟

الغوري وهو يشير لابن زنبل بالجلوس:

- عارف إنك زعلان من إللي عمله الأتابكي، وأنا كمان زعلان، الناس بعد ما كانت بتدعيلي أصبحت بتدعي عليّا.. لكن إنت عارف إن الأمير مصرباي وجان بردي الغزالي وكل الخونة إللى معاهم هربوا من السجن وبيهددوني ليل نهار، أنا مضطر أوافق على إللي بيعمله الأتابكي لأنه بيحمينى منهم.

ابن زنبل محاولًا كظم غيظه:

- أنا توصلت لاكتشاف علمي وقربت أنتهي منه، والتجار وصلوا النهاردة الصبح وأحضروا النباتات والأعشاب إللي أنا طلبتها منهم، فلو تسمح لى ببعض الوقت أنتهي من اكتشافاتى وعلومى.

الغوري بقلق:

- وإ فرض فيه مؤامرة عليّا من الأمراء.. أعمل إيه؟!!

- ما تقلقش.. أنا براقب كل أمور السلطنة من داري عبر رمالي.. وهكون جنب السلطان فى الوقت المناسب.. ودلوقتى إسمح لى بخلوة علمية.

يتعانقان ثم يُقبِّل ابن زنبل كتف السلطان قبل أن يغادر القلعة مسرعًا... تمر الأيام غير هادئة، ففى الثانى عشر من رمضان يقطع الأمير " مصرباي " الذى هرب من السجن الطريق أمام الأتابكى " قيت الرحبى " بمساعدة

عدد قليل من المماليك وتدور بينهما معركة تنتهي بمقتل " مصرباي ".. أراد الأتابكي صلب الجثة والتشهير بها فى طرقات القاهرة، ولكن الغوري يحتد على الأتابكي لأول مرة ويأمر بتغسيل الجثة وتكفينها والصلاة عليها قبل دفنها، فيوافق الأتابكي.

فى اليوم الأخير من رمضان يذهب ابن زنبل إلى القلعة ويتناول الإفطار بصحبة السلطان الذى ما أن انتهى من إفطاره حتى مال نحوه ابن زنبل فحدَّثه فى أمر ما، احتقن بعده وجه السلطان قبل أن يُربِّت ابن زنبل على كتفه مطمئنًا..

صباح اليوم التالى هجم عدد من المماليك على مسجد القلعة أثناء صلاة العيد شاهرين سيوفهم واندفع عدد منهم للصف الأول بحثًا عن السلطان الذى رفض فى اللحظات الأخيرة النزول لصلاة العيد بحجة اعتلال صحته..، فشلت مؤامرة الإغتيال فأصدر السلطان مرسوم بنفي أكبر عدد من الأمراء لخارج مصر.

يؤدي التحية للسلطان ويعود لإستكمال علومه.. الإكتشاف أوشك على الإنتهاء، هو فقط يحتاج لبعض الزهور الأخرى التى تنمو ببلاد الروم، لن ينتظر التجار، سيذهب بنفسه لإحضارها والعودة سريعًا.

****

عقب عودته من بلاد الروم عاد ابن زنبل يمزج السوائل مختلفة الألوان بعد إضافة بعض السوائل الأخرى التى استخلصها من الأزهار في آنية فخارية كبيرة، تساقطت قطرات العرق على جبهته وهو يدوِّن شئ ما في دفاتره، تنقَّل عشرات المرات ما بين الدفتر والأواني.. كان في قمة تركيزه، ولكن تلك الطرقات القوية المفاجئة على باب منزله جعلته ينتفض قبل أن

يطلق زفرة قوية ويتجه نحو الباب بعصبية، همّ أن يزجر الطارق.. إلا أنه توقف فجأة واتّسعت عيناه أكثر من عينا الواقف أمامه ذو العين الجاحظة.. بدا القلق والإرتباك عليه وهو يقول:

- الأمير "قيت الرحبي" أتابك العسكر !! وجاي بنفسه من غير حراسة؟ واضح إن الأمر خطير.

قيت الرحبي بهدوء:

- وهو الأمر الخطير.... هنقف نناقشه على الباب ولا إيه؟!

أشار له ابن زنبل بالدخول وهو يقول:

- إتفضل يا أمير.... زيارة الأتابكي في التوقيت ده أكيد وراها كارثة.

الأتابكي بهدوء:

- وأي كارثة ... دي مصيبة كبيرة!

عاد ابن زنبل إلى حجرة العلوم وراح يمزج بعض السوائل وخلفه الأتابكي الذي راح يرمق الأواني بدهشة قبل أن يقول هذا الأخير:

- بركات.

صمت ابن زنبل وكأنه لم يسمع شيئًا، فأعاد الأتابكي كلمته:

- بركات

واصل ابن زنبل مزج السوائل وتدوين شئ ما دون أدنى اهتمام، إلى أن قال الأتابكي:

- إنت ما سمعتنيش ولا إيه؟

- سمعتك.. بس إنت بتتكلم بطريقة الرمّالين والنجامين.. ترمي كلمة واحدة وتنتظر تشوف الدهشة على وجوه الناس وبعدين تكمل كلامك.. إتكلم هات إللي عندك، أنا مش فاضي.

الأتابكي بهدوء:

- ما هي دي المصيبة.... إنك مش فاضي.

انتبه ابن زنبل والأتابكي يواصل:

- من يوم ما إتفرّغت لعلومك الجديدة وحال السلطنة إتغير بالكامل.... حاشية جديدة أحاطت بالسلطان، وكله كوم وإللى اسمه بركات كوم تاني.

ابن زنبل بدهشة:

- بركات مين؟!

- بركات بن موسى

مال ابن زنبل برأسه لليمين قليلًا وهو يضع كفه على جبهته محاولًا التذكر:

- مين بركات بن موسى ده ؟!

- ما هو ده السؤال إللي أنا بسأله لنفسي.... مين بركات بن موسى ده إللي ظهر فجأة في السلطنة وكإن الأرض إنشقّت وطلع منها...؟ أنا لا لاقي له لا أصل ولا فصل ولا أب ولا أم ولا جد ولا جدة ... ولا كان له سكن في مصر، محدش شافه قبل كده ولا حد سمع عنه... فجأة لقيناه فى القلعة.. وفجأة أصبح المُتحكِّم فى زمام الأمور... والأسوأ إنه صار المسيطر الوحيد على عقل الغوري، تقدر كده تقول إن زمن ابن زنبل الرمّال ولَّى وجه مكانه زمن بركات بن موسى.

ابتسم ابن زنبل قائلًا:

- عارف أسلوبك كويس في إثارة الحمية يا أمير قيت... لكن علومي حالياَ أهم من السياسة... ثم إني بمجرد ما هرجع للقلعة هاأ....

قاطعه الأتابكي قائلًا:

- واضح إنك غايب عنّا من زمان.. السلطان الغوري سره أصبح مع بركات بن موسى الرجل القوي في السلطنة دلوقتي، وانتهى أمرك وأمري.

اتجه ابن زنبل نحو أحد الأركان وفرش رماله وجلس إلى جوارها قائلًا:

- حالًا رمالي هتخبرني بكل حاجة عن بركات ابن موسى

ثم ابتسم وهو يخطّ بعض الخطوط بسبابته قائلًا بسخرية:

- يا خسارتك يا أتابكي.... وخسارة بصّاصينك... شاطرين بس تظلموا الناس وتاكلوا حقوقهم.

جلس الأتابكي إلى جواره متلاشياَ العبارة الأخيرة وقال:

- هاه.... الرمال قالتلك إيه؟

ظهرت الحيرة والقلق على وجه ابن زنبل الذي مسح ما رسمه على الرمال وأعاد الرسم مرة أخرى متسائلًا بدهشة:

- قولتلي اسمه إيه؟

بصوت خافت:

- بركاااات... بركات بن موسى

مسح ابن زنبل الخطوط مرة أخرى وأعاد رسمها قبل أن يقول:

- مستحيل!!

بدا القلق أكثر على وجه الأتابكي وهو يقول:

- إيه هو المستحيل؟!!

- الرمال مش قادرة تعرف مين هو بركات ابن موسى!!

- يعني إيه؟!

هب ابن زنبل واتجه مسرعًا نحو النافذة العملاقة فتحها بصعوبة ونظر إلى النجوم قليلًا فجحظت عيناه وتدلَّى فكه السفلي، مما أثار قلق الأتابكي.. فقال:

- في إيه يا ابن زنبل؟ قوللي شوفت إيه؟

ابن زنبل:

- نجمة غريبة دخلت وسط النجوم والكواكب ما كانتش موجودة قبل كده

- مالها يعني؟!

- النجمة دي فيها خراب مصر

- طب والحل؟!!

- أنا لازم أرجع القصر تاني.. لازم أعرف مين هو بركات بن موسى إللي ظهر فجأة بظهور نجمة الخراب.

تهللت أسارير الأتابكي قيت، فقال:

- أيوة كده... إرجع تاني إحمي سلطانك... إنت عارف إن الغوري ضعيف، ولو تركنا بركات ابن موسى يسيطر عليه مصر هتخرب زي ما أنت قولت.

- لازم أعرف مين بركات بن موسى ده؟!! وإزاي رمالي عجزت عن معرفته؟!!

صباح اليوم التالى ا نطلق أحمد بن زنبل الرمّال ممتطياَ حصانه نحو القلعة، ممشوق القوام.. زاده زي الفرسان حسناً، اندفع لداخل القصر.. لم يتوقع أن يستوقفه حاجب الحجاب الجديد " خاير بك " حتى يستأذن له بالدخول.....

بالفعل تغيّر الحال، لم يعد لابن زنبل أدنى تأثير في السلطنة كما كان من قبل، يبدو أ ن العلوم أبعدته كثيرَا عن شئون السلطنة حتى بدا غريباَ على الجميع، ولكن آخر ما كان يتوقعه أن تكون مقابلته مع الغوري بهذا الجفاء الغريب... الآن فقط تأكد أ ن السلطان أصبح زاهدًا عن الاستعانة به... لم تستغرق المقابلة أكثر من لحظات استأذن بعدهم الغوري بحجة إنشغاله بمقابلة وفد من زعماء العربان.

خرج ابن زنبل الرمّال من القصر والغضب يملؤه، سأل عن الأتابكي "قيت الرحبى" فعلم أنه تم إرساله إلى الحجاز أميرَا للمحمل وحارسًا للحجاج !!!!

ا ستعان بأحد المماليك ليدلّه على منزل المحتسب الجديد بركات بن موسى فى بركة الرطلى، وهناك كانت المواجهة الأولى بين أحمد بن زنبل الرمال وبركات بن موسى.

لم تستغرق المواجهة وقتًا طويلًا.. خرج ابن زنبل الرمّال من بيت بركات مهرولًا وكل إمارات الخوف والرعب على وجهه، تعثّر مرتين.. سقط أرضًا قبل أن يصل لحصانه الثائر أيضًا، ولولا إحكام رباطه لانطلق يعدو من المكان.

انطلق الحصان بهيسترية شديدة وفوقه ابن زنبل الرمّال يرتجف رعباَ، وأمام بابه وقف بركات بن موسى مبتسمًا ملوِّحًا لضيفه مودِّعًا إياه قائلًا:

- مع السلامة يا ابن زنبل... يا ريت نتقابل تاني ويكون ما بينا تعاون.

٨- لقاء الشيطان

كانت طرقات شديدة تتواصل على بوابة فيلا دكتور أحمد علي نور الدين دون إجابة، الرجل النحيف ذو اليد الرفيعة الطويلة يصدر صوت مزعج للغاية وهو ينادي مع الطرق على صاحب الفيلا.. اقترب منه خفير الفيلا المجاورة والذى يشبه هيئته قائلًا:

- أى خدمة يا بلدينا؟

- عاوز الدكتور أحمد

- دكتور أحمد بيخرج كل يوم الساعة ٧ الصبح وبيرجع الساعة اتنين ونص.

- طيب أنا هنتظره هنا على الرصيف لحد ما يرجع.

- ما يصحَش تقعد على الأرض كده.. تعالى إتفضل أقعد معايا على الدكة.

نظر الرجل لوجه الخفير قليلًا وعندما شعر بالإرتياح سار معه نحو بوابة الفيلا المجاورة.. غاب الرجل دقيقتين ثم عاد وهو يحمل كوبين من الشاى، ناول أحدهما للرجل وهو يقول:

- اسمك ايه يا بلدينا؟

- اسمي زيدان

- منين يا زيدان؟

- من المنيا مركز ملوي

- بلدياتي يعنى.. بس أنا من بني مزار، لكنى عايش هنا طول عمرى، أبويا كان غفير نفس الفيلا دي إللي أنا بحرسها.

ومع احتساء الشاى سأله زيدان:

- مين غفير فيلا دكتور أحمد؟

ابتسم الرجل وهز رأسه بميل قليلًا قبل أن يقول:

- مفيش غفير للفيلا لحد دلوقتي.. ربنا يجعلها من نصيبك ويجعل لك فيها لقمة عيش.

ابتسم زيدان من الفكرة التى أوحى له بها الرجل، مما جعل هذه الفكرة مدخل مناسب لأسئلة عديدة:

- أنا بالفعل جاي علشان أشتغل غفير، لكن فيه ناس حذَّرتني من الدكتور أحمد وقالولي إنه عصبي وبيشتم وبيلعن و.....

- كدابين.. وكداب إللي يقول عنه حاجة كده، دا راجل طيب وابن أصول بصحيح ومتربي

- إنت تعرف أهله طبعًا؟

- بصراحة لأ.. ولا عمرى شوفت حد منهم ولا حتى شوفت دكتور أحمد إلا من أربع خمس شهور فاتوا.

- وقبل ما تشوفه مين إللي كان عايش فى الفيلا؟!!

- مفيش.. أنا عايش هنا من وأنا عندي خمس سنين، يعني من حوالي أربعين سنة وطول عمري بشوف الفيلا دي مقفولة وما فيهاش حد خالص.. وكل سكان المنطقة عارفين كده، وكنا مسمينها الفيلا المهجورة، لكن من حوالي أربع خمس شهور كده زي ما قولتلك لقينا الفيلا اتفتحت وظهر دكتور أحمد وقال إنه كان بيدرس برة ورجع علشان يستقر فى بلده.. سافر إمتى ورجع إمتى وظهر إمتى محدش يعرف.. إحنا صحينا من النوم لقيناه موجود.

- يعني قبل خمس شهور فاتوا محدش شاف ولا سمع عن دكتور أحمد؟

- أبدًا.. ولا حد كان يعرف إن لها أصحاب مسافرين.. دكتور أحمد ظهر فجأة والفيلا المهجورة اتفتحت فجأة ودبِت فيها الروح. لكن بالليل فيه حاجة غريبة بتحصل، الفيلا بتظهر كأنها لسه مهجورة والأنوار كلها بتنطفي مش عارف ليه.

فكر زيدان قليلًا قبل أن يقول:

- طب وإنت ايه رأيك فى الدكتور أحمد؟

- مؤدب ومحترم وابن ناس ولسانه حلو مع الناس كلها، بس فى حاله بزيادة.

- إزاي يعني؟!!

- يعنى يعدِّي عليك يرمى السلام ويضحك فى وشك أول ما يشوفك.. لكنه مش بيحب يتعرف على حد ولا بيحب حد يدخل فيلته أو يتدَّخل فى حياته أو يعرف حاجة عنه.. متربي فى بلاد بره وواخد على عاداتهم، أنا سمعت إن فى بلاد بره لو حد مات فى الشارع أو حتى أغمى عليه الناس بتسيبه واقع وتمشي ولا بتسأل فيه، كإن أأأ....

قاطعه زيدان قائلًا:

- طب إنت ما سمعتش طول السنين دي حاجة عن الفيلا وأصحابها إللي هجروها؟!

نظر الرجل لزيدان بقلق لأول مرة، ثم قال:

- سمعت إن صاحبها الأصلي إللي بناها زمان كان بيشتغل فى السحر وإنه كان بيختفي لسنين طويلة ثم يظهر فجأة ويرجع يختفي تاني.

صمت الرجل وكأنه تذكر شيئًا أو كأنه بدأ يربط الأحداث، فتمتم قائلًا:

- بسم الله الرحمن الرحيم... أنا بسمع وبس ماليش دعوة.

ثم استمر الحديث هادئًا بين الرجلين فى شتى مجالات الحياة إلى أن تجاوزت الساعة الثانية والنصف، فأشار الخفير لزيدان قائلًا:

- أهو هو ده الدكتور أحمد إللي نزل من عربيته وداخل على فيلته.

اقترب زيدان من الدكتور أحمد قائلًا:

- أنا بدوّر على شغل، فلو سيادتك عاوز غفير أنا ممكن أ.....

قاطعه دكتور أحمد مبتسمًا وهو يُربِّت على كتفه:

- طيب قول السلام عليكم الأول

تذكر زيدان قول الدكتور الفقيد عندما أخبره بأن لهذا الرجل أسلوب يجذبك إ ليه فى البداية ثم ينقضّ على روحك فى النهاية، فقال بحذر:

- السلام عليكم.. أنا عاوز أشتغل غفير عندك
- وعليكم السلام.. بس أنا مش محتاج غفير، ممكن تبحث فى مكان تاني.

زيدان وقد افتقد الحكمة بسبب ابتسامة هذا الرجل الخبيثة والتى تبدو بريئة لمَن يجهله:

- طب تسمحلي يا دكتور نتكلم مع بعض شوية؟

أشار الرجل بذراعيه قائلًا:

- إتفضل أنا سامعك

- مش هنا فى الشارع.. علشان أنا عاوز أكلمك فى موضوع كبير، ينفع ندخل الفيلا ونتكلم؟

ابتسم دكتور أحمد وهو يهز رأسه بالنفي قائلًا بوداعة:

- آسف.. محدش بيدخل فيلتي إلا لو كان قريبي أو صاحبي أو .....

زيدان بحدة:

- أو واحد مسكين هتعمل عليه تجربة تقضي على حياته.

زالت الإ بتسامة فجأة من وجه الدكتور وتبدَّلت ملامحه فى ثوان للغضب والصرامة، مما جعل قلب زيدان يخفق.. وبالرغم من ذلك تماسك والدكتور يشير له بالدخول.

****

بداخل المعمل جلس زيدان بهدوء على أحد المقاعد المقابلة لمكتب الدكتور أحمد وبداخله نار تستعر من هذا القاتل الأفَّاق، راح يرمق صاحب المعمل قبل أن يقول بهدوء:

- أنا زيدان.. خال الدكتور محمد عبد العظيم درويش.

دكتور أحمد بخشوع:

- رحمة الله عليه

استشاط زيدان غضباَ، فضغط على شفتيه بأسنانه ثم واصل بنفس هدوءه:

- عاوز بس أقولك إن الدكتور محمد ما كانش بيخبي عني حاجة، فبلاش تمثل معايا دور الملاك إللي إنت مثِّلته عليه.

صمت دكتور أحمد وانعقد حاجباه وهو ينظر لعيني زيدان الذى واصل حديثه:

- دكتور محمد كلمنى عنك من أول يوم شافك فيه.. كلمني عن مساعدتك له فى رسالته وكلمني على تجاربك العلمية والتجارب إللي كنتم بتعملوها سوا وحقن الشباب، وكلمني عن سنك الحقيقي واكتشافك المذهل.. كمان بلغني إنه عاوز يجرب ويبقى زيك بس خايف وعلشان كده هو ساب معايا جواب أو وصية بخط إيده وطلب مني إن لو حصل له حاجة أسلمها للبوليس.

احتقن وجه دكتور أحمد وابتلع لعابه بصعوبة، قبل أن يقول:

- فين الجواب ده؟

زيدان بسخرية:

- وهو إنت فاكر إني هاجيلك بالجواب علشان تقتلني أنا كمان..؟ الجواب مع ابني، وأنا قولتله لو حصل لي حاجة يسلمه للبوليس.
- أفهم من كده إنك بتتهمني بقتل دكتور محمد؟!!
- طبعًا

صمت دكتور أحمد قليلًا قبل أن يقول:

- إنت متعلم يا زيدان؟ بتعرف تقرا وتكتب؟
- لا

- طيب أنا هشرحلك إزاي؟ وهتفهم مني إزاي إني كنت صادق مع الدكتور محمد فى كل حاجة، وإن الخطأ من عنده هو مش من عندي؟!!
- إشرح وهحاول أفهم، بس ما تكدبش عليا لأني بصراحة مش هصدقك.

مسح دكتور أحمد وجهه بكفيه قبل أن يقول:

- أنا كنت صادق وأمين جدًا مع دكتور محمد، وكل حاجة إنت سمعتها

منه حقيقة ومش غش ولا خداع.. أنا بالفعل معايا عقارين لو حقنتهم لأى إنسان هيعيش شباب إلى آخر عمره، وأنا زي ما إنت شايف أهو عمري تلاتة وسبعين سنة، تصدق دي؟

- لأ طبعًا.. ما أنا قولتلك ما تحاولش تكدب عليّا.

واصل دكتور أحمد حديثه:

- الخطأ الوحيد إللى حصل السبب فيه هو الدكتور محمد؛ لأني طلبت منه بعض التحاليل وهو بلَّغنى بالنتيجة نظريًا وأنا صدقته وتعاملت معاه بمبدأ إنه مش هيغشّ نفسه، لكن الظاهر إنه كان مندفع بشدة لخوض التجربة.. علشان كده بلغني بنتيجة التحاليل، ولكنه أخفى جزء منها.. الخطأ الوحيد إللي أنا إرتكبته هو إني صدقته، وكان لازم أشوف التحاليل بعيني، لكني وثقت فيه لأن دي حاجة تخص صحته فإعتقدت إنه مستحيل يخدعني.

- وإنت كمان مستحيل تخدعني.

قالها زيدان بعصبية وهو يقف مطرقًا كفيه بقوة لعله تأتيه خاطرة تخبره بما يجب فعله، فزيدان بالرغم من حسن أخلاقه وطيبته وحكمته التي اكتسبها من الحياة والموت معًا، إلا إنه كان مندفع عندما قرر مقابلة دكتور أحمد دون أن يدرس الخطوة التالية لمقابلته.. لذلك عندما طلب منه دكتور أحمد الهدوء والتروي جلس زيدان مرة أخرى وأنصت للدكتور الذى راح يشرح شرحًا وافيًا ويبرر صحة أبحاثه ونظرياته، فشرع فى إلقاء أوراق ومستندات وشهادات علمية أمامه على المكتب وهو يفسر كل شئ بالتفصيل، وبعد ما يزيد عن ساعة من الوصف والشرح العلمى قال زيدان:

- أنا ما بعرفش أفك الخط علشان تصدعني بكلامك الصعب ده.

دكتور أحمد بهدوء:

- ايه رأيك إني أثبتلك عملياَ صحة كلامى؟ وهتشوف بعينيك كل حاجة.

زيدان بقلق:

- إزاي ؟
- ثانية واحدة

قالها دكتور أحمد قبل أن يخرج من حجرة المعمل متجهاً إلى الصالة ومنها إلى إحدى الغرف، فى حين انتظر زيدان عودته وقد قرر استخدام العنف إذا ما أصر ذلك القاتل على المراوغة.

إلا أن الإنتظار طال كثيراَ، ساعة كاملة مرت كالدهر، بعدها هب زيدان منادياً:

- يا دكتور.. يا دكتور أحمد.. يا دكتوووووور.

اتجه زيدان نحو الغرفة التى دخلها الدكتور أحمد فوجدها شبه خاوية، جحظت عينا زيدان دهشة وازدادت دهشته عندما وجد أنها غرفة بدون نوافذ أو مخارج، راح زيدان يبحث عنه فى كل أنحاء الفيلا التى تحوّل صمتها لما يشبه صمت القبور الذى يعرفه زيدان جيدًا..

أين اختفى ذلك القاتل؟! لقد فرّ بدهاء أيضًا..

بعد مرور شهرين على تلك الواقعة وبعد تردد زيدان على الفيلا عدة مرات فى أوقات مختلفة، كانت هذه إجابة خفير الفيلا المجاورة:

- اختفى فجأة زي ما ظهر فجأة، ورجعت الفيلا مهجورة من تاني.

****

٩ - رقصة سلو

" المعازيم تنزل من على المسرح.. مش عاوز غير العريس والعروسة بس؛ لأن الفقرة الجاية هي رقصة سلو بين العروسين "

أخد الجميع في الإبتعاد وترك الساحة للعروسين اللذان قاما من الكوشة واتجها لمنتصف المسرح قبل أن يتعانق ذراعيهما مع بدء الموسيقي الهادئة.. كانت العروس شيماء فائقة الجمال.. مرتدية فستان أبيض ناصع غاية في الروعة.. لا يضاهيه جمالًا إلا جمال وجهها الدائم الإبتسام كإشراقة شمس الربيع، يزين رأسها تاج أبيض اللون زادها جمالًا فوق جمالها...

أما العريس نادر فهو بكل المقاييس كان أجمل مَن في حفل الزفاف سواء من الرجال أو النساء، كان أجمل من العروسة ذاتها، وضع العريس يديه بخجل على خصر عروسته التي علقت يديها في رقبته برقة شديدة، رويدًا رويدًا راح العروسان يتمايلان ويدوران حول مركزهما في بطء شديد... عينيه تنظر لعينيها، وعيناها ذائبتان في عينيه.. دقيقة واحدة مرت دون أن ينطق أحدهما، فقط نظرات تنطق بكل ما يجول بخاطرهما... إلى أن قطعت العروس الصمت قائلة:

- مين يصدق إن فرحنا يكون بالسرعة دي؟

ابتسم العريس ولم يجب، فواصلت العروسة:

- أسبوع بس هو عمر حبنا... قبل الأسبوع ده كنا لسه ما شوفناش بعض.

ابتسم العريس ولم يجب أيضًا... ا نتظرت العروسة منه ردًا ولكن عندما لم يفعل، واصلت حديثها:

- قبل ما أشوفك كنت عايشة حالة نفسية سيئة فى عالم أسود كئيب، لكن

لما شوفتك اتغيرت حياتي والدنيا نوّرت من جديد، اتحوَلت من على أقصى الحزن إلى أقصى السعادة والفرح، كل ده في أسبوع واحد بس.

صمتت شيماء بخجل عندما لاحظت أنها تتحدث وحدها دون عريسها، فقالت:

" شكلي وحش كده قدام الناس، أنا بتكلم وإنت ساكت.. يقولوا إيه العروسة مدلوقة؟ "

ابتسم العريس مرة ثالثة وقال:

- اليوم ده أنا انتظرته من زمان.

ضحكت شيماء قائلة:

- وهو أسبوع عندك مدة طويلة؟!
- مين قال إنى أعرفك من إسبوع واحد بس؟!!

ابتسمت العروسة وقالت:

- يعني كنت بتراقبني من زمان؟
- أيوة

ارتبكت العروس وقالت:

- إزاي؟!! إنت مش قولتلي إنك كنت عايش طول عمرك فى الكويت؟

تنهد العريس وقال:

- بالرغم إن الليلة ليلة زفافنا إلا إننا لسه ما عرفناش عن بعض كل حاجة.. الوقت ما كانش كفاية للتعارف.

خفق قلب شيماء قبل أن تقول:

- إحنا بنرقص رقصة زفافنا وكلها ساعة ونكون في شقتنا.

العريس بحدة:

- فيه أمر مهم جدًا لازم تعرفيه قبل ما نروح شقتنا.

****

منذ أسبوع كان التعارف الأول بين شيماء ونادر..

- اسمي نادر.. والدي كان مدرس سافر مع والدتي إعارة للكويت، إتولدت أنا هناك وعشت حياتي كلها خارج مصر، وبعدين والدتي اتوفّت، وفى نفس السنة اتوفى والدي وراها، وبالرغم من إنى عيشت كل حياتي خارج مصر إلا إني شغرت بالغربة وقررت أرجع بلدي أتجوز وأعيش فيها، خاصة إني معايا ثروة كبيرة ورثتها عن والدي ووالدتي.

شيماء:

- اسمي شيماء.. ليا أخ واحد أكبر مني اسمه هشام، والدي ووالدتي متوفيين من فترة قريبة جدًا، والدي كان بيشتغل موظف بشركة أ.....

قاطعها نادر قائلًا:

- عفوا مش عاوز أعرف حاجة عن أسرتك، عاوز أعرف كل حاجة عنك إنتي.. مهما كانت صغيرة.

تنهّدت شيماء وكأنها تزيح هموم كبيرة بداخلها، وقالت:

- الأفضل فعلًا إنك تعرف كل حاجة دلوقتى.

صمت نادر وحدَّق في وجهها بقلق، ولكنها سارعت بالقول قبل أن يتسلل الشك إليه:

- أنا مريت بقسوة بحجم الكون ده كله.

نادر بدهشة:

- إنتي مريتى بقسوة؟!! مين يجرؤ على معاملة الملاك ده بقسوة؟؟
- أخويا الكبير هشام

ثم صمتت شيماء لحظة قبل أن تضيف:

- عاوز تعرف أنا مين......؟ أنا القهر متجسّد في صورة إنسانة. هحكيلك الأول عن أخويا هشام لأن قصته هى مقدمة قصتي.

بنبرة حزينة واصلت:

- هشام هو المولود الأول لوالدي ووالدتي، ده السبب الوحيد إللي عمل له وضع خاص داخل الأسرة، كان فى طفولته متدلع وفي شبابه مندفع، مفيش طلب بيترفض له، نشأ هشام بصفات كريهة، أناني أكتر من اللازم، مغرور، كاره لكل الناس، فاكر إن الكون اتخلق علشانه، بدانة جسمه وقصره الشديد صنعوا له عقدة، ملامح وشه إللي مش جميلة كان يقدر يعوضها بحب الناس، لكنه كان إنسان غير متزن نفسياً، ما كانش له أي أصحاب غير صاحبه وائل إللي كان على عكسه فى كل شئ.

كان وائل بيحب هشام جدًا، وكان حريص على مصلحته أشد الحرص، وكنا بنتعجب إزاي بيتحمل هشام وبيتحمل قلة احترامه له وللناس. كل بيتنا كان بيحب وائل.

ثم صمتت شيماء للحظات قبل أن تضيف:

- حتى أنا..... كنت في الثانوية العامة لما لقيتني متعلقة بوائل.. كنت بفكر فيه ليل ونهار، شغل المراهقة إللي إنت عارفه، ولأن والدي ووالدتي ربوني تربية سليمة كتمت مشاعري... كان يوم نجاحي في الثانوية العامة أسعد أيام حياتي.. طول النهار بسمع عبارة ألف مبروك على النجاح وبالليل سمعت من أمى عبارة "ألف مبروك يا عروسة... وائل جاي النهاردة يطلب إيدك"... رحبت أسرتي بالكامل بوائل، وكانوا في قمة السعادة...... إلا إن أخويا هشام رفض بدون سبب.. حاولت أمي إقناعه وفشلت، أما والدي الراجل الطيب إللي على المعاش استسلم لرأي هشام وقال هو أدرى بصاحبه منا.. وطالما رفضه يبقى أكيد عارف سر عنه ومش عاوز يقوله، لأول مرة لقيت نفسي بثور في وش هشام وبقوله دى حياتي أنا ومن حقي أختار شريك حياتي.. ولو إنت شايف فى وائل عيوب يبقى تقطع إنت كمان صداقتك بيه..

بكل قسوة قال هشام: مش هتتجوزي إلا إللي هوافق عليه أنا!! قلت بإنفعال: وأنا مش هسيب مصيري في إيد إنسان معقَّد زيك!! ضربني هشام بالقلم على وشي، وقعت فى الأرض، انفعل والدي على هشام وقال له إزاي تضرب أختك قدامي، جريت والدتي تساعدنى ووالدي بيقول: إنت قليل الأدب ومش محترم.. الحق عليا إني اعتبرتك راجل كبير هتقدر تحمي أختك.... خرج هشام غضبان وانفردت أنا بنفسي فى الحمام وبكيت.. بكيت كتير جدًا.

أول مرة بكيت فيها فى الحمام حسيت بقشعريرة، لكن بعد كده كنت بحس بالأمان والإطمئنان.. وكإن حد بيطبطب عليا.

ابتسم نادر وشيماء تواصل:

- لمدة أسبوع كامل غاب هشام عن البيت وما عرفناش مكانه، لحد ما جالنا وائل وقالّنا إن هشام عنده في شقته من أسبوع...

متخيل الوقاحة؟!

بعد الواقعة دى بشهر هشام أخويا كان عاوز يخطب بنت خالة وائل لكنها رفضته، كرر المحاولة كذا مرة ببرود شديد لحد ما وافقت تحت ضغط أسرتها، كان هشام سعيد جدًا بخطبتها بالرغم إنه عارف إنها مش بتحبه.. حاول إسعادها بشتى الطرق، هدايا، خروجات، عزومات. لكننا كنا بنشوف فيها نظرة عدم الرضا.... أصبحت داليا خطيبة هشام صديقة ليا.. قعدنا مع بعض واتكلمنا فى حاجات كتير، قالتلي إنها بتحب حد تاني وهو مش بيحبها، وإنها وافقت على خطوبة هشام يمكن تعرف تنساه.

مرت شهور على الخطوبة وقرب ميعاد الزفاف..

وفى يوم فوجئنا بوائل جاي البيت وطلب يقابل هشام فى وجود والدي ووالدتي، ولما قعدنا كلنا معاه أول حاجة قالها: أعذروني يا جماعة لكن أنا ما أقبلش إن داليا تكون زوجة لأخويا هشام!!!

أصابتنا الصدمة، ولكن هشام رد بعصبية وقال له: وإنت مال أهلك؟!!

رد والدي بهدوء: إنت تعرف حاجة عن داليا علشان تقول كده؟

طلع وائل بعض الجوابات من جيبه ورماهم قدامنا وقال: دى كلها جوابات حب من داليا ليّا وأنا بتجاهلها وبتجاهل أرد عليها، لحد ما بعتت لى جواب النهاردة بتقوللي إنها هتتجوز هشام علشان تكون قريبة مني، فكان صعب أسكت!!

قام هشام بعصبية ورمى كوباية الشاي إللي كانت فى إيده فى الحيطة ودخل أوضته وقفل بابها جامد.

قمت أنا أنضف الصالة من الإزاز، بعد دقيقة خرج هشام وهو ماسك

سيجارة وكنا وقتها أول مرة نعرف إنه بيدخن، والدتي جريت عليه وقالتله هجوَزك ست ستها، لكنه قال لوائل: إطلع برة البيت. فوالدي قال له: عيب كده يا هشام، الراجل في بيتنا.

كانت أمي بتبكي، فقلت أنا: ما تزعلش يا وائل، هشام متعصب شوية، وهنا لقيت هشام اندفع ناحيتى ونزل ضرب فيا بإيديه الاتنين لحد ما وقعت على الأرض، فكمل ضرب برجله.. حاول وائل يدافع عني، أما والدي فقام بضرب هشام لأول مرة فى حياته وهو بيقول: والمسكينة دي ذنبها ايه؟!! شيماء ذنبها إيه؟!!

حط هشام رجله فوق راسي وضغط، بقوة فوالدي قال له بعصبية شديدة: إنت بتطلع عقدك على المسكينة دي؟ روح طلع عقدك على إللي ضحكت عليك.

هنا استدار هشام ودفع والدي بقوة في صدره فوقع على الأرض، بكى والدى بشدة واستمر لمدة خمس أيام ساكت ثم مات من الحزن.

بالليل كان القاتل بياخد العزا في والدي وهو راسم على وشه تعبيرات الحزن والتأثر، إعتقدنا بعدها إن هشام هيتغير للأفضل وإنه هيشعر بالذنب، لكنه ازداد قسوة وغلظة، وأصبح بيضربني بسبب وبدون سبب، وفى كل مرة يقول: مش هنسى أبدًا إنك كنتي السبب في وفاة أبويا.

ومرت الأيام من سيئ إلى الأسوء، كنت بمارس هوايتي المفضلة بالبكاء داخل الحمام إللي كنت بشعر فيه بطمأنينة شديدة على عكس إللي بيتقال.

بعد كده دخلت الجامعة.. وهناك اتعرفت على صديقتي إبتهال، كانت إبتهال دي من سكان العشوائيات، لا تمتلك أي درجة من الجمال، هدومها

بسيطة جدًا.. يعني لا لها حظ فى المال ولا فى الجمال، لكنها كانت طيبة جدًا بتسعد بسعادتي بالفعل وتتمنى لي الخير، وعمرى ما سمعتها فى مرة بتشتكي من سوء حظها، كانت دايمًا راضية.. علشان كدة حبيتها بشدة، وزاد حبي لها لما قالت لي فى يوم: تعرفي علاء الصاوي؟، قلت لها: مين علاء الصاوي ده؟ فقالت: ابن رجل الأعمال أحمد الصاوي، هو طالب بالفرقه التالتة. قلت بصدق: معرفوش ولا أعرف والده

قالت إبتهال: علاء يا بنتي إللي بيركب عربية مرسيدس، ده فتى أحلام كل بنات الجامعة، النهاردة سألني عنك.. اتعصبت وقولتلها: عيب الناس الأغنياء إنهم فاكرين كل حاجة فى الدنيا سلعة قابلة للعرض.

قالت ابتهال: بس بصراحة علاء الصاوي مختلف، شاب مؤدب جدًا والجميع بيشيد بأخلاقه والكل بيقول مستحيل يكون ابن رجل الأعمال أحمد الصاوي بالأخلاق العالية والإحترام ده،

لما قابلت علاء قال لى: أنا عندي كلمتين وعاوز أقولهم لك بسرعة.. أنا علاء أحمد الصاوي طالب بالفرقه الثالثة حالتي المادية ميسورة جدًا وعمرى ما ارتبطت ببنت قبل كده، لأني عاهدت نفسي إن أول بنت هرتبط بيها هتكون زوجتي وأنا بعرض عليكي الأمر.

ما أخبيش عليك أ سلوبه المؤدب كان جذاب جدًا، وهكذا ارتبطنا وابتسمت لي الحياة من جديد.

عرض عليّا علاء التقدم لخطبتي فورًا والجواز فى نهاية السنة الدراسية، لكني فضَّلت أنتظر شوية لإنى عارفة حجج هشام أخويا في الرفض... مرت أيام جميلة كنت أسعد مخلوقة في هذا الكون.. أصحى بدري فى نشاط وأروح الجامعة بخفة ورشاقة وكأن سعاد حسني بتغنيلي الحياة بقى

لونها بمبي... كل شئ كان جميل من علاء، بمجرد رؤيته الصبح كنت بشعر بالسعادة، كان حريص جدًا على مشاعري، بيرفض نقعد لوحدنا بعيد عن باقى زمايلنا، بيراعي غيرتي عليه، وكانت إبتهال بتتمنى لي السعادة من قلبها... يسعدها ابتسامي ويحزنها حزني، كانت السنة دي هى أسعد سنين حياتي بالرغم إن هشام ضربني كتير فيها..

كنت سعيدة، هتعدي السنة وهتجوز علاء وهتنتهي أحزاني.. وبنهاية السنة إتجوز علاء من واحدة زميلتنا فى الكلية!!!

كانت صدمة شديدة، ما كنتش هفوق منها إلا بصدمة أشد.. وقد كان بعد شهرين؛ اتوفت والدتي وسابتني أنا وهشام؛ إللي فجأة إتغير.. بطَّل يضربني أو يشتمني، أصبح طيب وحنين جدًا علياَ.. قولت يمكن علشان شال مسئوليتي وعارف إني خلاص ماليش حد غيره، وفى يوم بعد ما اتغدّيت أنا وهشام أصر إنه يعملّنا الشاى بنفسه، شربت الشاى وحسيت بألم شديد فى معدتي.. صرخت من شدة الألم، فقال هنزل أجيبلك دكتور بسرعة، بعد أقل من عشر دقايق لقيت هشام جاي ومعاه الدكتور.. كنت بصرخ من الألم، لكني استغربت من الدكتور ده إللي جه بسرعة شديدة، أخدت حقنة قاللي إنها هتسكن الألم بسرعة، روحت فى النوم أو بمعنى أدق روحت فى غيبوبة، كنت أفوق من نومي لثوانى أسمع صوت صراخ شديد وأرجع أنام تاني، ما كنتش قادرة أفتح عينيا، معرفش كام ساعة ولا كام يوم، لحد ما فوقت بصيت لقيت نفسي فى عنبر كبير كله بنات وسيدات أشكالهم غريبة.. وفيه منهم إللي بتعمل حركات أغرب!!

على السرير إللي جنبى كان فيه مريضة شعرها منكوش على وشها وبتبصّلى بخوف شديد، حاولت أقنع نفسي إني فى مستشفى عادية، لكن شكل المرضي والصراخ المستمر منهم أكِّد لي إني فى مستشفى الأمراض

النفسية!! صرخت وقولت أنا ايه إللي جابني هنا؟! أنا جيت هنا إزاي؟! وإمتى؟! جت ممرضة وقالت: أسكتى يا مجنونة قولت لها: أنا مش مجنونة.. أنا طالبة في كلية الآداب اسمى شيماء عبد الله الحسن وساكنة فى حدايق القبة، فقالت: بس خلاص هو أنا هطلعلك بطاقة! .. أنا هكلم دكتور أشرف ييجي يشوفك.

بعد شوية جه الدكتور أشرف.. كان فى الخمسينات، متوسط الطول، أصلع، لابس نضارة طبية.. أول ما شافنى ابتسم ابتسامة مريبة قرب منى وحط إيده على كتفي وقال: مين الملاك ده؟، الظاهر كان متأثر أوى بأفلام السيما، شيلت إيده من على كتفى بعصبية فإنفعل وأمر بوضعي فى غرفة معزولة، مر أسبوع كامل وهو كل يوم يمر على غرفتي ويواصل سماجته وأنا أصده بغضب.. ما كونتش عارفة النهاية هتكون ايه، فجأة جه مفتش من وزارة الصحة.. لما دخل أوضتى وإتكلم معايا انفعل عليهم جدًا وهدِّدهم إنه هيحولَهم للتحقيق، وكتبلي على خروج فوراً..

أول ما خرجت رجعت شقتنا لقيت فيها ناس أغراب، أخويا هشام باع الشقة، ما كانش أودامى غير إني أروح لعمتي.. استقبلتني استقبال كويس فى البداية وقعدت عندها أربع أيام لحد ما عرضت عليا أتجوز جودة ابنها إللي لسه طالع من السجن فى قضية سرقة شقة، ولما رفضت طردتني وقالتلي: إرجعي للشارع تاني أو لمستشفى المجانين إللي إنتي جاية منها، فإشتغلت فى محل الملابس إللي إنت شوفتنى فيه. هى دي قصتي إللي لازم تسمعها وتعرفها كويس قبل ما تقرر إن كنت هتتجوزنى ولا لأ.

ابتسم نادر قائلًا:

- عندك مانع يكون فرحنا الخميس الجاى؟

****

انتهت الموسيقى فتوقف العروسان عن الرقص، أمسك نادر بيد شيماء برفق وحدق فى عينيها قائلًا:

- لازم تعرفى إن مفيش حد فى الكون ده هيحبك غيرى، ومفيش حد عنده إستعداد يضحّي بحياته علشانك غيرى أنا.

- ربنا يخليك ليا.

- لكن فيه حاجة مهمة جدًا لازم تعرفيها.. أنا إللي بعدت وائل وعلاء الصاوي عنك، وأنا إللي بعت الدكتور إللي طلَّعك من المستشفى.. أنا إللي بحبك من زمان وقبيلتي رافضاكي، شرطهم الوحيد علشان أتجوزك إنك تعرفيني كويس وتوافقي تتجوزيني برضاكي

- نادر إنت بتقول ايه؟ أنا مش فاهمة حاجة.

- أنا مش نادر.... أنا الجن العاشق إللي منتظر موافقتك من زمان، لو وافقتى هتيجي تعيشي معايا فى عالمي.. ولو رفضتي هنسحب وأرحل بهدوء وهيكون ده آخر لقاء بينّا، ومش هتعرّضلك تاني.. دى حياتك وإنتي حرة فيها.

****

جلس زيدان مهمومًا منفردًا أمام قبر عبد الكريم قائلًا:

- أمانتك كبيرة عليّا.. ليه كده يا حاج عبد الكريم؟ ما كنت تسيبني فى حالي.. أ نا غلبان وضعيف ومش قادر أتحمِل العايشين، تقوم تشيلنى هم الميتين كمان؟

لم يعد زيدان يحمل هموم المعيشة مثلما سبق، ولكنه صار يحمل هموم الأموات، كان يتردد كثيرَا على فيلا دكتور أحمد فى أوقات مختلفة لعله يجده.. ولكنه بالفعل اختفى، ذهب إلى كلية العلوم مُدَّعيَا أنه خادمه

وقلق بشأن اختفاءه.. فكان الرد أ نه انقطع تماماً عن الكلية دون أعذار!!

ضاق صدر زيدان كمدًا، شعر بضآلة نفسه، الأمر يحتاج للأقوياء وأنا لست منهم _هكذا حدَّثته نفسه_ .. كما أن سلوك ابنه الوحيد سعيد الذي صار فى مقتبل شبابه زاد الهموم همًا، فسعيد حاد المزاج.. شديد العصبية.. غير راضي بما قسمه الله له، حب الدنيا هو همه الوحيد بالرغم من أنه يعيش في مفترق الطريق بين الدنيا والآخرة.

ظهيرة أحد الأيام وبينما كان زيدان يهيئ إحدى المقابر لإستقبال أحد الأموات كان ابنه سعيد يخلط مواد البناء ويمزجها بالماء بفتور، كان هناك جفاء شديد بين الأب والإبن، وبالرغم من ذلك دار الحوار بينهما.

سعيد بغلظة:

- يا ترى اتفقت مع أهل الميت هيدفعوا كام ولا زي كل مرة؟

زيدان ببرود:

- زي كل مرة.

واصل سعيد عمله بعصبية وزيدان يواصل كلامه:

- أولًا اسمه المرحوم مش الميت أو بالأصح المرحومة لأن الجنازة الجاية صاحبتها بنت عمرها ١٩ سنة.. ماتت إمبارح فى يوم فرحها، ماتت وهى ماسكة فى إيد عريسها، كان المفروض يكون النهاردة صباحيتها لكن شوف طلع النهاردة دفنتها..

سعيد بعصبية:

- يعني هنقبل بالقروش القليلة زي كل مرة؟

زيدان:

- رضا ونعمة من ربنا.. إقبل يا ولدي القليل بكيفك النهاردة بدل ما تقبل الأقل منه بكرة.

سعيد وكأنه لم يستمع لوالده:

- مش هنقبل بأقل من جنيه واحد... أنا هتكلم مع أهل الميتة.

زيدان بحدة:

- إوعى تنطق بكلمة واحدة حتى لو مش هيدفعوا مليم أحمر..

أراد سعيد الرد، ولكن أبوه عقَّب قائلًا:

- وكفاية سكوتي على المقبرة المفتوحة والجثة المنقولة من مكانها.

ا رتبك سعيد وهو يشيح بوجهه بعيدًا عن والده وكأنه منهمك في عمله وهو يقول:

- أي مقبرة؟.... وأي جثة؟

صمت زيدان لفترة، ثم قال:

- عمومًا أنا روحت قسم الشرطة وعملت محضر في طلبة كلية الطب إللي كانوا عاوزين يسرقوا الجثة.

ارتعشت يد سعيد وهو يحمل المسطرين ويقلب المونة، فواصل زيدان حديثه:

- لما أموت يا سعيد يا ولدي أبقى بيع جثتي وإقبض تمنها.. دي جتة أبوك إتصرف فيها زي ما إنت عاوز... لكن تبيع جتت الناس إللي أهاليهم

سايبينهم عندنا أمانة لا... لا يا ولدي.

في المساء بعد أن استمع زيدان لقصة الفتاة..

- مالك يا أبوسعيد شايل هم الدنيا فوق راسك ليه؟

قالتها زوجة زيدان وهي تناوله كوب الشاي، فرد زيدان بعد تنهيدة قوية:

- سعيد مش عاجبه عيشته ومش عاجبه عيشة المقابر، النهاردة إتخانق مع ناس أغراب بيدفنوا عروسة ميتة فى يوم فرحها علشان المقابل كان قليل... الناس بيحلفوا إنهم مش أهلها وما يعرفوش حد من أهلها.. لكنها صعبت عليهم، وابنك مستقلّ الفلوس.

أرادت الزوجة أن ترد ولكنها آثرت الصمت وزيدان يواصل:

- هو ناسي أيام ما كناش لاقيين اللقمة ناكلها؟

- الولد كان صغير

- كان صغير بس لسه فاكر... يحمد ربنا إنه بياكل ويشرب وينام ومش شايل هم حاجة.

- بكرة يكبر ويعقل يا أبو سعيد

- ما هو كبير أهو وعنده ستاشر سنة.

وضع زيدان يده على جبينه وواصل بأسى:

- ثم ابنك ده لا بيصوم ولا بيصلي... ولا بيقرب من ربنا علشان أعطيه السر ويساعدنى فى شيل الأمانة الكبيرة.

نظرت الزوجة إلى زوجها وحدَّقت في وجهه بشدة قبل أن تقول:

- مش هتقول برضه سر إيه....؟ إنت كل شوية تقع بالكلام وتقوللي فيه

سر، بس إيه هو السر ده الله أعلم.

زيدان بهدوء:

- قولتلك مليون مرة إن شغلاتنا دي فيها أسرار كتير... والأمانة تلزمني ما أطلعش أسرار الأموات برة.

هزت الزوجة رأسها يميناً ويساراً بعدم إقتناع... فجأة سمع الزوجان طرق شديد على الباب مصحوباً بصوت يقول:

- عم زيدان يا عم زيدان... إفتح بسرعة يا عم زيدان.

هبّ زيدان من مقعده متجهاً نحو الباب، فتحه بقوة.. فإذا بأحد الشباب من سكان المقابر يقف مرتدياً جلباباً رافعاً إياه لأعلى ركبتيه يقول بحدة شديدة:

- إلحق يا عم زيدان، إلحق.

اتسعت عينا زيدان رعباَ وهو ينتظر الكارثة التي ستخرج من بين الأسنان الكبيرة الصفراء التي تبرز من الوجه الواقف أمامه وصاحبها يواصل:

- إلحق يا عم زيدان..... مصيبة..... مصيبة.

زيدان بحدة:

- إنطق يا ابني.. حصل إيه؟

قال الشاب وهو يجذب زيدان من يده للخارج:

- إبنك سعيد يا عم زيدان عمل مصيبة كبيرة.

- مصيبة إيه؟.... عمل إيه سعيد؟

الشاب بخجل:

- مسكوه مع واحدة داخل المقبرة.

نزلت الجملة كالصاعقة على زيدان الذي جحظت عيناه وهو يقول:

- داخل المقبرة ؟!.... كيف؟!

واصل هرولته نحو المقبرة التي أشار إليها الشاب.... وهناك وجد عدد كبير من سكان المقابر قد أوثقوا ا بنه سعيد وطرحوه أرضًا، كان سعيد يتألم بشدة من وجع الضربات والركلات التي تلقَّاها منهم.

نظر زيدان إلى ابنه المُلقى أرضًا كخنزير ثم نظر في وجوه الحاضرين قبل أن يخفض رأسه لأسفل في خجل ويبصق على ابنه قائلًا:

- في المقبرة....؟!! في المقبرة يا كفرة يا حطب جهنم!! الله يلعنكم.. الله يلعنكم.

ثم قام بركل ا بنه في صدره قبل أن يقول وهو يلتفت يمينًا ويسارًا:

- وفين الفاجرة إللي كانت معاه؟

رد أحد الحاضرين:

- فى المقبرة، لكنها مش فاجرة.

زيدان بعصبية:

- إستروها بأي هدوم وطلَّعوها برة.

- ما ينفعش تطلع..... البنت دي تبقى المرحومة إللي إنت دفنتها النهاردة.

****

طريدًا كإبليس خرج سعيد من المقابر هائمًا على وجهه شريدًا لا يجد مأوى له، وفي حجرته جلس زيدان حزينًا مهمومًا يبكي وقد ضاق صدره كمدًا.. وإلى جواره زوجته التي إلتزمت الصمت الشديد هذه المرة وقد تساقطت دموعها لفراق ولدها الوحيد....

بعد منتصف الليل قرر زيدان الإعتذار للفتاة... سيذهب إلى قبرها.. سيوقظها.... سيعتذر لها عمّا حدث من ابنه.. سيطلب منها الصفح والعفو!!!!

ها هو الآن ينطلق نحو قبرها ويقوم بإزاحة الباب والإستدارة قبل دخول القبر.. أضاء المصباح اليدوي وإقترب من جثة الفتاة قبل أن يجلس بهدوء موجَهًا ضوء المصباح إلى وجهها وما أن فعل حتى انتفض رعبا وسرت بجسده قشعريرة شديدة، فالفتاة التي وضعها فى القبر ظهيرة ذلك اليوم كان وجهها هادئًا مبتسمًا ملائكيًا ولم يكن يحمل هذه الملامح الغاضبة.. كيف اكتسى وجهها هذا الغضب الشديد؟... متى عقدت حاجباها؟ ولماذا تضغط على أسنانها هكذا بغيظ شديد...؟

بهدوء أخرج سر الأموات من جيب جلبابه وضرب الفتاة مرتين وهو يُردِّد كلماته، ومع الضربة الثالثة هبت الفتاة جالسة بعصبية وقد تحوّلت ملامحها لأكثر الملامح رعبا في هذا العالم.... زيدان الذي تحدث مع الكثير من الأموات لم يسبق له أن رأى مثل هذا الوجه المرعب من قبل ولا مثل هذه العيون الحمراء الدامية ولا خصلات الشعر المتناثرة على وجهها بهذا الشكل المريع، والتى تحوّلت للّون الأبيض فور يقظتها، بالرغم من ذلك حاول التماسك وهو يقول بهدوء:

- أنا آسف يا بنتي... آسف على إللي حصل من......

وهنا جاءه صوت الفتاة أشبه بفحيح الأفعى:

- وأنا رافضة الأسف....

ا رتعد زيدان من صوتها وعبارتها السابقة ولكنه بدا صلباَ وهو يقول:

- إحنا خلاص طردناه من المقابر بعد ما الناس ضربته علقة موت.

بدا صوتها أكثر رعباَ وهى تقول:

- تعرفوا إنتوا إيه عن الموت علشان تقولوا ضربتوه علقة موت؟!.... الموت جاي لكل إللي ظلموني... وتاري هاخده بإيدي.

زيدان بتحدي:

- إرجعي لنومك يا بنتي لحد الخالق ما يئذنلك.

صارخة:

- لاااا.

أمسك زيدان بسر الأموات ورفعه لأعلى ليضرب الفتاة، ولكن هذه الأخيرة عاجلته بضربة قوية بكفّ يدها على وجهه بدت كصدمة قطار، فسقط على الفور فاقدًا للوعي.

****

تعثَّر عدة مرات وهو يهرول نحو زاوية الشيخ الزياني في هذا التوقيت المتأخر من الليل، واجه صعوبة شديدة في الصعود للزاوية التي بدت عن بعد وكأنها مُعلَّقة على جبل المقطم.. الأمرِ جدًّ عسير، حدَّث نفسه مراراً طوال الطريق عن هذه الكارثة وعن المُتسبِب فيها، هل هو ابنه سعيد أم الشيخ عبد الكريمِ؟، تساقطت دموعه رغماً عنه وما أن وصل إلى الزاوية ووجد بابها مفتوحاَ عكس ما توقع.. حتى اندفع إلى الداخل بحثًا عن مراده، لكن الزاوية خالية تمامًا من الأشخاص، ضوء أخضر بسيط يطلٌّ على

سجادة صلاة عتيقة مفروشة فوق حصيرة خضراء اللون ولا أحد..

إلتفت في جميع الأركان لا يوجد أحد على الإطلاق، تردد قليلًا قبل أن ينادي بصوت مرتفع:

- شيخ عبد القادر ... يا شيخ عبد القادر

- تعالى يا زيدان

سمع العبارة السابقة من أحد الأركان، نظر نحو مصدر الصوت مسرعًا فوجد رجلًا جالسًا يبتسم في وجهه وهو يشير له بالقدوم.. متى جاء هذا الرجل..؟ كيف لم يره عندما دخل إلى هذه الزاوية الصغيرة...؟ إبتسامة الرجل الجميلة ونداءه بإسمه بعثا في نفسه إرتياح شديد.

اقترب منه، جلس بعد أن سلم عليه، ظل ممسكًا بيده وهو يقول:

- الشيخ عبد القادر الزياني؟

- أيوة أنا يا زيدان

قبّل زيدان يد الرجل الذي حاول سحب يده مسرعًا فلم يستطع.

- أنا شوفتك قبل كده يا شيخ عبد القادر؟

ابتسم الشيخ ولم يجب.. وزيدان يواصل محاولًا التذكُر:

- حاسس إنى شوفتك قبل كده.. ممكن يكون عندنا فى المقابر؟

ابتسم الشيخ ولم يرد، فقال زيدان مُهلِّلا وقد تذكر:

- لا مش فى المقابر، إفتكرتك يا شيخ.. إنت جيتلي في أصعب وقت مرّ عليّا في حياتي.. إديتني فلوس وأنا كنت بلفّ مصر كلها عشان رغيف عيش للولد إللي كان هيموت من الجوع.

ثم صمت زيدان وبدت دمعة في عينيه وهو يقول:

- ويا ريته مات قبل ما يرتكب معصيته الكبيرة دي.. يا ريته مات زمان من الجوع ودفنته بدل ما...

قاطعه الشيخ عبدالكريم قائلًا:

- إستغفر ربك يا زيدان... لعل المعصية تكون سبب الهداية.

زيدان بهدوء وهو يمسح وجهه بكفيه:

- أستغفر الله العظيم.. معلش يا شيخ، أصل الموضوع ده عمل لي غصة في قلبي، نفسي يطلع كل ده كابوس.. أفوق من نومي ألاقي مفيش حاجة حصلت.

الشيخ عبد الكريم بصوت هادئ جدًا:

- إنت جاي ليه؟ إحكي يا زيدان.. أنا سامعك.

طأطأ زيدان رأسه للأسفل قبل أن يقول:

- مش عارف أحكيلك إزاي، أنا خجلان منك ومن نفسي ومن الناس كلها و.... لكن ... الـ....

تلعثم زيدان وهربت الكلمات منه، فقال الشيخ:

- سيب أمر إبنك للخالق وقول عندك إيه تاني.

زيدان بخوف:

- مفيش.

حدّق الشيخ في عينيه فوارى زيدان نظره خجلًا قبل أن يهبّ واقفًا وهو يقول:

- هي مشكلة ابني بس وإنت قولت سيب أمره للخالق.. أنا همشي.

اتجه زيدان نحو الباب، ولكنه توقف بغتة على قول الشيخ:

- وهتعمل إيه مع البنت إللي هربت منك..؟

تسمّر زيدان في مكانه والشيخ يواصل بهدوء:

- إنت حملت الأمانة ولازم تكون قدها .. لو مش قادر تحمل السر سلِّمه لغيرك، بس لما ترجع البنت لمنامها وقبرها؛ لأنها أمانتكِ إنت.. إللي إنت عملته ده يا زيدان مصيبة كبيرة هتتحاسب عليها.. صحِيت ميتة وتركتها تهرب منك.. الله أعلم ايه إللي ممكن تعمله دلوقتي.

رجع زيدان، جلس إلى جوار الشيخ، حاول تقبيل يده وهو يبكي ولكن الأخير سحب يده مسرعًا وهو يقول:

- إهدى يا زيدان علشان نشوف حل للمصيبة دي.

استغرق الحوار ما ين زيدان والشيخ عبد الكريم إلى ما قبل الفجر.

- قوم يا زيدان إتوضى واستعد لصلاة الفجر وإرجع مكانك تاني وأدِّي أمانتك وحافظ على سرك لحد ما ربنا يأذن لنا بالخطوة الجاية.

زيدان بدهشة:

- أيوة يعنى هنعمل ايه مع البنت الميتة إلى هربت؟!

- قولتلك هننتظر لما ربنا يأذن.

****



١٠- بركات بن موسى

شوال ٩٠٨ هـ

وكأنَّ الأرض تقيأته فخرج من بطنها.. مَن هو؟!! مَن أبيه؟!! مَن أمه؟!! متى ظهر؟!! من أين جاء؟!! لا أحد يعلم سوى أنه ظهر فجأة في القلعة إلى جوار السلطان والأمراء وكبار رجال الدولة، لم يرهُ أحد من قبل، لا زوجة له ولا أبناء.. لا عائلة ولا أصدقاء، استيقظ سكان بركة الرطلي المشهورة بالأمراء والأعيان على تلك الدار الغريبة التي ظهرت فجأة إلى جوار الخليج الناصري، كيف لم يرها أحد من قبل بالرغم من جمالها الذي يسلب الأبصار...؟! نفى الأمير "أينال" شاد العمارة الشهير علمه بها أو بمَن شيدها، كل ما علمه الناس عنها أنها دار ذلك المدعو "بركات بن موسى" الذي أصبح من أشدّ المقربين للسلطان... أسود اللون، ذو طول فارع وجسد قوي مخيف، رأسه الضخمة تحوي عينان جاحظتان لا تجفلان أبدًا، وجهه المستدير تحفُّه لحية كثيفة.... كتفاه عريضان، ذراعاه قويتان للغاية، يقيم في داره منفردًا دون خدم أو حراس، الوحيد الذي حاول دخول داره في غيابه كان لص وجدوا جثته في اليوم التالي ملقاة خارج الدار وعليها كل تعبيرات الرعب والفزع!!

ظهر في القلعة للمرة الأولى من العدم لا يعرف الحراس متى دخل القلعة ولا يعلم حاجب الحجاب كيف دخلها.

الأمراء يتساءلون مَن هذا؟!! أي سماء ألقته على أرض مصر ليصير في أيام قليلة الآمر الناهي في السلطنة؟، الغوري لا يرفض له طلبا، حتى أتابك العسكر " قيت الرحبي " الرجل القوى المخيف أصبح يخشى نظرات عينيه الحادة، فسقطت هيبته وهو ينصاع لأوامره.

كان السلطان قد سبق و ألقى القبض على المحتسب "علي ابن أبي الجود" الذي عاث فسادًا في الأسواق وتربّح مِن وظيفته فأفقر الناس والتجار وجمع ثروات طائلة خلال عدة أشهر قليلة، فأمره السلطان بردّ هذه المبالغ والثروات لخزينة السلطنة، وعندما رفض ابن أبي الجود سلَّمه السلطان لوالي القاهرة ليقوم بمعرفة أماكن هذه الثروات ولكن المحتسب السابق رفض الإرشاد عن مكان ثروته.. تحمّل الجلد.. تحمّل التعذيب ولم يُقرّ، تحمّل التجريس عندما طافوا به شوارع القاهرة شبه عريان، نزعوا أظافره، حرقوا أطرافه ولم يُقرّ. كان هذا قبل أن يتسلَّمه بركات بن موسى الذي طلب من السلطان إ مهاله ثلاثة أيام فقط حتى يجعله يُقرّ بمكان ثروته.

ممتطيًا حصانه نزل بركات بن موسى من باب السلسلة بالقلعة متوجّهًا لداره ببركة الرطلى ممسكًا بحبل ينتهي طرفه الآخر في رقبة علي بن أبي الجود؛ الذي يسير خلفه موثوق اليدين عاري الجذع، آثار الضرب والتعذيب بجسده تقول أنه شاهد كل أنواع العذاب.

اصطفَّ سكان القاهرة على الجانبين لمشاهدة المحتسب السابق مُساق كما تُساق الخراف ليلة عيد النحر، لم يتعاطف العامة مع علي بن أبي الجود، بل بالعكس وقفوا يسبّون بائع الحلوى السابق الذي ورث المهنة عن أبيه، كان قديمًا يقلي "المشبك"، ثم بدأ يتقرّب من أمراء المماليك بإرسال هدايا الحلوي إليهم.. ورويدًا رويدًا اقترب من صُنّاع القرار حتى تولَّى عدة مناصب في عهد الغوري، ظن الناس به خيرًا لكونه منهم ويشعر بمعاناتهم إلا أنه أذاقهم الويل كله، ظلم هذا.. وأخذ مال هذا.. وقتل هذا.. وعذَّب هذا.

واليوم دار الزمن دورته المعتادة وأصبح الصياد فريسة.

في غرفة مظلمة أسفل دار بركات بن موسى جلس علي بن أبي الجود في أحد الأركان منتظراَ مصيره، فمنذ أن دفعه صاحب الدار لداخل هذه الغرفة وهو ينتظر وصلة جديدة من العذاب.. ولكن هيهات لهم من معرفة أمواله، فليأخذوا روحه عن طيب خاطر ولتبقى دنانيره الذهبية في مكانها آمنة... عذَّبوه، حرقوه، نزعوا أظافر يديه وقدميه وهو صامد.... فماذا عساه أن يفعل أو يزيد ذلك المدعو بركات؟ هل يظن أن هذه الغرفة المظلمة أو تلك الفئران التي تجري حوله سيكون لهم أثراَ... ابتسم ابن أبي الجود من تلك الخاطرة الأخيرة التي دارت في خلده، ولكنه تجهّم فجأة وهو يسمع صوت المفتاح يُصارع باب الغرفة قبل أن يدخل بركات حاملًا سوط أسود اللون بيسراه وبيمناه شعلة ألصقها بالجدار فأنارت الغرفة.

بهدوء قال:

- أخفيت أموالك فين يا ابن أبو الجود؟

بتحدِّي:

- لو ملايكة العذاب نزلوا من السما وسألوني مش هقول... إنت شايف كل التعذيب إللي في جسمي؟ ممكن أستحمل أكتر منه ألف مرة.. لكن مقدرش أستحمل دينار واحد يتّاخد مني.

نقل بركات السوط ليده الأخرى قبل أن يقول بحدة:

- لو أخبرتني بمخبأ أموالك هسلّمك للسلطان عشان يعدمك.... أما لو رفضت فهتشوف عذاب بركات ابن موسى وبعدين هسلّمك للسلطان برضه علشان يعدمك.

بسخرية:

- طالما كده كده هتعدموني يبقى أسلمكم أموالي ليه؟

بركات بسخرية أشد:

- علشان تتجنِّب عذابي
- يعني هتعمل إيه أكتر من إللي إتعمل؟!

أمسك بركات بيد ابن أبي الجود ورفعها لأعلى قائلًا:

- تحب تشوف حفلة أعياد جهنم؟

أومأ ابن أبو الجود رأسه بالموافقة مع ابتسامة ساخرة منه.. وفي لمح البصر قضم بركات الإصبع الخنصر لإبن أبي الجود الذي جحظت عيناه رعباَ وليس ألمًا وهو يرى بركات يمضغ إصبعه في تلذُّذ، صرخات قوية لم توقف بركات، الذي أخرج من طيّات ملابسه كأسًا صغيرة ملأها دمًا وراح يشربها في سعادة وهو يقول:

- لحمك لذيذ ودمك أحلى من النبيذ.

ثم ملأ كأس أخرى من الدم قائلًا:

- هأنتظرك بكره تقوللي مكان أموالك وإلا هتبدأ الحفلة.

في اليوم التالي بدأت الحفلة .. بإستخدام خنجر صغير إقتطع بركات جزءاَ من لحم كتف ضحيته، أضاف بركات للحم الكثير من التوابل والبهارات الهندية وبدأت حفلة الشواء، ما أطعمه من لحم ولكن القطعة التي ا قتطعها بركات لم تسدّ نهمه.. بهدوء أمسك خنجره وتوجّه للكتف الأخر لابن أبي الجود وانتزع قطعة أكبر وسط صراخات هذا الأخير الهستيرية ثم ملأ وعاء بالدم الساخن الطازج غير عابئ بالفريسة.

تقيّأ كثيرَ ا قبل أن يقول صارخًا:

- هقول..... هقول على كل حاجة.... هقول على مخبأ أموالي وثروتي.

جلس بركات إلى جوار موقد الفحم الذي أحضره خصيصًا لهذه الحفلة، راح يستمتع بإحتراق الدم واللحم معًا قبل أن يضع الكثير من التوابل، ثم أمسك قطعة اللحم الساخنة جدًا بيده وإلتهمها بشراهة.

- مش هخبّي ولا دينار واحد عنك.... هقولك على كل حاجة، بس إرحمني من عذابك.

تجشَّأ بركات بعد أن تجرّع وعاء الدم بالكامل، أوشك المحتسب السابق على الجنون فخرجت منه الكلمات ممزوجة بالضحك والبكاء:

- أموالي و دهبي وكل ثروتي موجودة تحت دكان النجارة القديم بتاع أبويا إللي قفله قبل ما يشتغل حلواني، هتلاقي على يمينك ماكينة خرط الخشب وعدِّة الشغل حواليها، أحفر تحتها بخمس أذرع هتلاقي صندوق كبير جدًا فيه ألف ألف دينار دهب.

نظر بركات فجأة إلى علي بن أبي الجود قائلًا بحدة:

- وباقي ثروتك فين؟

باكيًا:

- أقسم بالله هي دي كل ثروتي ولا أمتلك أي شئ آخر غير البيوت والدكاكين والحواصل إللي إنتم أخدتوها... أقسم بالله ما أمتلك دينار واحد زيادة.

حدَّق بركات في عينيه بشدة ثم اتجه نحو باب الغرفة قائلًا قبل خروجه:

- يبقى نكمل الحفلة بكرة.

في اليوم الأخير أفاق علي بن أبي الجود من غيبوبته صباحًا ليجد نفسه في غرفة أخرى جدرانها عالية مطلية باللون الأبيض مُتّسعة شديدة الإضاءة لعدم وجود سقف للغرفة الخاوية إلا من مرآة كبيرة تتوسط أحد الجدران، كانت رائحته كريهة بعدما بال على نفسه، متهالك القوى.. منهار تمامًا، زحف نحو المرأة ليشاهد ما تبقَّى منه بعدما استطعم هذا الوحش لحمه، ذراعاه المتدليان لا يساعدانه على الزحف ولا يستطيع تحريكهما، يشعر بألم شديد في موضع كتفيه، راح يحبو على صدره كالطفل الصغير ثم على ركبتيه، المسافة صغيرة لمَن يمتلك القوة.. أما هو فقد صار شبه إنسان.. بالكاد وصل للمرآة، جلس أمامها وراح ينظر لصورته عبر سطحها اللامع البراق، شهق رعبًا فاتحًا فمه على مصراعيه مع إتساع عيناه، فما شاهده كان مرعب حقًا، فبالرغم من كونه قد أصبح مسخًا إلا أن المسخ الذي يقف خلف صورته في المرآة كان أشدَّ رعبًا.... مسخ يشبه بركات بن موسى ولكن ملامحه مختلفة وأكثر رعبًا.. الشعر يغطي وجهه بالكامل.. فكيه بارزان للأمام.. أنيابه أكثر إستطالة.. الكفان كمخالب حيوان مفترس.. وعيناه حادتان شديدتا الإحمرار، أدار رأسه للوراء فوجد بركات واقفًا بهيئته الطبيعية!!

أعاد النظر للمرآة فوجد المسخ.

اقترب منه بركات قائلًا بهدوء:

- أنا روحت دكان أبوك واستخرجت منه الأموال إللي قولتلي عليها.

صمت بركات قليلًا قبل أن يضيف:

- فين باقي ثروتك يا ابن أبو الجود؟
- أنا أقسمت لك إن دي كل ثروتي ولا أمتلك دينار زيادة.

صرخ بركات بقوة فجاءت صرخته كعواء ذئب، وفي لمح البصر أمسك برقبة علي بن أبي الجود ورفعه لأعلى قبل أن يلصق ظهره بالجدار، بطرف عينه نظر للمرآة ليجد أنَّ المسخ هو الذي يرفعه لأعلى، أوشك ابن أبى الجود على الموت وهو يقول:

- باقي ثروتي تحت منزلي إللي في الأزبكية تحت السلم هتلاقي ألفين ألف دينار دهب.

ظهيرة اليوم التالي كان بركات بن موسى يجر خلفه المحتسب السابق أو الإنسان السابق علي بن أبي الجود، وقد اصطفَّ الناس على الجانبين مثلما حدث منذ ثلاثة أيام، ولكنهم هذه المرة كانوا يحملون تعاطفًا شديدًا للمُحتسب السابق الذي تغيّر شكله وتغيّرت هيأته وتغيّر عقله، جُنَّ فراح يضحك بهيستريا شديدة وهو ينظر للناس في بلاهة ويردد كلمات لا يفهم منها أحد شيئًا.

ظل علي بن أبو الجود ثلاثة أشهر في السجن يهذي بكلمات غريبة عن الغول الذي يأكل الناس وحوله يضحك السجناء بسخرية إلى أن تمّ إعدامه.

****

ليلة عيد الأضحى ٩ ذو الحجة ٩٠٨ :

كان الإحتفال صاخبًا للغاية.. فالخليفة العباسي المستمسك بالله يعقوب بن عبد العزيز ذو المنصب الشرفي وكبار الأمراء وأئمة المذاهب الأربعة وكبار رجال الدولة قد اجتمعوا في قصر السلطان إحتفالًا بعيد النحر، كان هذا هو الإحتفال الأول بداخل مدرسة الغوري التى بناها بالشرابشين على

غير عادة الإحتفالات السابقة التى كانت تقام في القلعة، خلا الإحتفال من الأ تابكى قيت الرحبى الذى أرسله السلطان بناءا على مشورة بركات إلى الأراضى الحجازية أميرا لركب المحمل لحماية الحجاج عن بُعد نظر ابن زنبل إلى الغوري الذي كان يتبادل الضحكات مع بركات بن موسى، مسكين هذا الرجل المُنساق كالبعوض نحو النار! لقد حرص ابن زنبل على نصح السلطان، ولكن هذا البركات وضع فاصلًا بينهما... ضحكات عالية قد تصل لدرجة الصراخ، الشاعر إبراهيم سعد الدين بن فخر الشهير بإبن السكر والليمون يواصل إطلاق أشعاره الساخرة، يضحك السلطان ويجوب ببصره على جميع الحضور ليرى ضحكاتهم معه وهو يحتسي مشروب القميز المفضل له.. نظر للسلطان بحزن وأسى..؟ هل نساه السلطان ونسي ما تعاهدا عليه..؟

آه لو استطاع ابن زنبل أن يقترب من السلطان مجددًا ليخبره بما يُحاك ضده.... آه لو انفرد به كالأيام الخوالي ليخبره من هو بركات بن موسى... آه لو امتلك الشجاعة لصرخ وسط هذا الجمع وقال أن بركات بن موسى ما هو إلا شيطان رجيم.

انتفض ابن زنبل عندما شعر بيد توضع على كتفه من الخلف وصاحبها يقول:

- رمّال حاذق صحيح

التفت ابن زنبل خلفه فإنتفض مجددًا عندما وجد بركات ابن موسى الذى كان يجلس إلى جوار السلطان منذ لحظة واحدة يبتسم إبتسامته الخبيثة بعد أن قال عبارته السابقة.

****

الخميس ٢ ربيع الأول ٩٠٩ هـ :

فور وصول الأتابكي " قيت الرجبى " من الأراضى الحجازية اندفع نحو بيت ابن زنبل الرمّال ومعه هذه المرة عدد كبير من حراسه... طرق الباب بشدة مع تأخر ابن زنبل، ثم اندفع للداخل كالعاصفة فور فتح الباب، وجد وجه صاحب الدار مضطرباً فسأله:

- مالك يا ابن زنبل ؟ بتنظر نظرة المُحتضر ليه؟

استمر صامتًا، فواصل الأتابكي:

- إيه إللي تمّ بينك وبين بركات ابن موسى..؟ من يوم ما قابلته وإنت خايف ومرعوب، عمرى ما شوفتك كده.

التفت ابن زنبل حوله ثم قال بصوت مبحوح:

- إبعد عن طريق بركات بن موسى.

ثم قطع ابن زنبل حديثه وجحظت عيناه برعب وهو يلتفت حوله بقلق.. نظر إليه الأتابكي قائلًا:

- مالك يا ابن زنبل؟ إنت إتجذبت ولا إيه؟ إتكلم علشان أنا مش فاهم حاجة.

زادت حدة ابن زنبل وهو يقول:

- إسمع كلامي وإبعد عن ابن موسى.. مش هقول أكتر من كده.

خطى الأتابكي عدة خطوات بثقة وغرور قائلًا:

- أظنك استضعفتنى لأنني سافرت على راس المحمل ودى مهمة يقوم

بيها أى أمير.. لكن بالعكس المهمة دي كانت عاوزة أمير قوي، وأقوى أمير فى السلطنة هو الأمير "قيت الرحبي" أتابك عسكر مصر.. إنت عارف أن الجازانى ابن أمير مكة عمل تمرد هو وأخوه الشريف بركات وباقي إخواته وسرقوا ونهبوا الحجاج، لدرجة إن سلطانك الغوري الضعيف كان عاوز يمنع الحج السنة دي، ولكنى أنا إللي طلبت منه أطلع على راس المحمل علشان أحمي الحجاج وأوقف التمرد وقد كان.. أنا لسه راجع حالًا من الحجاز ومعايا فى الأسر الجازاني وإخواته وأعوانه مزنجرين فى الحديد، طلَّعتهم للقلعة علشان السلطان يشوفهم ويشوف مين إللى يقدر يحمي سلطانه الأمير " قيت الرحبي " ولا بركات ابن موسى.

****

صعد الأتابكي " قيت الرحبي " إلى حوش القلعة مختالًا فخورًا، فها هو الجازاني وعصابته الذين أزعجوا السلطان بقتلهم ونهبهم للحجاج مقيدين في الحديد، ها هم تحت يد السلطان الغوري فليحكم فيهم كما يشاء.

نظرات كبرياء من الأتابكي إلى بركات بن موسى يقول فيها: أنا الأقوى الآن، ونظرات سخرية من بركات بألا تتعجّل.. لحظات قليلة ونزل السلطان إلى الحوش حيث يقف الجمع، تهيّأ الأتابكي للترحاب الشديد الذي سيلقاه من الغوري والمنح التي سيمنحها إياه، إلا أن الغوري تجاهله تمامًا.. بل لم يُلقِ عليه التحية،

وجّه الغوري نظره إلى قرقماس أمير السلاح قائلًا:

- فين الجازاني زعيم المنسر علشان أقطع راسه بيدي؟

نظر قرقماس إلى قيت الرحبي قائلًا:

- مين فيهم الجازاني ؟

توغل قيت الرحبي بين الأسرى بكبرياء ليسحب كبيرهم الجازاني ولكنه لم يجده، التفت الأتابكي حوله وراح يطالع كل الوجوه.. لقد كان هنا منذ لحظات قبل نزول السلطان والسلاسل الحديدية تحيط رأسه ويديه وقدميه بشدة.... إستحالة هروبه، كيف اختفى...؟

دار حول نفسه كثيراَ والذهول يملأ وجهه ووجه رجاله، حتى باقي الأسرى راحوا ينظرون لبعضهم في ذهول غير مصدقين ما حدث.

ببرود قال الغوري قبل أن يصعد للقصر:

- الجازاني هرب منك! أتابكي فاشل، خد باقي الأسرى إحبسهم في دارك، ولما تلاقي الجازاني هاتهم وتعالى.

إبتسامة خبيثة ماكرة من بركات بن موسى للأتابكي قيت الرحبي الذي بدا كالمسحور...

****

يوم بعد يوم يتأكد الأتابكي " قيت الرحبي " أن أطماعه في الحكم تندثر، لم يرغب يوماً في السلطنة ولكنه رغب في الحكم خلف سلطان جبان..... لم يجد مَن هو أضعف من الغوري ليجعله واجهة لحكمه، حتى إذا ما ثار المماليك وقتلوه ولي غيره.

مرت عدة أشهر منذ وصوله من مكة، رأى خلالهم مِن هو الحاكم الجديد الذي لا رادّ لأوامره ولا ناهِ لفعله... لقد انصهر السلطان داخل عباءة بركات بن موسى، فصار يفكر بعقله، ينطق بلسانه ويبطش بيده.. إذًا لا بد من التخلص من الغوري وتولِّى السلطنة..

إستأذن الأتابكي من السلطان الذهاب إلى العباسة عدة أيام للتنزه .

رجب ٩٠٩ هـ :

وقت الظهيرة يوم مشمس جميل من الأيام النادر تكرارها فى الشتاء، كان الجو صحواَ، الشمس ساطعة مع درجة برودة خفيفة جدًا فى الهواء.. تقابل الأتابكي قيت الرحبى مع عدد من الأمراء والمماليك والأعيان ممّن انقلبوا سراَ على الغوري..

بحديقة داره الواسعة وتحت الأشجار والظلال دار حوار طويل جدًا إنتهى بمقولة أحد الأمراء:

- إنت السلطان

نظر الأتابكي لمَن حوّلوه مستطلعًا رأيهم فوجد حماس منقطع النظير من أعوانه.... - حسناً سنقفز اليوم على السلطان ونتركه جثة مفصولة الراس.

قالها أحد الأمراء مشهراَ سيفه لأعلى، وإلى جواره أشهرت باقي السيوف مع عبارة:

- الولاء للسلطان قيت الرحبي.

****

فى هذا التوقيت صعد إلى القلعة أحمد بن زنبل الرمّال، قال للغوري بإضطراب وخوف من هذا الجالس إلى جوار السلطان:

- مؤامرة تُحاك الآن ضد مولاي السلطان الغوري.

الغوري بقلق:

- من مين يا رمّال؟

صمت ابن زنبل قليلًا قبل أن يقول:

- مش واضح مين إللي بيتآمر... كل إللي ظاهر عندي مجموعة قاعدين في مكان ما على أرض مصر وبيخطَّطوا لأمر الإطاحة بالسلطان... مين هما؟ معرفش، موجودين فين؟ معرفش.

ابتسم بركات بن موسى قائلًا:

- واضح إن ابن زنبل عنده بعض من علم الغيب، لكن علمه مش كامل.

ابن زنبل:

- العلم الكامل عند الله وحده.

- طبعًا طبعًا، يا ريت تبلغنا بأي مؤامرات جديدة.. إنت عارف أعداء السلطان كتير.

رجفة بسيطة بجسد ابن زنبل قبل أن يقول:

- أنا تحت أمر مولانا السلطان الغو........

- دورك انتهى يا ابن زنبل، تقدر ترجع مكان ما جيت.

قالها بركات كالبصقة وهو يشير بيده نحو الباب.

****

- الولاء للسلطان قيت الرحبي .

كرّرها أعوانه عدة مرات، فجأة هبّت ريح سوداء شديدة لم يذكر التاريخ مثلها أحالت نهار مصر إلى ظلام... عاصفة سوداء غريبة شديدة جدًا راحت تعصف بكل شئ أطاحت بالأشجار واقتلعتها من جذورها، أسقطت العديد من المنازل.. أهاجت البحر.. أغرقت المراكب، أهلكت البساتين،

أفسدت الزراعة، مات عدد كبير من الناس.. بالكاد فرّ بنفسه الأتابكي واحتمى بداره تاركًا ضيوفه يواجهون مصيرهم المجهول.

بعد عدة أيام رجع من العباسة، فكان أول ما فعله أن توجّه إلى القلعة لتحيّة السلطان، وما أن شاهد بركات منفردًا داخل القاعة السلطانية حتى شعر بالدماء تثور فى رأسه نهره وأمره بالخروج متوقعًا مواجهة بينهما، إلا أن بركات ا نصاع للأمر بهدوء ناظرًا له نظرة حادة.. يكاد يقسم قيت الرحبى أن عينا بركات تحوّلتا للون الدم وأنه إنتفخ قليلًا قبل مجئ السلطان، الذى بادره الأتابكي قائلًا:

- أنا عارف إن السلطان غاضب مني بسبب هروب الجازاني، لكنه ما هربش مني. أنا دخلت بيه القلعة والحراس قفلوا الأبواب ومحدش خرج .. زي ما تكون الأرض إنشقت وبلعته.

السلطان ببرود:

- أنا عاوز الجازاني... تقدر تقبض عليه إمتى؟
- لو يعطيني السلطان مهلة أسبوع... أقدر أستجوب إخواته إللي محبوسين في داري وأضغط عليهم لحد ما يقرّوا.
- إنت كل ده ولسه هتستجوبهم....؟ أومال كنت حابسهم عندك ليه؟
- أسبوع واحد والجازاني هيكون مع إخواته.

دخل بركات بن موسى فجأة مع العبارة الأخيرة قائلًا:

- أتمنى فعلًا إن الجازاني يكون مع إخواته.

كان أخوة الجازاني محبوسين بدار الأتابكي " قيت الرحبي " بداخل غرفة أسفل داره لا باب لها، منفذها الوحيد تلك الفجوة بأعلى الحجرة المحكمة

الغلق بواسطة غطاء حديدي ذو قفل كبير من الأعلى.. كانت هذه الغرفة أشبه بمعتقل كبير.. سجن أسفل سجن.. لم تصله أشعة الشمس منذ بناءه...

لليوم الثالث على التوالي منع الأتابكي الطعام والماء عن الأسرى حتى يقرّوا بمكان اختفاء الجازاني، أقسموا أنهم لا يعلمون، فبدأ التعذيب الجسدي... صراخات يسمعها ويشاهدها الأتابكي من أعلى الغرفة، يتوسطها أغلظ الأيمان بعدم علمهم... يأمر الأتابكي بإستمرار التعذيب مع منحهم القليل من الطعام والماء حتى لا يهلكوا، يسير في الممر الضيق أعلى غرفة التعذيب إلى آخره، حيث يقوده سلم صغير للأعلى.

هو يصدق هؤلاء الأسرى، فاختفاء الجازاني كان أمرَا خارق للطبيعة، لقد اختفى فى جزء من اللحظة.. كان مُقيدًا بقيود شديدة القسوة والإحكام فى يديه وقدميه وحول عنقه، كيف هرب؟!!

صعد الأتابكي إلى داره وخلفه جميع حراسه ليجد بركات ابن موسى في انتظاره... ارتجف بمجرد رؤيته، ولكنه أبدى الثبات وهو يستفسر عن سبب هذه الزيارة المفاجئة.

- السلطان الغوري أمر بحضورك بشكل عاجل وبيأمرك تحضر معاك أخوة الجازاني إلى القلعة مجنزرين في الحديد حالًا وفى أقصى سرعة.

****

في القلعة وفى حضرة الغوري انفعل الأمير قرقماس أمير السلاح لدرجة إنه دفع الأتابكي " قيت الرحبي " في صدره قائلًا:

- إنت إللي هرّبتهم.

ابتسم بركات والغوري يوبّخ الأتابكي:

- الظاهر إني عينت أتابكي ضعيف مش عارف يحرس مجموعة بدو من الصحراء غفّلوه وهربوا من بيته.

أما الأتابكي فكادت الأرض أن تميد به، أوشك على الجنون.. نظر حوله في بلاهة وقد تضاربت عدة أسئلة وأجوبتها في رأسه... متى فرّ الأسرى؟!! وكيف؟!! لقد تركهم لحظة واحدة وأحكم إغلاق الغرفة عليهم، مَن الذي ساعدهم وكيف؟ ومتى؟!!

تمر عدة أشهر كانت علاقة قيت الرحبي بالعسكر هو اللقب فقط بعدما استبعده الغوري من كافة الإجتماعات والمناسبات الكبرى.

استقبل الأتابكي قيت الرحبي القاضى وكاتب السر السابق بدر الدين محمد بن مظهر في داره سرا ومعه نفر قليل من الأمراء ممّن اجتمعوا معه فى العباسة يوم العاصفة السوداء.

- قم وتسلطن.

قالها القاضي بدر الدين محمد بن مظهر كاتب السر المعزول منذ عدة أيام، ثم تبعها:

- الغوري بيبعدنا عن الساحة علشان يسلم المناصب كلها لبركات ابن موسى.

الأتابكي بهدوء:

- طب والحل؟
- قولتلك قُم وتسلطن.
- السلطنة محتاجة نفقات كتير.
- قو م وتسلطن ونفقة البيعة كلها عليّا.

****

ابن زنبل للغوري على إنفراد:

- رمالي كشفت لي عن مؤامرة جديدة ضدك.

- من مين؟

- هقولك على اسمه لكن تعطيه الأمان... طبّق حكمك عليه بس بدون قتل أو تعذيب.. السجن أو النفي أفضل وسيلتين للعقاب.

الغوري بلهفة:

- قول بسرعة مين هو؟

ابن زنبل بهدوء:

- هما مجموعة مش كبيرة... الوحيد إللي ظهر اسمه على الرمال هو القاضي ابن مظهر.... والباقيين ما ظهرش حد منهم بوضوح.

الغوري:

- إيه رأيك يا بركات في إللي سمعته؟

انتفض ابن زنبل من العبارة الأخيرة عندما نظر خلفه فوجد بركات بن موسى يقف مبتسمًا... متى جاء هذا الرجل وكيف لم يشعر بوجوده.

- الأمر للسلطان .

قالها بركات، فأضاف ابن زنبل:

- لكن بدون قتل أو تعذيب.

- هنبحث الأمر ده.. شرفتنا يا ابن زنبل، ومتشكرين على خدمتك لسلطانك.

قالها بركات بحدة وهو يشير نحو الباب بطريقته المعهودة.

بركات:

- أنا شايف إن السجن مش هيعمل حاجة مع بدر الدين ابن مظهر... إنت ساجنه من أكثر من ٣ شهور ومش عاوز يقول مين المتآمرين إللي كانوا معاه... فلو يسمح لي السلطان أستلم ابن مظهر في بيتي وأتعامل معاه بطريقتي.

الغوري:

- لكن أنا وعدت ابن زنبل بعدم تعذيب أو قتل أى متآمر ونكتفى بسجنه.

- ابن زنبل ده مجرد رمّال عنده من علم الغيب إللي مش عند حد غيره أشهد له بكده... لكن دوره بينتهي عند الحد إللي بيبلَّغنا فيه بمؤامرة، أما صد المؤامرة مهمتي أنا.... فإسمح لي أستلم القاضي ابن مظهر لأنه فى السجن وأعوانه فى الخارج، يعنى أعوانه أشد خطر على السلطان والأخطر إننا ما نعرفهمش.

تردَّد الغوري قليلًا قبل أن يقول:

- إعمل إللي إنت شايفه في مصلحة السلطان .

إبتسم بركات قائلًا:

- يبقى حفلة جديدة.... أنا عطشان.

الغوري بغباء:

- يا حراس... كوب ماء لبركات بسرعة.

بركات مبتسمًا:

- لا متشكر.. لما أرجع البيت هشرب براحتي.

****

لم يسمح بركات بن موسى لأحد أن يدخل داره إلا صديقه، الوحيد محمد بن أحمد بن إياس.

جلس الضيف في انتظار صاحب الدار الذي هبط لغرفة التعذيب ليتولّى أمر بدر الدين محمد بن مظهر.

سنوات عمره الثلاث والخمسون والشيب الذي تسلَّل إلى لحيته أخبروه أن من الكياسة الإعتراف لسجّانه بكل شئ... في غرفة التعذيب بداره وقف بركات يستمع للقاضي بدر الدين محمد بن مظهر وهو يسرد له كل ما دار في منزل الأتابكي قيت الرجبي... كان السجين حريصًا على ألا يخفي ولو كلمة واحدة تلفَّظ بها أحدهم حتى الإشارات والإيماءات ذكرها ووصفها وصفًا تامًا، فلم يعُد في الحياة ما يستحق الإهانة، وضع جميع الحقائق أمام ابن موسى طمعًا في عدم إيذاءه فقط، ولكن ما كان لبركات أن يضيع هذا الصيد الثمين.

لم يستغرق الكثير من الوقت انتهى من حفلته وصعد لمقابلة ضيفه.

- حلَّت بمصر البركات منذ أن جاءنا الحاج بركات.

بادر ابن إياس مضيفه بهذه العبارة، فرد الأخير:

- ما حصلش إني سافرت للحج ومع كده دايمًا تناديني يا حاج بركات.

- الصلاح والتقوى إللي في وجهك هما إللي بيؤمروني أقولك يا حاج.

بركات بهدوء:

- إنت تعرف يا ابن إياس أنا ثقتي فيك كبيرة.

- عارف يا حاج بركات... وكل الناس عارفه كده، لدرجة إنهم دلوقتي أطلقوا عليّا لقب " أبو البركات "

ضحك بركات بن موسى قليلًا قبل أن يقول:

- تعرف القعدة دى ناقصها مين؟

- مين؟

- أحمد ابن زنبل الرمّال.

تجهّم وجه ابن إياس فجأة وبركات يواصل:

- أنا نفسي ينضم لينا... تقدر يا ابن إياس تجذبه لمجلسنا؟

إزداد تجهّم وجه ابن إياس وهو يقول:

- إيه السبب؟!

- أنا شايف إنه بارع في مهنة التنجيم وقراءة الطالع فقولت نستفاد منه.

ابن إياس بحدة:

- دا رمّال غشاش وكداب... قدر يسيطر لفترة بسيطة على عقل السلطان قبل ما تظهر يا حاج وتصحّح الأوضاع من تاني وتبعده عن القلعة والحكم.

- بس الصراحة هو مش كداب... دا عالم كبير، أشهد له بكده.

احتقن وجه ابن إياس ولاحظ بركات ذلك، فقال مواصلًا:

- لكن مكانتك عندي هتكون أكبر طبعًا.

صمت ابن إياس قليلًا، قبل أن يقول:

- إيه أخبار القاضى ابن مظهر؟

ابتسم بركات قائلًا:

- إعترف، لكن بصعوبة وتحت التعذيب الشديد... لو عاوز تنزل تشوفه بنفسك علشان تدوِّن الأخبار أول بأول... إتفضل.

هبط ابن إياس، وما أن شاهد القاضي بدر الدين بن مظهر حتى صعد قلبه إلى حلقومه انتفض الضيف وهو يقلب الفريسة ليحصر ما ألمَّ بها... هو سمع وكتب عن عذاب الأوّلين كثيرَا، ولكنه لم يسمع أو يكتب عن مثل ما يراه الآن ... القاضي بدر الدين بن مظهر فاقدًا للوعي منزوع فروة الرأس وقد تقطَّعت أصابع يده العشر... كعبيه وركبتاه معصورتين بشدة امتزج فيهم العظم باللحم... مجدوع الأنف.... عيناه نفرت من محجريهما وسالت على خديه.

- شوفت أنا عانيت أد ايه لحد ما اعترف بتفاصيل المؤامرة؟

انتابت ابن إياس حالة من الغثيان فخرج مسرعًا، حتى أنه لم ينتبه لعدم وجود دماء إلى جوار الضحية.

****

صعد الأتابكي " قيت الرحبي " إلى القلعة بناءَا على طلب السلطان وما أن وصل إلى الحوش حتى فوجئ بالمماليك يحاصرونه من كل اتجاه، تم القبض عليه وأقتيد إلى سجن الإسكندرية في حراسة مشددة بناءَا على أوامر بركات ابن موسى الذى تمّ تعينه في منصب محتسب القاهرة، ليعلو شأنه جدًا بين العامة والخاصة.

صار يبيع المناصب الهامة لمَن يدفع أكثر، يفرض الضرائب الباهظة على العامة، يعطي إمتيازات لبعض التجار ويعطي للبعض الآخر حق إحتكار بعض السلع الأساسية، فإرتفعت الأسعار، وعمّ الغلاء، وانتشرت الفوضى، وازدادت السرقات، ونهبت المحلات والدكاكين، واختفت السلع من الأسواق، واستقوى القوي على الضعيف والضعيف على الأضعف، أصبح الناس ما بين سخط وكبت.. وبركات يجمع الأموال في سعادة غير مبالِ بالشعب.

رمضان ٩١٠ هـ :

يأتي اليوم الأول من شهر رمضان وتخلو الموائد من الطعام والشراب وتنقطع الولائم إلا عند أصحاب المقام العالي......

الذين يحبون أوطانهم لا يُجاهرون بهذا الحب، ولكن يظهر حبهم لوطنهم عند الشدائد.. انطلقت ثورة الشعب المصري ضد فساد بركات، اشتعلت الشوارع غضباَ كما اشتعلت الحرائق في عدة أماكن. أطلق بركات المماليك الجلبان على الثوار فراحوا يعيثون فسادًا بهمجيتهم المعهودة، ساد الهرج والمرج، ازداد القتل، ازدادت الحرائق، اشتعلت الثورة أكثر فانسحب المماليك الجلبان مذعورين، اهتزّت دعائم القلعة، وتزلزل سلطان الغوري.. استنجد ببركات بن موسى الذى قال بهدوء:

- هوجة وهتخلص بسرعة.... يا ريت مولانا السلطان يطّمن.

- أطمن إزاي؟! البلد بتولع يا بركات.. كله بسبب سياستك وظلمك. أنا حذَّرتك بلاش تضغط على الشعب أكثر من كده.

صمت بركات قليلًا أمام غضب الغوري، فالسلطان بالرغم من طيبة قلبه وتسامحه إلا أنه يتحوّل لمخلوق آخر عند الغضب.

- ممكن السلطان يمهلني بعض الوقت.. والثورة تخمد؟

- لأ طبعًا مفيش وقت.. لو مش هتقدر تخمد الثورة دلوقتي وتطلع تواجه الناس وترجّعهم لبيوتهم إعتبر نفسك معزول من منصبك.

بركات بهدوء:

- حاضر.. حالًا هتخمد الثورة..

فجأة صرخ أحد الثوار وأمسك ببطنه قبل أن يسقط أرضًا ويتلوّى كالثعبان، وقبل أن ينتبه أحد إليه كان هناك آخر وآخرون يتساقطون صرعى لذلك الطاعون المميت الذي ضرب القاهرة فجأة.

بدأ سقوط الضحايا بين الثوار المحاصرين للقلعة.. ثم انتشر فى كل الأنحاء، أشاع العامة أولًا أن المحتسب الجديد بركات بن موسى ألقى سم في مياه النيل ثم أيقنوا أنه طاعون مميت، الضحايا يتساقطون بالعشرات ثم بالمئات ثم بالآلاف... جنائز يومية، دفن جماعى، أصبح الموتى أكثر من المشيّعين، قرّر السلطان عمل حصر لأعداد الموتى فوجد أن العدد لا يقل فى اليوم الواحد عن أربعة آلاف ميت من الطاعون، كثير من النعوش قليل من المصلين... صلوات الجنائز لا تنقطع طوال اليوم، إغتمّ السلطان الغوري لذلك وأمر بفتح مغسلًا للأموات بجوار سبيل المؤمنين.

مرّ رمضان وجاء شوال دون أن يأتي العيد، كرب وحزن في كل المنازل التى لم تخلُ من فقيد أو أكثر بسبب الطاعون الذي اشتدت قوته فصار يعصف بالناس عصفًا رجالًا.. ونساءًا.. أطفال وشيوخ.. أمراء ومماليك وعامة، امتلأت الطرقات بالجثث، توغّل الفارس الأسود لداخل القلعة فأسقط ابنة

السلطان الغوري التي كانت تستعد لعرسها بعد انتهاء الطاعون...

بكى الغوري بشدة، قبّل جبهة ابنته، ثم قبّل يديها وقدميها وأصر أن توضع فيهما الحناء التى أعدَّتها لعرسها... احتضن جثتها بشدة بالرغم من تحذير الأطباء له.

صار الحزن مشترك بين الحاكم والمحكوم، نسى الناس ثورتهم فهدأ الطاعون.

صعد ابن زنبل إلى القلعة ليواسي السلطان، وبعد اجتماع منفرد معه - سالت خلاله دموعهما - تعانقا، ثم نزل السلطان إلى الأسواق وقد أصدر عدة قرارات هامة.

المنادي :

- أمر السلطان الغوري إلغاء كل القرارات السابقة التي أصدرها المحتسب بركات بن موسى، كما أمر بإلغاء كافة أنواع الضرائب، ومنع الإحتكارات، وقرر خفض أسعار جميع السلع .

ارتفعت الأصوات له بالدعاء.. شعر السلطان بالأمان بين الناس، أصبح يتجوّل فى الأسواق والطرقات يواسيهم ويواسونه، اقترب مجدداً من ابن زنبل وراح يبتعد عن ابن موسى الذي اشتاط غضباً في داره وانتفخ كالبالون قبل أن يقرر الذهاب للجزيرة حيث يقيم ابن زنبل الرمّال.

****

فتح الباب بهدوء، إلا أنه انتفض فجأة بمجرد رؤيته للطارق... صمت قليلًا محاولًا استنشاق بعض الهواء، ولكن ذلك أصبح صعباً للغاية، خفق قلبه بشدة وارتجفت أطرافه، أزاحه الضيف بيده ودخل داره دون إستئذان

قائلًا ببرود:

- أومال عامل نفسك رمّال وبتعرف الغيب وإنت مش عارف حتى مين واقف على بابك!

صمت ابن زنبل وبركات يواصل:

- رمّال فاشل صحيح

ابن زنبل بهدوء:

- إنت عارف إنك مش بتظهر في رمالي بسبب طبيعتك العجيبة والغريبة.

بركات ضاحكًا:

- ويا ترى قدرت تعرف أنا مين ولا لسه؟

ابن زنبل بثقة:

- أنا لو عرفتك وعرفت جنسك هقدر أقف قصادك وأتصدَّى لفسادك وشربك لدماء المصريين.

- إنت عرفت!!

- عرفت إيه؟!!

قالها ابن زنبل، فإنفجر بعدها بركات ضاحكًا لبعض الوقت، قبل أن يقول وهو يمدّ كفّه للأمام:

- إيه رأيك نعمل معاهدة بيني وبينك؟

حدق ابن زنبل في وجه بركات وفى يده الممدودة فى وضع التصافح، قبل أن يقول:

- إنت عارف إن الزيت والماء لا يجتمعان.

بركات بحدة متلاشياَ ما سمعه:

- المعاهدة بتقول إنك تقول للسلطان إن فيه مؤامرة لقتله من الشعب والمماليك وتحاول تبعده عن الأوباش إللي بيتقرّب منهم. وتوضَّحله كمان إن أنا الشخص الوحيد الأمين عليه وتطلب منه يبعد عن الجميع ويرفض مقابلة أي شخص بإستثناء بركات، وفي المقابل هيكون لك أأ................

ابن زنبل مقاطعًا بحدة:

- طلبك مرفوض. ابن زنبل لا يخدع ولا يكذب ولا يغش... الأمور دي متروكة لأهل السياسة أمثالك.

****

١١- فى أرض الشيطان

أغسطس ١٩٧٥

لم تعرف مصر طول تاريخها تاجر مخدرات بخطورة وبقوة ونفوذ سيد طحيمر، هذا الرجل الذى يمتلك جيشًا من المساعدين والصبيان وتجار المخدرات، كما أن له رجاله المسترين فى مؤسسات الشرطة والقضاء وكافة الوزارات والهيئات، لسنوات طوال ظل سيد طحيمر يبثّ سمومه فى البلاد من مسقط رأسه بمحافظة القليوبية، فشلت كل محاولات الإيقاع به كما فشلت كل المحاولات السرية التى تمَّت بين وزارة الداخلية وبينه من أجل إقناعه بالكف عن تجارته وليكتفي بما جمعه من ثروة طائلة، لقد أزعج هذا الرجل وزارة الداخلية التى راحت تستبدل قياداتها الواحد تلو الآخر من أجل الايقاع بهذا الطحيمر وفى كل مرة تفشل خطة الشرطة، إلى أن فعلها المقدم/جمال الصايغ الذى قام بوضع خطتين أعلن عن إحداهما أمام رؤساؤه ومرؤسيه ونفَّذ الأخرى دون علمهم، كان يوم سقوط سيد طحيمر عيد لدى وزارة الداخلية، راح الجميع يهنئون الوزير وعلى رأسهم رئيس الجمهورية أنور السادات الذى سرّه الخبر بشدة...

إلا أن أبناء طحيمر توعَّدوا بالإنتقام، خاصة عقب الحكم عليه بالسجن المؤبد فى محاكمة عاجلة، راحت رسائل التهديد تتواصل على منزل المقدم جمال الصايغ لفترة قليلة ثم انقطعت فجأة.

وصلت معلومات لوزارة الداخلية تؤكد أن الابن الأكبر لسيد طحيمر ويدعى رشدي قد استضاف أحد المرتزقة من الإتحاد السوفيتي لقتل المقدم جمال الصايغ والتمثيل بجثته وهذا ما أثار قلق المسئولين، تم عقد اجتماع عاجل ومحدود برئاسة السيد / السيد فهمى وزير الداخلية الذى

بادر قائلًا:

- مش هطوَل عليكم علشان عندي اجتماع بعد ساعتين مع الرئيس أنور السادات.. أولًا أنا بشكركم جميعًا على النجاح فى عملية القبض على إمبراطور المخدرات خاصة إني يا دوب ماسك الوزارة من كام شهر، فبسببكم أصبحت بروح اجتماعات الرئيس وأنا راسي مرفوعة.
ثانيًا رجالتنا زى ما بنشكرهم ونباركلهم على نجاحهم فى عملهم إللي هو واجب عليهم، لازم كمان نحميهم ونحافظ عليهم .

ثم وضع الوزير يده على جبهته وفكر قليلًا قبل أن يستطرد :

- الصحافة - زي ما حضراتكم عارفين – ركزت فى الفترة إللي فاتت على موضوع القبض على سيد طحيمر، والناس طالعين بينا السما.. فلو لا قدَّر الله حصل أي أذى للمقدم جمال الصايغ يبقى إحنا كده وقعنا وشكِّكنا الناس فى قدرتنا.. وإنتم عارفين الرئيس السادات ما بيرحمش!! وزراء ومسئولين أكبر مني ومنكم عشر مرات مرميين فى السجن.

مدير الأمن بهدوء:

- إحنا تحت أمر سيادتكم يا فندم.

الوزير:

- مطلوب أكبر حماية لإبننا جمال الصايغ ومن غير ما يظهر إننا بنحميه حتى هو نفسه ما يعرفش.. إحنا لازم نحافظ على هيبتنا أمام الشعب وفى نفس الوقت نحافظ على القانون.. ف يا ريت أسمع الإقتراحات إللى عندكم لحماية جمال.

مدير الأمن:

- ممكن نبعته بعثة للخارج لحد ما....

وزير الداخلية بحدة:

- عاوز حل تاني

شعر مدير الأمن بالإحراج فنظر للأسفل مع قول أحد الضباط الحاضرين:

- أنا شايف إن المقدم جمال يستمر فى عمله مع تشديد الحراسة عليه من غير ما يعرف إن أأ...

الوزير بحدة أشد:

- غيره

ساد صمت قليل قبل أن يقول أحد الضباط، والذى يبدو عليه أنه أصغرهم سنًا وأقلهم رتبة:

- إحنا لو قررنا نحمي جمال ونحافظ على القانون فى نفس الوقت يبقى بنضحك على نفسنا وهنضحّك الشعب علينا.

الوزير بتعالي:

- مش عاوز فلسفة.. قول الحل إللي عندك بسرعة.

الضابط:

- الحل هو القبض على المرتزقة الروسي وعلى كل أبناء سيد طحيمر وعلى رجالتهم وأعوانهم.

الوزير:

- بتهمة ايه؟

- بتهمة الجاسوسية..

صمت الجمع والضابط يواصل:

- السيناريو هو إننا ناخد إذن ضبط وإحضار من النيابة بتفتيش فيلا سيد طحيمر؛ لوصول معلومات تؤكد وجود مخدرات فى الفيلا هنقتحم الفيلا، ولكن مش هنلاقى مخدرات طبعًا، وأثناء التفتيش هنلاقى خرايط لمواقع عسكرية وحبر سري وبعض المعلومات والصور إللي كانوا هيمدُّوها لإسرائيل والحاجات دى ممكن نجهزها حالًا.. بعد كده نسلمهم للمخابرات على أساس إننا اكتشفناهم بالصدفة وهى تكمل دورها.. ونعطي أوامرنا لرؤساء تحرير الصحف بنشر خبر القبض على أولاد سيد طحيمر ومعاهم جاسوس روسي وينزل مانشيت صفحة أولى آل طحيمر يخونون الوطن، وبكده نكون قضينا على إمبراطوريتهم تمامًا وخلعناها من جدورها.

وزير الداخلية بذهول :

- الكلام ده كبير أوي، لكن.....

- عارف يا فندم، لكن دى أفضل فرصة للقضاء عليهم، وفى نفس الوقت يتم ترقية المقدم جمال لرتبة عقيد ويتولى منصب مأمور أى قسم شرطة بعيد عن القاهرة مؤقتًا.

صمت وزير الداخلية وهو ينظر لوجوه باقى الضباط، قبل أن يقول وهو ينهض:

- توكلنا على الله.. ابدأوا التنفيذ.

****

فور وصول العقيد جمال الصايغ إلى مدينة السلوم توجّه على الفور إلى قسم الشرطة، تابع سير العمل عن قرب وتعرف على ضباط القسم قبل أن يقرر الذهاب إلى الإستراحة الخاصة به.

اقترب أحد الضباط من العقيد جمال الصايغ قائلًا وهو يفرك كفيه ببعضهما:

- سيادة المأمور أنا جهزت لسيادتك إتنين عساكر، واحد للحراسة والثاني لخدمتك.

المأمور:

- متشكر جدًا... لكن عسكرى واحد كفاية للحراسة والخدمة.

ابتسم الضابط بخبث وقال:

- حبيت أعرّف سيادتك إن الإستراحة بعيدة أوي ومعزولة... على بعد اتناشر كيلو من هنا، ومكانها على الشط بين الصحرا والبحر، والمكان مقطوع.

المأمور:

- مفيش مشكلة طالما فيه عربية.

الضابط بخجل:

- الأفضل لسيادتك إنك تنزل في شقة الحاج عبد الموجود.

المأمور بهدوء:

- مين الحاج عبد الموجود ده؟

- دا واحد من أعيان البلد عنده أملاك كثيرة هنا.. وهو مخصّص شقة مفروشة لأى مأمور للقسم يشرفنا، المأمور إللي قبل سيادتك وإللي قبله وإللي قبله كانوا مقيمين فيها.

المأمور:

- بيأجّرها بكام الشقة دي ؟

- لأ هو مش بياخد فلوس، بس ....

قاطعه المأمور بحدة قائلًا:

- بس بياخد خدمات تانية مكان الفلوس... أو بمعنى أصح بيكسر عين المأمور.

ثم طرق المأمور مكتبه بشدة وهو يقول:

- والله أعلم بالخدمات دي من أي نوع... مخدرات ولا سلاح ولا إيه.

شعر الضابط بالضآلة من كلمات المأمور، والأخير يواصل:

- قولّهم يجهزوا العربية علشان أروح للاستراحة المعزولة يا حضرة الظابط.

أراد الضابط الخروج ولكن المأمور واصل حديثه:

- الظاهر إن الجرايد ما بتوصلش هنا.

الضابط:

- فعلًا.. لكن لو حضرتك عاوز الجراا.....

المأمور مواصلًا بحدة:

- ما هو الجرايد لو بتوصل هنا كنت قريت عن جمال الصايغ إللي الجرايد كانت بتكتب عنه الأسابيع إللي فاتت أكتر ما كانت بتكتب عن رئيس الجمهورية نفسه، وإزاي رفض رشاوي بالملايين من تجار المخدرات.

وصل الرد الناري ووصلت الإهانة للضابط فابتسم إبتسامة مصطنعة قبل أن يخرج قائلًا :

- حاضر.. هجهِّز العربية لسيادتك.

قبيل الغروب أدار العسكري المفتاح فإنفتح باب الإستراحة بعد عدة محاولات فاشلة بسبب طبقة الصدأ التى كست القفل، دخل أولًا ثم تبعه المأمور جمال الصايغ، الإستراحة عبارة عن مبنى صغير جدًا من دور واحد مطلي باللون الأصفر الباهت تحيطه الصحراء من ثلاث جوانب.. ثم البحر من الشمال وطريق ممهد صغير يخترق الصحراء الساكنة المرعبة.

بمجرد دخول المأمور أضاء العسكري مصباح كيروسين قديم يحمله ليكشف عن صالة صغيرة في نهايتها مطبخ بدون باب وإلى جواره حمام صغير له باب خشبي شبه مُهشَّم، في وسط الصالة باب يؤدي لغرفة النوم الوحيدة... خطى خطوتين بداخل الصالة متطلعًا إلى السقف بدهشة ثم أدار عينيه في جميع الأركان قبل أن يقول:

- مين إللي نضَّف الإستراحة دي؟

العسكري:

- محدش يا باشا.. دي مهجورة بقالها سنين، يمكن عشان محدش دخلها

من زمان ف باين إنها نضيفة.

المأمور :

- ولا حتى عنكبوت ولا حشرات ولا أي حاجة؟

العسكري بنفاق وبلاهة :

- يمكن علشان عرفوا إن سيادتك جاي فأأأ...

قطع العسكري عبارته وهو يرى المأمور يغادر الصالة إلى غرفة النوم، فسارع العسكري خلفه ليضئ له الغرفة التي كانت تحتوي على سرير عتيق جدًا إلى جواره منضدة خشبية صغيرة عليها محارة تستخدم كمطفأة سجائر ودولاب حديدى صغير في أحد الأركان، تطلع المأمور إلى أركان الحجرة وفكر قليلًا قبل أن يقول:

- إنت متأكد إن مفيش حد نضف الإستراحة النهاردة؟

- أنا المسئول عن الخدمات والنضافة، فلو فيه حد نضف الإستراحة المفروض يكون أنا... بس أنا أول مرة أدخل الإستراحة دي.. أنا كنت دايمًا بنضف الإستراحة التانية إللي في بيت الحاج عبد الموجود.

ابتسم المأمور بسخرية وقال:

- خلاص سيب المصباح على التربيزة وإطلع أقف برة.

- طيب أرتب لسيادتك الهدوم؟

أشار له المأمور بالنفي، فإنحنى برأسه قبل أن يخرج قائلًا :

- تحت أمرك يا فندم.

اتجه المأمور نحو الدولاب.. فتح حقيبته وراح يفرغ محتوياتها، بعد دقائق استمعت أذناه لصوت خطوات في الصالة، فقال بهدوء:

- يا عسكري .

لم يجبه أحد فرفع صوته:

- يا عسكرررري

طرق العسكري باب الإستراحة من الخارج، ثم دفع الباب ودخل قائلًا:

- نعم يا فندم؟

المأمور:

- إنت دخلت الإستراحة دلوقتي قبل ما أنادي عليك؟!!

العسكري:

- أبدًا يا فندم.. طالما طلعت برة مقدرش أدخل من غير ما تنادينى.

المأمور بقلق:

- إفتكرتك دخلت دورة المياه.

العسكري ببلاهة:

- إتصرّفت في الخلا.

- طيب إطلع دلوقتي وإوعى تنام.

- تمام يا فندم، صاحي للصبح.

خرج العسكري فواصل المأمور ترتيب ملابسه بثبات قبل أن يستمع

لصوت الخطوات مرة أخرى، ولكنها أعلى قليلًا.

خفق قلب المأمور، استدار للخلف فلم يجد أحد.. ولكنه شعر بقشعريرة رغم شجاعته عندما وجد دخان رفيع يتصاعد من المحارة!! تحسّس مسدسه، اقترب من المنضدة بقلق فوجد سيجارة مشتعلة بداخل المحارة.. دار جمال حول نفسه دورة كاملة.. لا يوجد غيره في الحجرة، حاول أن يتماسك قبل أن يصرخ مناديًا:

- يا عسكري..... يا عسكري

اندفع العسكري للداخل قائلًا بفزع :

- أوامرك يا فندم

أشار المأمور إلى المحارة قائلًا:

- إيه ده؟

العسكري ببلاهة:

- طفاية سجاير.

المأمور:

- وايه إللب فيها ده؟!
- سيجارة
- تصدق صح.. كويس إنك قولتلي إن اسمها سيجارة....

ثم صارخًا:

- مين إللي جاب السيجارة دي هنا؟

- مش عارف.. هو مش سيادتك إللي...

قاطعه المأمور:

- لأ أنا ما بدخَّنش...

صمت العسكري وتدلَّى فكه السفلى فى بلاهة قبل أن يشير إليه المأمور بالخروج.

لم تمر دقيقة حتى سمع المأمور صوت نفس الخطوات بالصالة، خرج من الحجرة إلى الصالة حاملًا المصباح ليجد رجل غريب الملامح يرتدي ملابس رثة، أشيب الشعر واللحية تجاوز الستين من عمره، ما تبقى من أسنانه أقل كثيراَ مما افتقده.. يجلس في أحد الأركان يحاول تهذيب لحيته الكثة بآلة حادة تشبه الخنجر.

وضع المأمور المصباح أرضًا، وقف على بعد مترين من الرجل، نظر له بحدة شديدة، ارتبك الرجل وهبّ واقفً ا وهو يرمق المأمور في قلق شديد وترقُّب إلى أن قال الأخير:

- مين إنت؟!

الرجل بدهشة:

- إنت شايفنى؟!!

لم يفهم المأمور... والرجل يواصل:

- أمرك غريب...... إنت شايفنى إزاي؟

- زي ما كل الناس بتشوفك

- لكن أنا مفيش حد بيشوفني، نادي على العسكرى كده وإنت تتأكد.

قبض المأمور على رقبته بكلتا يديه وهو يقول:

- أنا مش بحب المراوغة ولا بحب الهزار..... مين إنت؟ وعاوز ايه؟ لو كنت من رجالة سيد طحيمر قول.

أمسك الرجل بيديه التي تشبهان المخالب يدي المأمور وأبعدهما عن رقبته قائلًا:

- إرحل قبل شروق الشمس وإلا إنتظر عقابي.

ثم سار في الصالة بتفاخر وتعالي... نظر المأمور الذي أوشك قلبه على التوقف رعباَ إلى قدما الرجل اللتان تشبهان الحوافر وهما تطرقان الأرض، بينما ا نعكس ظله العملاق على الجدار فصار أكثر رعباَ.

****

١٢- عودة بركات بن موسى

انتهت صلاة الجمعة بمسجد القلعة.. جلس الغوري في موضعه وإلى جواره ابنه محمد ذو الثالثة عشر من عمره، وعدد من الأمراء كان أبرزهم الأمير طومان باي ابن شقيق السلطان والذى بدأ نجمه فى البزوغ لما عُرِفَ عنه من القوة والشجاعة ونصرته للحق وإلتزامه الديني الشديد..

اقترب ابن زنبل من السلطان هامسًا:

- الأسواق مزدحمة بالعامة، فهل يرى السلطان أن يتجول قليلًا بين الناس ليستمع إلى طلباتهم وشكواهم؟

أومأ السلطان برأسه بعلامة الإيجاب، صلى ركعتي السنة ثم نزل من القلعة بصحبة الأمراء والأعيان بينما تخلف عنهم ابنه محمد الذى صعد إلى القصر، وقف فى إحدى شرفاته ممسكًا بمرآة صغيرة دائرية الشكل، راح يعكس بواسطتها ضوء الشمس على إحدى الجدران ذات الظل وبالأسفل مجموعة من الخدم والعبيد يحاولون إمساك هذا الإنعكاس الوهمي على الجدار، ظل الأمير الصغير يضحك بشدة كلما إصطدم الخدم والعبيد ببعضهم وهم يحاولون الإمساك بالضوء المنعكس.. كانوا يشاركونه الضحك أيضًا من قلوبهم، وقد بدا لهم الأمر مسلِّيًا للغاية...

ضحكة الفقراء النابعة من القلب جميلة كضحكة الأطفال، على مقربة منهم كان واقفًا يراقب هذا اللهو، آخر الجسور للعبور مرة أخرى لقلب وعقل السلطان هو ابنه، اقترب ليشارك في الإمساك بالإنعكاس، راح يتبادل الضحك مع الجميع قبل أن يشير لمحمد بن الغوري مستأذنًا إياه.

صعد بركات بن موسى إلى القصر، جلس فى مقعد مواجه للأمير الصغير يفصلهما منضدة صغيرة عليها بعض الدمى، شاركه قليلًا فى بعض اللهو قبل

أن يقول بهدوء:

- إنت عارف إن أنا إللى رشَّحتك لمنصب شاد الشراب.....

بعفوية:

- لأ معرفش

ابتسم بركات غيظًا وهو يقول:

- وبفكر أقترح على السلطان تعيينك فى المنصب الجديد.

محمد بن الغوري وهو يلهو بقطعة من الذهب على هيئة سمكة:

- منصب إيه؟

بركات مبتسمًا:

- منصب نائب السلطان

صمت محمد بن الغوري وهو يواصل لهوه بالسمكة الذهبية، فأكمل بركات:

- إنت عارف إن مولانا السلطان الغوري سنَّه دلوقتي خمسة وستين سنة _ربنا يعطيه العمر الطويل_، لكن لكل أجل كتاب فلازم يتم تعيينك نائب للسلطان، من شان في المستقبل تكون إنت سلطان البلاد... أنا شايف إنك جدير بالمنصب ده بدل ما يحصل صراع بين الأمراء، خاصة ابن عمك طومان باي إللي أنا شايفه طمعان فى المنصب.

- لكن طومان باي طيب وبيحب الخير.

- هو بيدَّعي الطيبة وحب الخير لحد ما يبقى سلطان، ووقتها مش هيرحم حد.. حتى إنت.

ثم احتدَّت نبرة صوته وهو يقول:

- مولاي محمد بن الغوري سلطان المستقبل موافق على كلامي ولا له رأي تاني؟

- الرأي رأي والدي السلطان

بركات بلطف:

- وافق إنت الأول وأترك بركات يعرض الأمر على السلطا.

قالها بركات وتحرّك خلف الصبي في مشهد تمثيلي قائلًا:

- يا شعب مصر المحروسة نزفُّ لكم خبر تعيين الأمير محمد ابن سلطاننا الغوري نائبًا للسلطان.

وضع بركات يديه على كتفي الصبي من الخلف قائلًا:

- لم أرَ عظمة ووقار وجمال في أي إنسان كما أشاهدها الآن...

أثارت هذه الكلمات بعض غرور الصبي فألقى بالسمكة الذهبية على المنضدة وأمسك بمرآة صغيرة إلى جوارها ليشاهد نفسه، وفجأة!!!!

صرخة فزع قوية أطلقها ابن الغوري كتمها بركات مسرعًا بيده، جحظت عينا الأمير الصغير وهو ينظر إلى بركات برعب شديد عبر المرآة، تأكد أن ما يراه الآن ليس كابوسًا مخيفًا.. بل حقيقة ولكنها أسوأ من الكابوس، أمسك بركات برقبة الصبى ورفعه لأعلى وقد تحوّلت هيئته لأبشع صورة لشياطين الجحيم؛ وجه أسود غليظ يكسوه الشعر الغزير.. وكفين كالمخالب.. نابين بارزين لخارج الفم.. وعينان حمراوان كالدماء.. يتنفس فينفث دخانًا كثيفًا من أنفه،

لم يتحمل قلب الصغير ذلك.. فسقط صريعًا على الفور.

أيام معدودات بين وفاة الابنة والابن جعلت الغوري زاهدًا عن كل ملذَّات الحياة، لم يعد يحب زراعة الورود والياسمين كما كان، لم يعد يحب الشعر ولا الفنون، ا نعزل في القصر ضائق الصدر كمدًا، دموعه لا تتساقط، فقط يكتفي بالبكاء الصامت.. بكاء المُعذَّبين.. بكاء المنفطرة قلوبهم.... كإرتطام موج البحر على الصخور راحت ذكرياته تتلاطم مع حاضره، تذكر عندما كان طفلًا صغيرَ ا يلعب مع أخيه أمام منزلهما هناك بعيدًا جدًا جدًا بإحدى القرى ببلاد الجركس، يمرحان.. يضحكان.. متشابكي الأيدي.. يقترب منهما والدهما متجهِّم الوجه ومعه أحد أصدقائه، يشير والده نحوه فيشعر بالسعادة، يقترب صديق والده منه بخبث وفجأة يضع طوق حديدي حول رقبته وأغلال حديدية حول معصميه بينهما سلسلة حديدية غليظة.

ينظر إلى أبيه مذهولًا وهو يقبض ثمنه من هذا النخَّاس، يتعلَّق أخيه به ويتوسّل للنخاس أن يأخذه معه، يبكي وهو ينظر لأخيه نظرات يعلم أنها الأخيرة، يجذبه النخاس جذباً نحو الغرب، يطالع مشهد غروب الشمس فى ألم، ويذهب ولا يعود.

كم كانت قاسية تلك الذكريات!، والأقسى منها هذا الحاضر المؤلم.

يستغل بركات بن موسى عزلة السلطان ليقترب منه مرة أخرى مواسياَ ‘ياه برفق مصطنع، ثم يعود فجأة مقرباً من السلطان!!

تتعاقب الأحداث السياسية مسرعة.. يخرج الغوري من عزلته محافظًا على سكينته، يعطي الأمان للأمير سيباي أمير الشام المتمرد فيرسل له منديل السلطان أن أحضر ولا خوف عليك، يعفو عنه ويولّيه منصب أمير السلاح ثم نائب الشام...

تمر الشهور، يشهد على عرس ابن شقيقه الأمير طومان باي الذي كان يرى فيه الغوري صورة شقيقه التى لا تفارقه أبدًا.

تأتي الأخبار من الصعيد بعلو شأن المهدي، وهو رجل أشتهر بالسحر.. له مقدرة أن يجعل القطط والكلاب يتحدَّثان مثل البشر، ويقرأ الطالع، ويعرف جميع الخبايا عن طريق عملة ذهبية يضعها في قطعة من الصوف فتُظهِر له كل الأسرار، هكذا وصلت الأخبار للغوري فإستدعى المهدي للقلعة ليرى منه ما سمعه عنه من العجائب...

رفيع، متوسط الطول، أسمر اللون.. دخل المهدي إلى القلعة ألقى التحية بيده فقط على السلطان وحاشيته قبل أن يتحدث عن نفسه في فخر شديد بأنه صديق لكل ملوك الجن وأنهم يخبرونه بكل الأسرار، وقف فى الساحة يتحدث مع شخص خفي، قبل أن يقول بهدوء:

- ملك ملوك الجن يلقي التحية على السلطان الغوري.

ابتسم السلطان وردَّ التحية في فخر، اقترب الساحر من السلطان وهو يرفع يديه الخاويتين إلى أعلى عامدًا أن يرى الجميع أنها فارغة، ثم مدَّ يده للأمام بقطعة من السكر النبات التى ظهرت فى يده فجأة، قدَّمها للسلطان قائلًا:

- ملك ملوك الجان أرسل قطعة من السكر النبات لملك ملوك الأرض دليل على محبته.. ويخبرك أن قطعة السكر هذه ستمنحك قوة عظيمة فى جسدك فور تناولها.

مدَّ الغوري يده وأمسك بقطعة السكر في رضا تام قائلًا:

- كل الشكر لملك الجان على هديته.

رفع يده نحو فمه المفتوح، أوشك على إلقاءها بداخله، ولكن فجأة جاء صوت يقول:

- لو يسمح لي السلطان..

صمت شديد يسقط على المكان فجأة، فلا تسمع حتى الأنفاس، يقترب ابن زنبل الذي كان يشاهد العرض منذ بدايته من السلطان، ينتزع قطعة السكر من بين يديه ويستدير قائلًا للساحر وهو يناوله إياها:

- قطعة السكر دي هتاكلها إنت دلوقتي.

زاغت عينا الساحر وبدا عليه الإرتباك، قبل أن يقول:

- لكن دي هدية من ملك ملوك الجن إلى ملك ملوك الإنس.

ابن زنبل بسخرية:

- وإحنا رفضنا الهدية.

بخوف:

- الأمر أمر مولانا السلطان

ابن زنبل بحزم:

- يللا كُل قطعة السكر.

ارتبك الساحر وهو يرى نظرات الغضب في عين الغوري الذي فطن إلى المؤامرة..

انهار الساحر باكيًا طالبًا من السلطان الأمان، إلا أن الأخير يرفض ويأمر بقتله.

****

فاروق هو عبد أهداه الغوري لإبن زنبل، إلا أن الأخير أعتقه وأعطاه مبلغ كبير من المال يعينه على مصاعب الحياة، كان شديد الإخلاص لإبن زنبل وعلى استعداد لأن يفديه بحياته، وافق راضياَ على القيام بدور إنسان التجارب، هو على يقين أن سيده السابق لن يضره... جلس فاروق في دار ابن زنبل مبتسماً محاولًا إخفاء توتره، ا قترب صاحب الدار منه وناوله كوباً صغير به سائل شفَّاف كالماء:

- إتفضل يا فاروق.. سمِّي و إشرب.

أمسك فاروق الكوب بيد مرتجفه مترددة وابن زنبل يقول:

- ده مشروب مكّون من خلاصة بعض الزهور والنباتات البرية، ومزيج من عسل النحل وبعض التوابل الهندية.

كان فاروق قد ابتلع المشروب فقطع ابن زنبل جملته وانتظر لبعض الوقت، قبل أن يقول بقلق:

- بماذا تشعر؟

فاروق بهدوء:

- الطعم لاذع، لكنه جميل.
- أنا بسألك عن شعورك إنت بعد ما شربت السائل.
- الحمد لله بخير.

انتظر ابن زنبل لبعض الوقت وهو يُحدِّ ق فى فاروق بشدة ثم راح يُقلِّب في دفاتره قبل أن يطرق الأرض بقدمه في عصبية محدِّثًا نفسه:

- خطأ جديد من أخطاءك يا ابن زنبل..... أين الفجوة؟!! لا أعلم

خمس دنانير ذهبية نقدها ابن زنبل لفاروق الذى بدا سعيدًا جدًا وهو يغادر الدار، أغلق ابن زنبل الباب وهمّ بالرجوع لأوراقه وأبحاثه في نفس الوقت الذي استمع فيه لصوت طرقات قوية، ففتح الباب على الفور ليجد بركات ابن موسى يبتسم إبتسامة مرعبة قابضًا على عصا صغيرة بيمناه، كالعادة دلف بركات إلى داخل الدار دون إستئذان.. راح ينظر إلى الأواني والزجاجات المملوءة بالسوائل بدهشة، أمسك ببعضها وتشمّمه في فضول.

قلَّب بعض النبات والزهور والحشائش التي تملأ الحجرة ثم أمسك بأحد الكتب وقرأ عنوانه بصوت مرتفع:

- المقالات في حل المشكلات.

أخد يقلب بعض الصفحات فثارت حمية ابن زنبل وانتابته شجاعة مفاجئة، فاندفع نحو بركات وجذب الكتاب من بين يديه قائلًا:

- إيه سبب زيارتك المفاجأة؟

بركات بهدوء:

- بيعجبني فيك إنك بتدخل في الموضوع على طول.. دا غير إعجابي طبعًا بقوتك في قراءة الطالع ومعرفة الغيب.. صحيح إنت مش قادر تعرف أنا مين لحد دلوقتي، لكني ألتمس لك العذر.. فأنا أقوى وأغرب ممّا تتخيل.

تزدادت ضربات قلب ابن زنبل وعاوده خوفه مرة أخرى وهو ما شعر به بركات، قال هذا الأخير:

- الأمير طومان باي.

صمت ابن زنبل بما معناه أكمل، فواصل بركات:

- مين هو؟

ابن زنبل بحدّة:

- كلنا عارفين إنه الدوادار الجديد ابن أخو السلطان و....

قاطعه بركات قائلًا:

- أنا مش عاوز أسمع المعلومات إللى العامة فى الشارع عارفينها.

- أومال عاوز تعرف ايه؟

- عاوز أعرف سبب قوته... الطاقة الروحانية إللي بداخله جاية منين؟ وسببها إيه؟

صمت ابن زنبل، فواصل بركات وهو يلوِّح بسبابته في وجهه:

- إنت قوتك في رمالك وعلم الفلك والتنجيم. وأنا قوتي فى طبيعتي المختلفة عنكم... قوة طومان باي مصدرها إيه؟!

ا بن زنبل بهدوء وكأنَّه يستفز بركات:

- مصدرها شدة إيمانه بالله وقربه منه ... عنده نزعه صوفية صافية نادرًا ما تكون في أحد... ففي الوقت إللي الأمراء بيتقرّبوا من الصوفين والمشايخ والعلماء بإطعامهم أو إعطاءهم الهدايا والهبات، تلاقي طومان باي بيتقرب من ربنا بأعماله الصالحة وحبه للخير ومساعدة الفقراء وإطعام المساكين.

****



١٣- مروا من هنا

كانت هناك جنازة مهيبة تتجه نحو المقابر يتقدمها وزير الداخلية وعدد كبير من قيادات الشرطة، فالمرحوم جمال الصايغ كان من أكفأ الضباط وأشدهم أمانة واخلاص فى العمل، شعور بالحزن والندم والإنكسار يحيط بجميع المشيعين . ترددت عبارة " أ بناء سيد طحيمر " كثيراَ بينهم .

عند منتصف الليل كان لزيدان حديث داخل المقبرة مع المرحوم جمال الصايغ الذى راح يسرد بهدوء بلغة عربية فصحى:

- تعالت أنفاسي وتسارعت دقات قلبي حتى أوشكت على فقدان الوعي، إلا إنني تماسكت حاولت الصراخ ولكن جفاف حلقي حال دون ذلك.. بهدوء سار ذلك الشئ لداخل الحجرة فتناول سيجارته من المطفأة القوقعة ثم عاد للصالة مرة أخرى وجلس في أحد الأركان ينفث سيجارته بهدوء، أمسكت مسدسي ووجهته نحوه فوجدته يهذب لحيته بمشط صغير وهو ينظر إلى مرآة صغيرة جدًا، قلت بعصبية محاولًا الثبات وإثبات شجاعتى:

- يبدو أنك على موعد غرامي اليوم مع غولة من تلك الغيلان التى تقطن الصحراء ويبدو أن عشاءك لن يخرج عن طفل صغير ضل الطريق لمنزله أو تاجر إبل تاه في الصحراء.

فقال بسخرية:

- أو مأمور قسم شرطة حديث ساقه حظه العاثر لهذه المنطقة.

ثم قال بهدوء:

- إطمئن فأنا لا أموت بالرصاص.

استجمعت قواي وقلت بتحدي:

- حتى وإن كانت الرصاصة نحاسية.

بدا القلق على وجهه فجأة مما جعلني أشعر بالطمأنينة وأنا أقول:

- الطلقات النحاسية ومحلول الماء والملح والمسك والخل هم أسلحتى إذا ما تصادفت بأمثالك لا تظن أنها المرة الأولى لي فى التعامل مخلوقات أمثالك.

ثم قلت بحدة من لا يهاب الموقف:

- مَن أنت؟! ومِن أي المخلوقات؟!

الكائن بهدوء:

- أنا زائر ... اسمي زائر، أعيش في هذا المنزل مع زوجتي ولا أسمح لأحد أن يشاركني في منزلي هذا.

- وأين زوجتك هذه؟

- بالخارج... إنتظر سأستدعيها.

همّ الكائن بالتوجه نحو الباب، ولكنني أوقفته بحدة وسبابتي على زناد مسدسي فتوقف مكانه منادياً بصوته الأجش:

- سكاديا... سكاديااااا.

فتح الباب من الخارج بهدوء لتدخل سكاديا.... توقعت فور دخولها أنني سأرى لأول مرة أمنا الغولة التي سمعنا عنها كثيرة أو أنني سأرى إمرأة عجوز شمطاء ذات حوافر وأنياب كبيرة تتحدث كالأفعى وتسير كالحلزون وتغير جلدها كالحرباء إلا أنني فوجئت بشابة عشرينية.. رقيقة الملامح..

هادئة.. فائقة الجمال.. ترتدي فستان أبيض يشبه فساتين الزفاف تدخل بهدوء وتقول بإستحياء وهي تنظر إلى الأرض:

- نعم يا زوجي العزيز

أصبح لا وقت لدي للتعجب، أشرت لها بالوقف إلى جواره لكنها لم تفعل إلا عندما أمرها هو بذلك فقلت بإستهزاء:

- زوجة مطيعة

ثم نظرت لوجهها مليًا وأنا أقول:

- وجميلة أيضًا

هنا وجدت عينا زائر تتحول للون الدم.. بدا عليه الغضب الشديد لدرجة أنه راح ينفث دخان من أنفه أقسم أن بعض الشرر الناري كان يتطاير مع هذا الدخان، وجه سبابته نحوي قائلًا:

- إسمع يا هذا.. لقد سمحت لك بالبقاء هنا الليلة فقط، لذا فعند الصباح يجب أن ترحل لإنني لو عدت مساء الغد ووجدتك سأقتلك.

- سنرى مَن الذى سوف يرحل

كنت أقسمت بالفعل ألا أبيت في هذا المنزل ليلة أخرى ولا أدخله ثانياَ ما حييت، ولكن من خبرتي في التعامل مع هذا المخلوقات اتخذت موقف القوة والتحدي،

ناديت على الحرس:

- يا عسكري..... يا عسكري

ولكنه لم يجبني فناديت بصوت أكثر حدة دون إجابة.. نظرت إلى زوجة الكائن قائلًا:

- أين الرجل؟

نظرت إلى زوجها فأشار لها بالحديث فقالت بهدوء:

- كان يجلس بالخارج ولكنه عندما رآني قادمة من ناحية البحر لم يتحمل قلبه فمات، ولكنني أقسم لك أنني لم أؤذيه.

ضاق صدري كمدًا وأصبحت أتنفس بصعوبة وأنا أقول:

- أيّ الكائنات أنتم؟!
- نحن مخلوقان
- مخلوقان من أي نوع؟!!
- مثلك تمامًا.....

قالها الكائن بهدوء وهو يرمق زوجته بطرف عينه... لاحظت وقتها أنها أرادت أن تقول شيئًا، ولكن نظرته لها جعلتها تصمت مما جعلني أعي أنه لن يصدق حديثه معي لذا فقد قررت تغيير الحوار أو بالأدق تغيير صيغة الإستجواب كما نفعل مع المتهمين الذين يصرون على الإنكار:

- أنا إنسان من نسل آدم، فهل أنت مثلي أم إنك جان مثلك مثل إبليس؟

عاد الغضب مرة أخرى لوجهه.. فإحمرت عيناه وتطاير الدخان والشرر من أنفه، فعلمت أنني نجحت في إستفزازه فواصلت:

- أنا جدي آدم الكريم الذي ولد بالجنة وعاش بالأرض ثم عاد للجنة... أما إبليس فهو من الجن وقد ولد بالأرض وعاش قليلًا بالجنة ثم سيعود

لجهنم.

ا زداد المخلوق إشتياطًا، هممت أن أزيد ولكنه أوقفني قائلًا:

- أخبرتك أيها الرجل أن عليك أن ترحل في الصباح وإلا قتلتك.

نظرت له زوجته الجميلة نظرة اضطراب وخوف وهو ما دعاني لأن أتساءل موجهًا سؤالي للزوجة:

- هل أنت من نفس جنس هذا المخلوق أيتها الجميلة؟ أنا لا أعلم كيف تكون هذه الملاك زوجة لهذا المخلوق البشع!!

هنا فوجئت بيد هذا الكائن تمسك مسدسي، متى قفز على يدي، كيف أمسك بفوهة مسدسي وضغط عليه فإعتصره كأنه مسدس ورقي؟!! وقبل أن أفيق من الصدمة كانت لطمة قوية بيساره تهوي على وجهي فإرتطمت بالحائط فاقدا للوعي..

أفقت لأجد يداي مربوطتان من الخلف بحبل شديد الخشونة ممتد إلى ساقاي بنفس القوة ثم حول رقبتي، ولكن برفق.... بمجرد إفاقتي إستعدت وعيي سريعًا تذكرت كل شئ على الفور، وجدت الزوجة تجلس أمامي في هدوء كفراشة حطَّت على زهرة بيضاء كان ضوء النهار قد حل بالمكان فوضحت الرؤية تمامًا.

قالت برقة شديدة:

- لماذا لم ترحل على الفور؟... لماذا تحديت زائر؟

الفضول جعلني كمدمني المخدرات الذين طالما تعاملت معهم كنت أريد أن أعرف ماهية هذه المخلوقات الغريبة فسألتها:

- مِن أنتي؟

ردت بتوتر شديد:

- زائر سوف يعود في المساء. ويجب أن تهرب على الفور وإلا سيقتلك، سوف أحل وثاقك وعليك أن تفر من هنا حالًا.

- حسنا سأفعل ولكن مَن أنتي...؟ ومَن زائر هذا....؟ مِن أي المخلوقات أنتم؟

كانت تجد صعوبة شديدة في فك قيودي وهي تقول:

- لا يهم مَن نحن ... المهم إنك يجب أن تفر من هنا ولا تعود أبدًا ولا تخبر أحدًا بما رأيته أو سمعته هنا.. فقط حذر الجميع من هذا المكان.

- لماذا؟!!

- لا تكن كثير السؤال.

ثم قامت واتجهت نحو المطبخ وعادت بسكين صغير سهل لها مهمة فك الرباط الوثيق حول معصمي، قالت:

- لقد ألقى زائر بالسيارة في البحر وكذلك فعل بجثة حارسك.... الطريق بعيد جدًا ولكنه سهل.... عليك أن تسلك محاذاة الشاطي نحو اليمين حتى تجد وحدة عسكرية، إلجأ إليها فتكون نجوت و .....

هنا ظهرت من ناحية المطبخ قطة سوداء هزيلة للغاية قبيحة الشكل تكاد تستطيع السير، نظرت القطة لسكاديا بغضب شديد قبل أن تتجه نحو الباب بهدوء، اندفعت إسكاديا نحو المطبخ بسرعة وعادت ممسكة بزجاجة قالت وهي تشيح بها:

- لو أخبرتي شقيقك زائر بما تمّ سوف أحرق جسمك بهذا الخل.

انتفضت القطة فور سماعها للعبارة الأخيرة، اتجهت نحو سكاديا وراحت تتمسح في قدميها، بينما وقفت الأخيرة بثبات وفي عينيها نظرة تحدي قبل أن تركل القطة فتزيحها جانباَ.

قالت سكاديا:

- فلتهرب الآن من زائر ومن سجنه المميت... إهرب الآن لإنه إن لم يقتلك فسوف يحبسك في منفاه هذا.

قلت بتحدي:

- ولكنني لن أرحل حتى أفهم ما يدور هنا... مَن أنتم وماذا يحدث هنا؟

تنهدت سكاديا بغضب زادها جمالًا وقالت:

- أنا لست سكاديا.... أنا شيمـ......

وهنا قاطعتها القطة بمواء شديد مرعب جعلها تتوقف وتقول لى بعصبية:

- أخبرتك أنه لا وقت لذلك... هيا إهرب الآن ولا تضيع الوقت.

كانت القطة تواصل مواءها المُشين، فنزعت سكاديا غطاء زجاجة الخل قائلة:

- لا شأن لكي بذلك يا نوال... أنتي تعلمين كم الظلم الذي تعرضت له من شقيقك زائر.

واصلت القطة مواءها بعصبية فردت سكاديا شبه باكية وكأنها تعرف لغتها:

- نعم الإنس قبل الجن ظلموني... لذلك لا أحب الظلم فلندع هذا الرجل يرحل بسلام.

كنت قد أنصت لحوارهما لعلي أبلغ معلومة ما، عندما إلتفتت لي سكاديا قائلة بتأثر:

- أنا شيماء زوجة زائر ولكنه يفضل اسم سكاديا وهذه شقيقته نوال وهي أقرب صديقة لي هنا، ولكنها لا تخفي أي سر عن شقيقها الذي تحبه...

ثم قالت وهي تمسح دموعها:

- والآن فلترحل أيها الغريب عن عالمنا.... فأنت لا طاقة لك بزائر ولا بجيشه، إرحل ولا تعد إلى هنا مرة أخرى، إرحل و إنسَ ما رأيته أو سمعته هنا.

سحبت مقعدًا وجلست عليه واضعًا ساقًا فوق أخرى قائلًا:

- لن أرحل حتى أتعرف على أسرتكم الكريمة.. مَن أنتي؟ ومَن زائر؟ ومن هذه الهرة نوال؟ ... أخبريني وسوف أرحل بهدوء بعد ذلك... أمامنا حتى المغرب حتى يحضر ذلك الشيطان ونحن لا نزال في الصباح.

لطمت سكاديا خديها الرقيقين، وقالت:

- هل ترغب في الموت يا هذا....؟ إن كنت ترغب في الموت فيمكنني أنا ونوال أن نقضي عليك حالًا.

تحفزت نوال فور سماعها العبارة الأخيرة فتقوّس ظهرها وإنتفض شعرها واقفًا كالمسامير... إلا أن سكاديا نهرتها قائلة:

- لا تأخذي حديثي بجدية أيتها الغبية.....

هنا تعالي إلى أسماعنا صوت بكاء طفل صغير قادمًا من الحمام.... نظرت سكاديا إلى نوال التي اعتدلت في وقفتها ومرت ثوان وصوت صرخات الطفل تتعالى برعب إلى أن قالت سكاديا:

- ابنك يبكي يانوال ... ألم تسمعي صراخه...؟ أم أن التلصص على حديثنا أهم من ابنك؟

سارت نوال بهدوء نحو الحمام، فتابعتها سكاديا بنظرها حتى إذا ما إبتعدت فمالت عليَ قائلة:

- سأخبرك بكل شئ.. أنا إنسية مثلك.

ثم تنهّدت بقوة فأخرجت زفيرًا قويّا، بدت وكأنها تحمل أحزان الكوكب كله وحدها وهى تواصل:

- أنا اسمى شيماء عبد الله الحسن اكتشفت يوم فرحى إن زوجى من الجن وليس من الإنس، فوقعت من الصدمة ميتة ثم تعرضت جثتي لإهانة بالغة فى قبرها، استيقظت من مماتى لا أعلم كيف؟! هربت من المقبرة فوجدت زوجي ينتظرنى عند بوابة المقابر فجاء بى إلى هنا.

قلت لها بعصبية:

- لا أفهم شيئًا ممّا تقولين.

فقالت:

- حسنا إهرب ولا داعي للحديث أكثر من ذلك.

فجأة انشقت الأرض والسقف والجدار وخرجت آلاف الكائنات المرعبة التى راحت تفتك بي غير عابئة بصراخات وتوسلات شيماء لهم بالتوقف.

****



١٤

- طومان باي

سيعجز خيال المؤلفين عن وصف بطل أسطوري تحققت فيه كل الصفات الحميدة التي اتصف بها طومان باي... شاب قوي الجسد.. مفتول العضلات، ذو هيبة.. ممشوق القوام، أبيض مستدير الوجه كالبدر، وسامته تضفي سعادة في المكان. لَين القلب رقيق للغاية مع العامة والفقراء ومع الأمراء والمماليك، عفي اللسان طاهر السريرة عندما يشد قامته على حصانه يخيل للجميع أنه أتى من عالم آخر مسحور، يسير بين العامة فيلتف حوله الأطفال والصبية يصافحونه بود فيوزع عليهم الحلوى... يمتلك من الذكاء والفطنة وحسن التصرف ما لم يمتلكه أحد من المماليك الجراكسة... له نزعة صوفية خاصة تشعرك وكأنه أحد الأولياء.

رأى الجميع كل هذه الصفات في الأمير طومان باي، بينما رأى فيه الغوري شئ آخر، رأى شقيقه الذي أفلت النخاس قبضة يدهما قديماً وانتزع ضحكتهما إلى الأبد لم يكتب للغوري رؤية شقيقه مجدداً رؤي العين، ولكنه رآه في هذا الفتى.

إستغل الأمير طومان باي وفاة القاضي برهان الدين إبراهيم الدميري قاضي قضاة المالكية واصطحب السلطان بعد صلاة الجنازة إلى المقابر، وفور وصولهما نزلا وترجلا سوياً إلى أن وصلا لمقبرة الإمام الشافعي وهناك تصدق السلطان على الفقراء وقرأ الفاتحة، بعدها توجها لمقبرة الليث بن سعد وكرر الأمر، ثم جلس بين المقابر لفترة طويلة صامتًا يتأمّل ويتّعظ.

شعر الغوري أن روحه المزهقة منذ وفاة ابنه وابنته عادت له مرة أخرى، قرر التوجه إلى قبر السيدة نفيسة صلَّى العصر هناك وتصدَّق على بعض

الفقراء قبل أن يعود للقلعة ليجدها قد اشتعلت فجأة بثورة المماليك الجلبان الذين راحوا يعيثون فسادًا دون سبب!!

بدا التوتر والقلق على الأمراء والحراس، أغلق الجلبان أبواب القلعة وعزموا على خلع السلطان أو قتله.... استدعى الغوري طومان باي قائلًا:

- إضمن لي الخروج الآمن.

طومان باي بدهشة:

- الخروج من فين؟

الغوري بحدة:

- الخروج من القلعة والتنازل عن السلطنة.. أنا من البداية كنت رافضها، هتمسك بيها ليه دلوقتي...؟ شوفت منها إيه غير كل العلل.

طومان باي بهدوء:

- إنت ما إتنازلتش علشان مطالب الشعب المسكين، تقوم تتنازل علشان شوية مماليك جلبان ما يعرفوش إلا مصلحتهم وناسيين إن فيه شعب محتاج رعاية واهتمام أكثر منهم لأنهم أصحاب البلاد..؟ إثبت على العرش وسيبني أتعامل معاهم.

خرج طومان باي وسط إعتراضات الغوري إلى ساحة القلعة حاملًا سيفه بيمناه مشهراَ إياه للأعلى قال بصوته الجهير:

- مَن أراد بالسلطان سوء فليواجهني.

كرّرها ثلاث، ساد صمت غريب فجأة بعد الضجيج الذي ملأ جنبات القلعة، فلم يعد يسمع حتى الهمس!!!

فجأة تنصل كل مملوك من الآخر وإدَّعى أنه برئ ممّا حدث.. بهدوء انسحب المماليك وتسللوا عائدين إلى ثكناتهم خشية مواجهة طومان باي..

ومن إحدى شرفات القلعة وقف يراقب الأحداث، وفي داره ببركة الرملي انتفخ بركات بن موسى وإحمرت عيناه قبل أن يطرق الأرض بقدمه فإرتجت القاهرة إثر زلزال مفاجئ.

****

منتصف رمضان كان السلطان يجوب الأسواق وسط ترحيب من الناس والتجار عندما استوقفه أحد التجار صارخًا:

- المحتسب بركات ابن موسى ظلمني وأخد كل أموالي وتجارتي، بعد ما كنت أكبر تاجر غلال. منعني من التجارة وأعطى حق إحتكار الغلة لتاجر من أنصاره ولما إشتكيت أخد كل أموالي وحواصلي وداري، وأصبحت أنا وأولادى فى الشارع بنتسول الطعام.

ثم ارتفع صوت التاجر أكثر وهو يقول:

- إنصفني يا سلطان البلاد ورجع حقي المسلوب.

نظر السلطان لبركات بغضب في حين اتجه طومان باي نحوه وجذبه من قميصه قائلًا:

- رد للرجل أمواله وتجارته، فلا خير في وطن يفقر شعبه.

وفى اليوم التالي نادى المنادي:

" يا أهل مصر... أمر السلطان الغوري بعزل بركات ابن موسى من الحسبة وتعيين الجمالي يوسف البدري بدلًا منه"

راح الناس يهنِّئون بعضهم البعض برحيل بركات وارتفعت الأيادي بالدعاء للسلطان، ولكن حدث في اليوم الذى يليه أن شحّ القمح والدقيق فجأة، وكذلك شحّت جميع السلع الغذائية من البلاد وفسدت الخضر والفاكهة تحت يد التجار دون سبب معلوم، كما أصيبت الماشية والدواجن بمرض غريب فسقطت صريعة على الفور.... مجاعة أصابت البلاد في يوم وليلة.

ولأن أغلب الجرائم تولَّد من رحم الفقر فقد ازداد معدل الجرائم، فصارت السرقات تحدث يوميَا نهارًا جهارًا على مرأى من الجميع، أما القتل فحدِّث عنه ولا حرج.. كان يتم لأتفه الأسباب، خمسة رجال قتلوا بائع اللبن وقسموا اللبن بينهم، رجل قتل آخر ليسرق منه رغيفين خبز كان عائد بهما لأطفاله، رجل قتل امرأة ليسرق منها كيلة فول!!!!!

ما يزيد عن الشهر و البلاد تسير من سيئ جدًا للأسوأ جدًا والجرائم لا تزال تتواصل، ولكنها خرجت عن المألوف.. مزارع قتل زوجته وأبناءه الأربعة وألقى بجثثهم للكلاب!!! فران ألقى بأحد عماله في الفرن لنقص الوقود!!! عبد مزّق جثة سيده... إمرأة قتلت أبيها وانتزعت قلبه.... شاب فصل رأس أمه عن جسدها، أربع نسوة قطعن لسان جارتهن، رجل فقأ عينا بائع... ازدادت الجرائم بشكل مرعب، والأكثر رعباَ هو قسوتها ووحشيتها.

****

كان الغوري يغط في نوم هادئ عميق، فالخمسين حارس على باب حجرته تحت إمرة خمسة أمراء من الأمراء العشروات ما كانوا ليسمحوا ببعوضة

أن تنفذ للداخل، وبالرغم من ذلك استيقظ الغوري من سباته على تلك القبضة التي أمسكته من مجمع ثيابه ومن رقبته ورفعته لأعلى... كانت الصدمة شديدة فلم تسعفه أنفاسه للإستغاثة وقبضة يد قوية تضغط على حنجرته بشدة، ظن الغوري أن إحدى مؤامرت المماليك قد نجحت، ولكن عبر بصيص الضوء المتسلل للحجرة رأت عيناه ذلك الكائن ضخم الجثة الذي رفعه لأعلى بيد واحدة أشبه بالمخالب فألصقته بالجدار وتركت ساقاه معلقتان في الهواء، كائن بشع للغاية، هل هذا هو الغول الذي طالما استمع لحكايته من رواة القصص أم مارد من مردة الجن خرج من باطن الأرض ليبتلعه؟

أراد أن يصرخ أراد أن يستغيث ولكن الضغط كان قويّاً على حنجرته حتى خارت قواه، أوشك على الموت فإستسلم تماماً لمصيره المنتظر، اقترب الكائن من وجهه فشعر بأنفاسه الساخنة جدًا توشك أن تحرقه، فتح الكائن فمه ليتحدث فظهر نابين بارزين.. أوشك قلب الغوري على التوقف رعباَ.

عبارة واحدة سمعها الغوري قبل أن يفقد وعيه:

- بركات يرجع محتسب وإلا إنتظرني تاني.

****

لم يكن قرار ا لغورى عودة بركات بن موسى محتسباَ للبلاد فحسب، بل أضاف إليه عدة مناصب أخرى اكثر أهمية.

مندفعا دون إستئذان حاجب الحجاب دخل طومان باي ليقطع الحديث الجانبي الخافت الدائر بين السلطان وبركات.. نظر طومان باي بعصبية إلى بركات وهو يطرق الأرض بنصف قدمه الأمامى.. متكئ على كعبه، قبل أن يقول للسلطان بحدة:

- فاسد واحد فى السلطنة يهدم ما يفعله آلاف الشرفاء.. كيف سمحت بعودة المحتسب المرتشي وأنت تعلم ظلمه.

ارتبك الغوري وابتسم بركات بخبث وهو ينحني فى استخفاف قائلًا:

- سامح الله الأمير طومان باي.

الغوري:

- إنت مش شايف الأزمة إللي حصلت فى السلطنة بعد ما عزلته منها..؟ بركات بن موسى أفضل من تولي منصب المحتسب، وما يقدرش حد غيره يعمل إللي بيعمله.

طومان باي بحدة:

- أزمات هو إللي صنعها... إنت سبق ووعدتني توليني منصب المحتسب وأنا رفضت. دلوقتي بقولك أنا موافق على المنصب... إعزل الظالم الجالس إلى جوارك وأنا على إستعداد لمواجهة كل أزمات السلطنة.

أشاح الغوري بوجهه قبل أن يقول:

- مقدرش

جحظت عينا طومان باي من الرد الغريب، أراد التحدث ولكنه توقف فجأة وهو يرى القلق البادي على وجه الغوري وهو يختلس النظر لبركات بطرف عينه!!!

إذًا فهناك ما هو أقوى من الغوري في السلطنة!!

هناك شئ مجهول حدث جعل السلطان يتراجع عمّا اتفقا عليه...

١٥- حقيقة بركات

هناك سر لا يعلمه أحد، هناك لغز لن يحله سوى ذلك الرجل.

على باب داره وقف أحمد بن زنبل الرمّال ينتظر هذا الفارس القادم نحوه... بعد الترحاب الشديد وحفاوة الإستقبال النابعة من القلب أشار رب الدار لضيفه بالدخول، ولأن الحياء من صفات هذا الفارس طومان باي فقد تردد كثيراَ قبل الدخول وهو يصدر سعال مصطنع حتى يتوارى أهل الدار.

ابن زنبل مبتسمًا:

- إتفضل بالدخول.. أنا عايش لوحدي لا زوجة ولا أهل ولا خدم... فقط العلم والكتب والتجارب.

ابتسم طومان باي مع دخوله لردهة الدار قبل أن يشير له ابن زنبل بالدخول إلى غرفة جانبية، وقف مذهولًا للحظات بداخل هذه الحجرة الكبيرة جدًا جدًا التي تقع إلى يمين الردهة وتحتوي على عدة أشياء غريبة لم يرَها من قبل إسطوانات زجاجية متصلة. بعضها يشتعل أسفله اللهب والبعض الآخر أسفله ثلج، سوائل بداخل الزجاجات متفاوتة الألوان ما بين الأحمر والأزرق والبني، بعضها يحمل اللون الوردي والبعض الآخر شفاف اللون.. أبخرة عديدة تتصاعد من كل أسطوانة... بعض هذه الأبخرة ذات لون ما، والبعض الآخر باللون الأبيض.

العديد من المخطوطات القديمة المكتوبة على جلود الحيوانات مرصوصة فوق حامل خشبي، قرأ طومان باي كلمة " الجفر " على أحدها، الأزهار والنباتات ملقاة في كل أركان الحجرة، بعض الكتب يفوح منها رائحة

الحبر.. مما يبدو أن ابن زنبل هو كاتبها، عليها عناوين مثل:

" الذهب الإبريز المحرر في إقتفاء علم الرمل والأثر "

" المقالات في حل المشكلات "

" حاوي العجائب ومجمع الغرائب "

أفاق طومان باي من دهشته، وإلتفت نحو ابن زنبل قائلًا:

- لو طلبت منك تفيدني بعلمك... هتكون كريم ولا بخيل؟

ابن زنبل بهدوء:

- مانع العلم عاصي... لكن مش كل العلم، هناك علوم عدم تدريسها أفضل.

ابتسم طومان باي في وجه ابن زنبل المبتسم أيضًا.. فبديا وكأنهما لوحة جميلة، قبل أن يقول طومان باي بهدوء:

- مين هو بركات بن موسى؟! و إيه السر إللي وراه؟!

ذابت الإبتسامة من شفتي ابن زنبل، وسرت في جسده قشعريرة قوية.. ابتلع لعابه بصعوبة قبل أن يقول:

- إبعد عن بركات بن موسى... إحذر أن تعترض طريقه... إحذر أن تتحداه.

طومان باي بحدة:

- إيه السبب؟

إلتفت ابن زنبل حوله بقلق قبل أن يقول:

- مقدرش أقول السبب... إبعد عنه وخلاص.

ولكن ضربة قوية من يد طومان باي في صدر ابن زنبل ألصقته بالجدار قبل أن يستل طومان باي سيفه ويضعه على رقبته قائلًا بحدة:

- أنا من البداية عارف إن السر عندك... خوفك ورهبتك منه من ساعة ما ظهر في القلعة... نظرتك الحائرة... إيدك المرتعشة بمجرد ما بتشوفه.. كل ده كنت باخد بالي منه، حتى في إجتماعات السلطان القليلة إللي إنت حضرتها كنت بتترك كل شئ وتراقب ابن موسى... تتذكر يوم ما كنت أنا وأنت عند السلطان بنعزّيه في وفاة إبنه؟ يومها دخل حاجب الحجاب علشان يبلغ السلطان بحضور بركات بن موسى، وقتها ارتعشت إيدك وسقط منك كوب الماء فبلَّل ملابس السلطان يومها شوفت الرعب كله في عينيك.. كنت حاسس إنك تعرف حاجة ومش قادر تتكلم.. والنهاردة أنا شوفت الرعب ده في عين السلطان نفسه.... فيه إيه؟!! عاوز أعرف.

كانت قطرات العرق تسيل على جبهة ابن زنبل والأمير يواصل:

- إتكلم دلوقتي أفضل ما تتكلم بعدين ويكون الميعاد فات. إنطق تعرف إيه عن بركات بن موسى؟

يعلم ابن زنبل أن طومان باي لا يقتل ظلماً، لذا فقد واصل صمته بإطمئنان ... حدق طومان باي في عينيه كثيراَ قبل أن يتركه ويندفع نحو كتبه وتجاربه.. رفع سيفه لأعلى قائلًا بحدة:

- أمثالك من العلماء عندهم إستعداد للتضحية بحياتهم لكن بعلمهم لأ.. إيه رأيك لو شاهدت دلوقتي كل ده بيتحول لحطام؟

استمر الصمت من ابن زنبل، فترك له طومان باي وقتًا لعله يخرج من

صمته، وعندما لم يفعل أطاح طومان باي بأول قارورة قائلًا:

- ينسفها ربي نسفًا

صرخ ابن زنبل شبه باكيًا خارجًا عن صمته:

- هتحطم الشئ الوحيد القادر على التصدي لبركات ابن موسى.

خفض طومان باي سيفه قائلًا بهدوء:

- يعني الأشياء دي تقدر تتصدَّى لبركات وطومان باي ما يقدرش؟

اقترب طومان باي من ابن زنبل.. ربّت على كتفه بهدوء وأمسك كفه بقوة قائلًا:

- قول إللي عندك من أسرار... وأوعدك إن ده هيكون سر بيننا ومحدش هيعرف إنك قولتلي حاجة.

نفس عميق جدًا من ابن زنبل وكأنه يزيح همومًا كامدة على صدره، أعقبه قوله:

- أنا لا أثق في أحد مثلما أثق في الأمير طومان باي... ولكن خشيتي عليك هي ما تمنعني عن مصارحتك بالأمر...

صمت طومان باي وحدق في عين ابن زنبل، والأخير يواصل:

- إحنا عايشين في كابوس... أنا الوحيد إللي شوفت الكابوس ده وعرفته..

بهدوء ملوِّحًا بسبابته:

- تقصد بركات ابن موسى ... صح؟

زفر ابن زنبل وقال:

- نعم هو......... بركات بن موسى السامري

انتفض طومان باي متسائلًا:

- ابن مين؟!!

بهدوء:

- ابن موسى السامري إللي مرد من بني إسرائيل.. تذكر قصته التي حكاها لنا الشيخ أبو السعود.

تدلَّى الفك السفلي لطومان باي وجحظت عيناه في غير إستيعاب، وابن زنبل يواصل بأداء شبه استعراضي:

- سبحان الله خالق السموات وخالق الأرض وخالق ما بينهما. سبحان الله خالق كائنات بتعيش في البر، وكائنات بتعيش في البحر، وكائنات بتعيش في البر والبحر .. سبحان الله خالق الإنس وخالق الجن وخالق كائنات مزيج من الإنس والجن.

كان ابن زنبل يسرد لطومان باي مستخدمًا جميع أطرافه وحواسه كعرض مسرحي متحدثًا باللغة العربية الممزوجة بالعامية، كما جرت العادة عند الحديث في أمور الدين:

- البداية كانت عندما ذهب سيدنا موسى عليه السلام إلى جبل الطور تنفيذًا للأمر الإلهي، ثم عاد ليجد موسى السامري قد صنع عجلًا من الذهب لبني إسرائيل وعبدوه.

طومان باي بهدوء:

- أنا عارف القصة دي، ومرة سألت الشيخ أبو السعود إزاي القوم المؤمنين عبدوا العجل بسهولة... طب ما كانوا يعبدوا فرعون من البداية أفضل لهم من القتل والتعذيب والتهجير.

ابتسم ابن زنبل قائلًا:

- ثقتي في ذكاء الأمير طومان باي في محلها...

ثم واصل بنفس اللهجة الدينية:

- فرعون كان يصنع المعجزات بواسطة سحرته، ثم جاء موسى بمعجزات إلهية أكبر رآها بنو إسرائيل وكان آخرها ا نشقاق البحر أمام أعينهم جميعًا، أما معجزة موسى السامري فكانت بنفس قوة معجزات موسى لأن العجل لم يكن مجرد عجلًا من ذهب، فهذا ليس مبرر لبني إسرائيل لعبادته... ولكن المعجزة أن هذا العجل الذهبي دبّت به الروح بالفعل، لقد استطاع موسى السامري أن يستغل قوى خارقة وهبها الله له في خلق هذا العجل.

طومان باي بحدة:

- إستغفر ربك يا ابن زنبل... إيه إللي إنت بتقوله؟!

وضع راحته على جبهته قليلًا قبل أن يقول:

- القوى المطلقة لله سبحانه وتعالى.. ولكنه منح بعضًا منها لبعض خلقه. لقد منح الله موسى السامري رؤية المخلوقات الغير مرئية كالملائكة والجن والشياطين كما منحه الكثير من العلم الإلهي، بالإضافة إلى الخلود في الدنيا، وهي ذات المنح التي وهبها الله للرجل الصالح الخضر عليه السلام فى ولكن أحدهما استعملها في الخير والآخر استعملها في الشر...

فرك ابن زنبل كفَّاه قائلًا:

- بإستخدام بعض الأعشاب التي وطأها جبريل عليه السلام توصل السامري لسر الحياة والخلود فصنع من هذه الأعشاب إكسير الروح، قام بخلط هذا الإكسير بالذهب السائل وهو يصنع منه العجل... وما أن انتهى حتى دبت الروح في العجل فأصدر خوارًا قويًا... ولإن المعجزة بدأت وانتهت أمام أعين بني إسرائيل ولأنهم شاهدوا بأعينهم صناعة العجل، ثم استمعوا لصوته وشاهدوا حركته.. لذا فقد سجدوا له وعبدوه عن اقتناع منهم... وعندما عاد موسى ووجد هذا الأمر المقيت قام بالإعتداء بالضرب على أخيه سيدنا هارون ووصل به الأمر إلى أن جذبه من لحيته ومن رأسه على مشهد ومرأى من باقي القوم، بالرغم من أن هارون أكبر سنًّا من موسى. كان موسى شديد العصبية لدرجة أنه حطم الألواح التي بها الأوامر الربانية . هل تتخيل أن يصدر ذلك من نبي؟!
لقد فعل نبي الله موسى ذلك، راح يضرب عبدة العجل من بني إسرائيل قبل أن يقوم بحمل العجل الذهبي وتحطيمه بالجبل ثم حرقه ونثر رماده في البحر...

وعندما شاهد السامري أمامه انطلق نحوه ليقتله، فلما اقترب منه فوجئ بوجود حاجز غير مرئي بينه وبين السامري كما لو كان جدار سميك... حاول موسى أكثر من مرة الوصول إلى موسى السامري الواقف أمامه ولكن هذا الحاجز منعه فعلم موسى أن لا أحد يستطيع مسّ السامري بسوء فتركه مرغمًا.

اتجه ابن زنبل نحو أحد المخطوطات، فقال وهو ينظر إلى المدوّن بها قبل أن يواصل:

- غادر موسى السامري القوم وسار بمحاذاة الساحل نحو الشمال.. حتى وصل إلى قرية صغيرة، كان الليل قد حل فلا تكاد تسمع الأنفاس سار في جنبات القرية قليلًا وسط الظلام الدامس، فوجد امرأة شابة تصرخ وتحاول مغادرة منزلها، وزوجها يجذبها ويمنعها بقوة قائلًا لقد انتهى أمره، لو ذهبتي لن تعودي أنتى أيضًا. تركهما وواصل سيره حتى خرج من القرية، فجأة استمعت أذناه لصوت صرخات مكتومة قادمة من ناحية أحد الجبال الصخرية المجاورة، اتجه نحو الصوت، في العراء وسط الظلام الشديد سار نحو الجبل صمت تام سوى من صرخات طفل صغير يتردد صداها من الحين للآخر، اقترب بهدوء وثبات ليجد آلاف من الجن يحيطيون بالجبل، اخترق صفوفهم بشجاعة فبدا عليهم الخوف والقلق، ظهر أمامه كهف أسفل الجبل يحرسه سبعة من الجن كان حجمهم أكبر كثيراَ ممّن يحاصرون الجبل ويبدو عليهم الغضب الشديد، صعد نحو الكهف فرفع الحراس السبعة رماحهم في وضع الإستعداد.. لم يخشهم واستمر في التقدم، ألقى أحدهم رمحه نحوه وألقى الآخرين بعده... ولكن الرماح سقطت قبل أن تصل إليه... ارتبك الحراس السبعة عندما وصل لمدخل الكهف، رمقهم في غضب فتراجعوا بخوف، وبالداخل وجد إمرأة دميمة الوجه والهيئة تحدثت فبدا صوتها كصرير باب يغلق ببطء وهي تقول:

- مَن أنت أيها الميت؟

فقال:

- أنا موسى السامري يا عُنقا.

بدهشة قالت:

- أو تعرف اسمي أيضًا..؟ من أنت أيها الميت؟ تكلم بسرعة، فلسوف

يقتلك حراسي الآن.

ابتسم قائلًا:

- إن موسى بن عمران لم يستطع قتلي، فهل سيقتلني حراسك الضعفاء؟

فكرت قليلًا قبل أن تقول:

- أأنت صاحب العجل الذهبي ...؟

- نعم

ضحكت قائلة:

- كم أنا محظوظة... تفضل أيها الحي الخالد.

كان طومان باي يستمع بإنصات شديد وابن زنبل يواصل:

- لن أطيل عليك... كانت هذه المرأة من الجن وتدعىظك-بنت شامك وكانت أميرة على قبيلة كبيرة من شرار الجن.

رحبت بموسى السامري، ثم أحضرت صبياً لم يتجاوز الخمس سنوات كان جنودها قد إختطفوه وهو يلهو أمام مسكنه، قاموا بذبح الطفل وتشاركا في شرب دماءه بسعادة، تزوج السامري من عنقا وأقام في هذا الكهف لمدة عشر سنوات قبل أن يرحل لجهة غير معلومة بعدما أنجب من عنقا ولدين أحدهما يدعى صائد بن موسى وله لقب آخر هو ابن صياد، والآخر يدعى بركات بن موسى.

انتفض طومان قائلًا بتعجب:

- بركات بن موسى المحتسب!! أبوه هو موسى السامري!! إزاي؟!! إنت

خرفت يا ابن زنبل؟

قاطعه ابن زنبل قائلًا:

- فى كلامى الجاي هتسمع عجب العجاب، في يوم أتاني أحد أتابك العسكر السابق الأمير "قيت الرحبي" وأخبرني أن فيه شخص اسمه بركات ابن موسى ظهر في القلعة فجأة وصار من خاصية السلطان وأصبح الآمر الناهي في السلطنة... كنت وقتها بعيدًا عن السلطان، مشغول بدراسة بعض العلوم... توجهت بعد الحاح من الأمير قيت الرحبي إلى دار بركات ابن موسى وكنت عازم على كشف سره، خاصة أنه لا يظهر في رمالي... وتمت المقابلة بيننا إللى شوفت فيها العجب.

طومان باي بقلق:

- شوفت إيه ؟!

أخذ ابن زنبل نفسا عميقا قبل أن يقول:

- في البداية طرقت الباب أكثر من عشر مرات قبل ما يفتح ويسمحلي بالدخول، إتعاملت معاه بمبدأ البصّاصين ركزت على حدقة عينه وأنا بتكلم علشان أقراه .. لكن للأسف أنا إللي شعرت برهبة... بدا بركات في البداية حسن المعشر.. هادئ رزين، كنت بسأله وهو بيجاوب بهدوء شديد، وكأن من حقي استجوابه داخل منزله، توقعت إنه هيعترض أو هيقول صفتك إيه علشان تستجوبني لكني وجدته بيجاوب بهدوء أخبرني أن أبوه من العربان وأمه كذلك، وإنهم ماتوا وهو صغير وإنه إتربي يتيم ثم سافر إلى تونس مع أحد التجار وبعدين رجع لوطنه إللي بيحبه وبيعشق ترابه.

تنهد ابن زنبل قبل أن يقول:

- لكنى ما صدقتش كلامه، وضعت رمالي أمامي وبدأت أخط عليها أجوبته ولكن الرمال كانت صماء، لم تنطق ولم تخبرني بأي شئ... درت حوله دورتين كاملتين في محاولة مني للوصول لأي شئ عن هذا الكائن الغامض دون جدوى... وفي النهاية جاتني فكرة، الإنسان بيكون أكثر صراحة أثناء غضبه وقد ينطق لسانه ويبوح بكل ما لديه، أمسكت بحفنة من رمالى وتركته يتحدث وفجأة ألقيت الرمال في وجهه وتحديدًا في عينيه...

طومان باي بترقب:

- حصل إيه لما عملت كده؟

ابن زنبل:

- لو كنت أعلم إني هشوف إللي شوفته ما كنت ألقيت عليه الرمال.

طومان باي بحدة:

- حصل إيه؟ قول وبلاش إسلوب التشويق بتاعك ده.

- فجأه لقيته اتنفخ... أصبح أطول وأعرض، عينه إحمرت بشدة معرفش من التراب ولا إيه... ظهر له نابين بارزين.. وتحول وجهه لوجه آخر يشبه القرود بفم بارز للأمام وشعر كثيف... إيده أشبه بالمخالب.. نظر لي بغضب ثم ضرب الأرض تحت رجله ثلاث مرات، فحدث زلزال شديد معرفش هل هو سبب الزلزال ولا كان مصادفة.. المهم طلعت أجري من داره كالمخبول وتجنبته تمامًا من وقتها... عشت سنين و أنا عاجز عن مواجهته لأني مش عارف مين الكائن ده.. إنسان ولا شيطان ولا إيه... قرأت أكثر من ألف مخطوطة واستخدمت علم الزايرجة حتى عرفت مين

هو بركات بن موسى.

- إيه علم الزايرجة ده...؟ أول مره أسمع عنه.

- هو علم استخراج المجهول من المعلوم أو استخراج المعدوم من الموجود أو بمعنى أدق معرفة الغيب النسبي. فالغيب المطلق عند الله وحده، أما الغيب النسبي هو الشئ المخفي عنك لكن غيرك يعرفه، مثل معرفة مكان المفقود أو المختفي.. فإن كان يغيب على البعض إلا أن البعض الآخر يعرف مكانه.

- تمام فهمت... كمل.

- المهم توصلت لطبيعة وحقيقة بركات بن موسى وعرفت إن أبوه من الإنس وهو موسى السامري. وأمه من الجن وهي عنقا بنت شامك. لذلك هو بيحمل طبيعة مزدوجة بعض الشئ، ولكنه أقرب إلى طبيعة البشر.

- فين أمه و أبوه وأخوه حالياَ؟

- أبوه موسى السامري مخلد في الحياة الدنيا، مكانه مجهول حتى الآن ولكنه يحيا حياة طبيعية، أما أمه فقد ماتت منذ زمن، تحديدًا يوم تولي عمر ابن عبد العزيز الخلافة.

فتح طومان باي فمه بدهشة و ابن زنبل يواصل:

- أخوه صائد عاش فى أزمنة مختلفة تحت اسم شخصيات شهيرة، يعني مثلًا عاش فترة في بلاد الفرنج تحت اسم البابا أوربانوس الثاني، وهو أول واحد دعا للحملات الصليبية، ثم رحل من هناك إلى بلاد الهند بإسم جديد وأسس ديانة جديدة.

جلس ابن زنبل على أحد المقاعد المواجهة لطومان باي قائلًا:

- العالم حولنا ملئ بالأسرار والأشرار... فويل لمن قابل الأشرار، وألف ويل لمن علم الأسرار.

- أنا شايف إني أقتله ونتخلص منه فوراً.

قالها طومان باي وهو يتحسّس سيفه فأشار له ابن زنبل قائلًا:

- الأمر مش بالسهولة دي... إنت نسيت إن سيدنا موسى ما قدرش على السامري؟

طومان باي غاضباَ:

- هو مش أقوى مني

- ولا إنت أقوى من سيدنا موسى... الحكمة مطلوبة والعلم مطلوب في حربنا مع ابن السامري... صدقني مش هتقدر عليه بالسلاح وحده.

صمت طومان باي قليلًا، في حين اتجه ابن زنبل إلى أحد الجدران فأزاح عنها أحد الألواح الخشبية ثم طرق على الجدار عدة مرات قبل أن ينزع حجر كبير يواري فجوة صغيرة أخرج منها ابن زنبل ثلاث زجاجات متوسطة الحجم، بداخل كل زجاجة سائل مختلف عن الآخر.

- هقولك آخر ما وصلت إليه من العلم، بشرط أن السر ده يكون بينا لحد ما ربنا يأذن لنا بالمواجهة..

أمسك ابن زنبل بالزجاجة الأولى والتي تحتوي على سائل شفاف اللون قائلًا:

- جرعة واحدة من هذا السائل تجعلك تختفي عن الأنظار فلا يراك أحد ولكنك تستطيع رؤية الجميع ... لقد قمت بتجربته عدة مرات على خادم

لي اسمه فاروق.

وضع ابن زنبل الزجاجة على منضدة صغيرة وأمسك بالزجاجة الثانية التي تحتوي على السائل الأزرق قائلًا:

- هذا السائل الأزرق هو أقوى سلاح دفاعى منذ أن خلق الله آدم وحتى قيام الساعة، إذا سكبته على الأرض يصنع حاجز صلب غير مرئى بينك وبين أعداءك لا يرونه ولا يستطيعون اختراقه أبدًا، حاجز منيع لا يستطيع جيش التتار اختراقه.

أعاد ابن زنبل الزجاجتين إلى موضعهما وأمسك بالزجاجة الثالثة ذات السائل الوردي اللون قائلًا:

- أما هذا السائل فهو مشروب الخلود النسبي.

تدلّى الفك السفلي لطومان باي وابن زنبل يواصل:

- الخلود المطلق لله وحده... لكن موسى السامري قدر يتوصل لسر الخلود بالمحافظة على الجسد من الأمراض والأوبئة والعجز والشيخوخة عن طريق مستخلص من الأعشاب إللي نبتت من أثر الرسول الملاك إللي كان بيأتي سيدنا موسى واستطاع السامري رؤيته، أحضرتها بنفسي من الطور نقبت عنها لحد ما وجدت الأعشاب دى، وبالعلم استخلصت منها هذا السائل.

ثم رفع ابن زنبل السائل لأعلى وواصل فى عرض مسرحي كعادته فى السرد:

- لذلك فجرعة واحدة من المشروب ده تحافظ على جسدك لمئة عام دون أمراض أو علل أو خلافه، فإذا ما انتهت المائة عام فجرعة جديدة تمنحك مائة عام أخرى، أي أن هذا السائل يمنحك الخلود النسبي إلى أن يأمر الله

ملك الموت بقبض روحك فلا راد لقضاء الله.

مد ابن زنبل يده إلى طومان باي قائلًا:

- لو أراد الأمير الخلود النسبي.. يقدر يشرب من مشروب الخلود.

أمسك طومان باي بالزجاجة وقربها من فمه بتردد ويد مرتعشة قائلًا:

- ولو أراد أحد قتلي بالسيف أو بالسم أو ما شابه ذلك. يقدر المشروب ده يحميني؟

ابن زنبل:

- لأ طبعًا... المشروب ده للمحافظة على الجسد فقط وليس للمحافظة على الروح.

أعاد طومان باي الزجاجة إلى ابن زنبل مرددًا بيت شعر جاهلي:

- تعب كلها الحياة... فما أعجب إلا من راغب في ازدياد.

ثم أعقب:

- أنا أتمنى أموت شهيد على أن أعيش مخلد... فخلود الجنة أفضل من خلود الدنيا.

ابتسم ابن زنبل قائلًا:

- أعلم النزعة الصوفية للأمير طومان باي وأعلم مدى قربه من الله، ولكن...

قاطعه طومان باي قائلًا:

- ولكن هنتخلص إزاي من المحتسب الشيطان؟

ابن زنبل بهدوء:

- حتى هذه اللحظة لا أستطيع الجزم برغم أسلحتى القوية، لكن هكمل أبحاثي وعلومي لحد ما أوصل للضربه القاتلة إللي لو تلقاها مات على الفور... لإني أخشى نعمل محاولة وتفشل، وقتها هيغضب وغضبه مش هنقدر عليه.

طومان باي:

- إيه رأيك لو شربت من مشروب الاختفاء وأطحت برأسه في ساحة القلعة.

ابن زنبل بيأس:

- في أحد احتفالات السلطان بعيد الأضحى شربت من مشروب الاختفاء وصعدت لمشاهدة الإحتفال مريت من أمام الجميع محدش شافني، وقفت عن بعد أراقب السلطان والمدعوين وفجأة وجدت بركات ابن موسى بينظر لي ويبتسم، في البداية ظننت أنه بيبتسم لحد واقف ورايا فنظرت خلفي لم أجد أحد، وقفت أتابع السلطان وهو بيضحك مع الحاشية وإلى جواره بركات، بعدت عيني عنه للحظة فسمعت صوت من خلفي بيقول: رمّال حاذق صحيح!!! ولقيت كف اتوضعت على كتفي لفيت فلقيته بركات بن موسى.

أعاد ابن زنبل الزجاجات في موضعها الخفي بداخل الجدار قائلًا:

- توقيت المعركة أهم من المعركة ذاتها.

طومان باي:

- تقصد إيه؟

- أقصد إن الـ....

فجأة إستمعا إلى صوت طرقات قوية على الباب، ارتبك ابن زنبل بينما حافظ طومان باي على ثباته المعهود، على الفور قام صاحب الدار بإعادة الزجاجات لموضعها الخفي في الجدار قبل أن يتجه نحو الباب وعيناه زائغتان، وما أن فتحه حتى شهق بقوة وهو يرى بركات بن موسى مبتسمًا إبتسامته المقيتة المرعبة.

دلف كعادته للداخل، وما أن رأى طومان باي حتى صاح مرحبًا بإصطناع شديد:

- الدوادار كبير طومان باي بنفسه موجود هنا...؟ إيه الشرف الكبير إللي نالك ده يا ابن زنبل؟

صمت ابن زنبل في حين تحدث طومان باي وهو يضغط على سيفه:

- الشرف إني أشوفك وأعرف حقيقتك.. حقيقتك إللي يجهلها السلطان والناس أجمعين.

استدار بركات بغضب نحو ابن زنبل الذي حبس أنفاسه، حدق في عينيه قبل أن يواصل طومان باي:

- حقيقتك إللي أنا متأكد منها إنك مرتشي بتبيع حقوق الإحتكار لمن يدفع أكتر، وبتفرض على الناس ضرايب وإستقطاعات بدون وجه حق.

خرجت زفرة ارتياح قوية من ابن زنبل بعد العبارة السابقة.

بركات بهدوء:

- مفيش حاجة أنا عملتها إلا بإذن عمك السلطان.

طومان باي:

- إنت عملت كتير بدون علمه وعملت الأكتر بعلمه بعد ما ضلِّلته بمعلومات مغلوطة.

صمت بركات، فواصل طومان باي:

- دولة العدل يهدمها ظالم واحد.. ظالم عزل السلطان عن الجميع لكن بمجرد ما نرجع من الإسكندرية أنا والسلطان هيكون فى قرار بعزلك.

بركات بهدوء مستفز:

- السلطان مش هيسافر للإسكندرية من الأساس.

طومان باي:

- لا هيسافر بكرة علشان يطمن على ترميم الأبراج إللي بنجهزها للفرنجة.. وإللي إنت عارضت فكرتها أكتر من مرة.

- السلطان مش هيسافر للإسكندرية.

ألقى بركات العبارة فى وجه طومان باي قبل أن ينصرف.. تاركًا الصمت يغلف المكان.

****

تهيّأ موكب السلطان للخروج من القلعة متجهًا نحو الإسكندرية، استعد الامراء، تمّ وضع السرج الذهبي على حصان السلطان، امتلأت الشوارع بالأعلام والزينات، ابتهج الناس كأنه أحد أيام الأعياد، وبالرغم من ارتفاع درجة الحرارة والرطوبة مع بداية شهر سبتمبر إلا أن عزم السلطان على السفر كان أكيدًا بعد ضغط شديد من طومان باي والأتابكي قرقماس،

استعد الجمع، لحظات قبل نزول السلطان، نظرة تشفِّي قوية من عينا طومان باي إلى لبركات بن موسى الذي كان يراقب الموكب فى صمت، تبعتها نظرة قلق من ابن زنبل... حوار صامت بين الطرفين واستعراض للقوة مبهم... نزل السلطان مرتدياً خلعة بيضاء فاخرة مزينة باللون الأخضر، قفز على حصانه برشاقة رغم سنوات عمره السبعين... ملابسه الناصعة البياض ولحيته التي لم يتسلل إليها إلا عدة شعيرات بيضاء، قوته ولياقته رغم هذا ا لسن جعلاه يبدو في ضوء الشمس وكأنه شاباً فتياً.

مال طومان باي نحو ابن زنبل قائلًا:

- ابن موسى فاكر إن الحر الشديد ممكن يمنع السلطان من السفر... مسكين ما يعرفش إننا ممكن نقف في وش شيطان ابن جنية زيه ولا نخاف.

ابن زنبل بصوت خافت:

- أنا خايف.

ربّت طومان باي على كتفه قائلًا:

- ما تخافش.... واستمتع بهزيمة بركات.

فجأة دقت الطبلخانة وعلا صوت الأبواق وفتحت أبواب القلعة معلنين بداية الرحلة.

ابتسم طومان باي مجدداً ونظر لإبن زنبل المرتعد فسمعه يهمس: " أستر يا رب ".

- مالك يا ابن زنبل؟ خايف من إيه؟!!

ابن زنبل بإرتباك:

- بركات بن موسى عينه إحمرت أوي.... شوف كده هو بيتنفخ ولا

بيتهيألي.

نظر طومان باي ناحية بركات قائلًا:

- لا بيتهيألك... هو عينه إحمرت بس... عمومًا الموكب هيتحرك أهو...

تحرك الموكب بهدوء مع صوت الأبواق التي لا تنقطع والطبل المتواصل، وعندما اقترب الموكب من باب القلعة... ارتفع صوت رعد شديد فجأة وامتلأت السماء بالغيوم وقبل أن يستوعب أحد ما حدث انهمر المطر بشدة سيولًا مصحوبة برياح شديدة، نظر طومان باي إلى ابن زنبل بقلق، فرفع الأخير كفيه بدهشة... ثوان معدودات وكانت المياه قد ملأت ساحة القلعة والطرقات المؤدية إليها فتوحلت تمامًا، حاول الجميع الإحتماء، ارتبكت الخيول وتضاربت، سقط أحد الأمراء أرضًا وانكسرت ساقه، طارت عمامة السلطان وسقطت في الطين وتلوثت ملابسه البيضاء... حاول طومان باي إقناع السلطان بمواصلة السفر ولكن الطبيعة كانت أقوى من الجميع..

احتمى السلطان وأمراء موكبه بداخل القلعة واضطر الجند وحراس القلعة إلى ترك مواقعهم.. رجل واحد فقط لم يبرح مكانه وظل واقفًا بشموخ يتطلع بعينيه الحمراوين الحادتين إلى القلعة ومَن احتموا بها، وقف بركات ابن موسى وسط المطر والأعاصير ثابتًا وعلى وجهه ابتسامة النصر.

وبداخل القلعة قبض طومان باي على سيفه ضاغطًا على أسنانه في غيظ شديد، إلا أن ابن زنبل أشار له بسبابته إشارة النفي وهو يقول بصوت خافت:

- لا يهزمه إلا العلم والحكمة.

****

١٦- القتل بالوكالة

انتهى المصلون من أداء صلاة العشاء بمسجد القلعة فغادروه تباعًا.. وبعد ما يقرب من الساعة كان هناك ثلاث رجال فقط يجلسون إلى جوار المنبر يتهامسون بصوت خافت.

انتهى طومان باي وابن زنبل من سرد الأحداث على الأتابكي قرقماس الذي قال بصوت مبحوح:

- أنا مش مصدق إللي أنتوا بتقولوه... دي حكاية خيالية أشبه بحكايات الأساطير.

طومان باي:

- أنا كنت مش مصدق زيك كده في الأول لحد ما شفت بعيني وإتأكدت، علشان كده قررت أشركك معانا علشان نكون قوة في وجه الشيطان ابن موسى .

قرقماس:

- أنا معاكم في أي شئ يخدم وطني .

- دا العشم برضه .. ثقتي في محلها .

ابن زنبل :

- الأهم عدم التصرف بإنفعال أو بدون تخطيط فنخسر قوتنا.. فبالرغم كل إللي عرفناه عنه أحب أقولكم إن بركات ضعيف... ضعيف جدًا، أنا درست مظاهر القوة والضعف عنده لقيته هش لو واجهناه من نقطة ضعفه.

طومان باي:

- نقطة ضعفه إللي هى ايه؟

ابن زنبل:

- هو ما عندوش علم الغيبيات، بمعنى إننا قاعدين دلوقتي بنتآمر عليه وهو ما يعرفش، وعلشان كده بيحاول يتقرب مني وما بيفكرش يئذيني لعلي أتعاون معاه ... كذلك هو إنسان ببعض مواصفات الجن وليس العكس، يعني لا عنده قدرة الإختفاء أو الإنتقال من مكان لمكان بسرعة خاطفة، ولا عنده قدرة إختراق الجدران والحواجز المادية... هو أقرب إلى الإنسان العادي ولكن عندما يغضب تصبح قوته خارج التوقعات.

طومان باي:

- فيه مظاهر ضعف تاني ولا كده بس؟

ابن زنبل:

- أكيد فيه مظاهر تانية كتير لسه ما عرفتهاش، لكن هتتضح مع الوقت.

قرقماس:

- ذكرت يا ابن زنبل عن وجود سر خفي بين بركات ابن موسى و ابن إياس الحنفي.

ابن زنبل :

- إبن إياس هو مخزن أسرار بركات بن موسى، مش عارف إمتى نشأت بينهم الصداقة الكبيرة دي ولا عارف إيه سببها لكن إللي أعرفه إن ابن

إياس بيدافع عن بركات دفاع مستميت وبيتكلم عنه كأحد الأولياء الصالحين، في ذات الوقت بركات مالوش أصدقاء ولا بيدخل بيت حد ولا بيسمح لحد يدخل بيته إلا ابن إياس، كمان لاحظت إن في إجتماع بيحدث بينهم كل أربعاء بين صلاة المغرب والعشاء فى دار بركات ببركة الرطلي.

طومان باي بحدة:

- لن ينصلح حال السلطنة طالما هناك أبواق تدافع عن الفاسدين.

قرقماس:

- طيب والحل إيه؟

طومان باي:

- أنا شايف إننا نختار وقت مناسب ونهجم على بركات وإبن إياس في التوقيت إللي ذكره ابن زنبل بين المغرب والعشاء يوم الأربعاء.

قرقماس :

- يبقى نهجم الأربعاء القادم.

ابن زنبل :

- لأ ... ننتظر شوية

طومان باي :

- لحد إمتى؟

ابن زنبل :

- رمضان القادم ...

قرقماس :

- إشمعنى رمضان؟!

ابن زنبل بهدوء :

- لأن بركات بيكون في أضعف حالاته في رمضان وبيفتقد الكثير من قوته.

طومان باي :

- دا شيطان فعلًا

ابن زنبل :

- تقدر تقول ابن شيطانة ويحمل من صفاتها الكتير... المهم إحنا لازم نشكل قوة في مواجهته... تعتقد مين ممكن يتحالف معانا ضد بركات بس يحافظ على السر ويكون ولاءه للسلطان الغوري؟

صمت قرقماس قليلًا مفكرَا قبل أن يقول :

- الأمير طراباي رأس نوبة النواب فيه عداء شديد بينه وبين بركات بن موسى.. و لا أخفي عليكم إنه طلب مني أكثر من مرة التخلص منه ولكن ولائي للسلطان هو إللي منعني لأني عارف إن بركات مُقرّب جدًا من الغوري .

طومان باي :

- إذن فالأمير طراباي هو رابعنا إلى حين.

قرقماس :

- أنا هسافر للإسكندرية للإطمئنان على الأبراج بديل عن السلطان إللي أقسم بعدم السفر بعد اليوم السيء الشديد... وهرجع قبل رمضان عشان نحدد يوم الهجوم .

مد طومان باي يده القوية للأمام فأمسك بها ابن زنبل وقرقماس معلنين إتحادهم وولاءهم.

****

٢٢ الثلاثاء رمضان ٩١٦ هـ :

بعد صلاة العصر بمنزله بالجزيرة الوسطى جلس ابن زنبل فى مواجهة طومان باي وقرقماس وطراباي، وبعد ما انتهى من شرح خطته قال:

- إنتظرت لآخر رمضان علشان أتأكد إن موعد المقابلة بين بركات وإبن إياس لم يتغير الأربعاء من كل أسبوع.. ولكن التوقيت اختلف أصبح بعد صلاة العشاء مباشرة.

طومان باي :

- بعد العشاء أم بعد التراويح؟

ابن زنبل :

- بعد صلاة العشاء مباشرة.. ابن إياس بيصلي العشاء ببركة الرطلي يوم الأربعاء ثم بيغادر المسجد على الفور ويتجه لمنزل بركات.

قرقماس :

- إذن موعدنا بكرة الأربعاء ... لتخليص مصر من الشيطان.

طومان باى :

- كل واحد عرف دوره ايه ومهمته إيه زي ما إتفقنا.

ابن زنبل :

- المباغتة مهمة ومطلوبة ... إللي يحمل سائل يحافظ عليه وإللي يحمل رمال يحافظ عليها ولما نواجهه نوصله لحالة الغضب وأول ما يبدأ فى الانتفاخ نلقى كلنا السوائل والرمال في عينه بعد كده هيصبح صيد سهل تقدر سيوفكم تطيح برقبته.

طراباي :

- موعدنا بكرة هنصلي العشاء منفردين بالقرب من بركة الرطلي ثم نجتمع على الفور أمام منزل بركات ابن موسى.

وضع الأربعة أيديهم على المصحف وأقسموا عليه بأن يواجهوا بركات بن موسى وأن يسعوا بكل ما أوتوا من قوة للقضاء عليه وتخليص البشر منه ومن شروره وألا يخون أحدهم الآخرين .. انتهى القسم فقرأوا الفاتحة ثم مسحوا وجوههم بباطن أياديهم قبل أن ينصرفوا منفردين الواحد تلو الآخر، وكان آخرهم طومان باي الذي اقترب منه ابن زنبل قائلًا:

- كالعادة أنا خايف.

ابتسم طومان باي قائلًا:

- وكالعادة أنا متحمس للمواجهة

ابن زنبل بإرتباك:

- ربنا يستر.. ابن موسى مش سهل، وما نعرفش ممكن يفاجئنا بإيه.

كانت الشمس فى الثلث الأخير عندما نظر ابن زنبل من نافذته يراقب طومان باي الذي انطلق كالسهم بحصانه عائدًا إلى منزله كم كان يتمنى أن يمتلك مثل هذا القلب الجسور الشجاع. أغلق نافذته وعاد لمراجعة أوراقه ومخطوطاته واستكمال علومه، لم يدرِ كم من الوقت مضى، نسي موعد الإفطار وهو يدوِن نظرية جديدة عن قوة النحاس المنصهر، هذه التجربة قد تصلح في القضاء على ابن موسى إذا ما فشلت المواجهة المرتقبة، ولكن هل سيسمح بركات لهم بتجربة جديدة حال فشلهم... انتفض جسده بمجرد تخيله لفكرة فشل المواجهة..

عند منتصف الليل استمع لصوت طرقات قويه متواصلة على باب داره.. خفق قلبه بشدة وابتلع لعابه بصعوبة... اتجه نحو الباب وتردد كثيراَ، لو كان الطارق بركات ابن موسى فلن أفتح له مهما كانت الأسباب..

صوت الطرق يتواصل، ويزداد قوة فيزداد قلبه رعبَا وإضطرابًا... تردد كثيرَا قبل أن يقول:

- مين؟

جاء الصوت قويًا حادًا :

- إفتح، أنا طومان باي ....

فتح ابن زنبل الباب بسرعة، فوجد طومان باي وعلى وجهه علامات الرعب الشديد، هز ابن زنبل رأسه مستفسراَ دون أن ينطق بأي كلمة.

تلاحقت أنفاس طومان باي قبل أن يقول:

- الأتابكي قرقماس مات .

شعر ابن زنبل بإهتزاز الأرض تحته، حاول التماسك فلم يستطع، استند على الجدار قبل أن يقول:

- إمتى؟! إزاي؟!

- وجدوه ميت في إحدى حجرات منزله .

ابن زنبل بحدة:

- مقتول؟!

- لأ ميت موته عادية.... أنا روحت داره وشفته، لا فيه آثار طعن ولا خنق، لكن وجهه كان بيحمل كل علامات الرعب والفزع إللي ممكن تتخيلها .

- قتله ابن موسى بطريقة ما.

طومان باي بقلق:

- طب وبعدين؟!!

ابن زنبل بهدوء :

- أنا شايف إننا نأجل تنفيذ خطتنا شوية.

طومان باي بحدة:

- رمضان هيخلص .

- مضطرين نأجل.

دمعت عينا ابن زنبل فربّت طومان باى على كتفه مواسياً إياه... وساد صمت طويل قبل أن يقطعه صوت طرقات قوية على الباب، انتفض من شدتها ابن زنبل، في حين قال طومان باي وهو يشير ناحية الباب:

- الأمير طراباي .... إ فتح له أكيد مصدوم زيّنا.

فتح ابن زنبل الباب بهدوء وما أن فعل حتى شهق بقوة وجحظت عيناه وفتح فمه على مصرعه.. انتقلت الدهشة إلى وجه طومان باي وهو يرى بركات بن موسى يدلف للداخل بثقة قائلًا بهدوء:

- كنت عاوز أعرف الدفنة وصلاة الجنازة إمتى ؟

****

إرتجت القاهرة لوفاة الأتابكي قرقماس، فلقد كان محبوباً.. متواضعًا.. لا يظلم ولا يبطش ولا يفحش في القول ... سبق وأن أعتق جميع مماليكه وعبيده وجواريه وأعطي لكل منهم مبلغًا من المال... بكت القاهرة كلها لفراقه ولبكاء أطفاله الأربعة.. خرجت الجنازة من داره حتى وصلت لسبيل المؤمنين، وهناك صلى عليه السلطان الغوري وباقي الأمراء صلاة الجنازة... بكي الغوري بشدة وقبّل جبهته، بل وأصر على حمل النعش عدة خطوات حتى خرج من المسجد ليذهب قرقماس إلى مثواه الأخير في الدنيا...

في المساء يصدر الغوري مرسومًا بتعيين بركات ابن موسى أتابك جديدًا للعسكر في مصر، ويقيم إحتفالية بهذه المناسبة في القلعة، تتعالى ضحكاته

متناسياَ الأتابكي قرقماس الذي بكاه في الصباح...

يعض طومان باي على شفتيه غيظًا وقهراَ مع توالي التهانئ على بركات بن موسى الذي ارتدى زي الأتابك الأصفر اللامع وخلفه ابن إياس ينشد قصيدة من تأليفه يمتدح بها السلطان :

بالأشرف الغوري المفدا　　　أصبح ثغر الزمان باسم

يا قنصوة العلي قدرا　　　فقت على من مضى وقادم

فكل يومٍ نراه عيدا به　　　فأوقاتنا مواسم

احتقن وجه ابن زنبل ومال على طومان باي قائلًا:

- مش ده ابن إياس إللي كان بيقول :

يا مالك الملك يا من بالعباد ألطف　　　أنقذ عبيدك من دولة الأشرف

كم من أقاطيع أخرجها وما أنصف　　　وأطغى المماليك هذا يسرق وهذا يخطف

و ابن إياس يواصل:

فعش هنيئا بملك مصر　　　في نصرة دائم الدوائم

مارقّص الريح غصن روضي　　　ونقطت لؤلؤ الغمائم

ابن إياس محمد قد أتي　　　ببدر المديح ناظم

انتهت القصيدة فصفق لها الغوري بحرارة

وصفق الحضور بإستثناء ثلاثة أشار بركات ابن موسى بيمناه محيياَ الجمع بابتسامة مقـ يتة على شفتيه قبل أن يقف مواجهًا السلطان في خشوع قائلًا:

- لو يسمح السلطان لى بأن أعيد لإبن إياس إقطاعه إللي إتصادر من جملة إقطاعات أولاد الناس.

هز السلطان رأسه بالموافقة، فقام طومان باي قائلًا :

- يبقى ترجع كل إقطاعات أولاد الناس.... العدل بيقول كده.

نظر له السلطان بغضب، وحاول ابن زنبل كبح جماحه.. إلا أن الحمية أخذت طومان باي فأشار نحو السلطان مذكراَ إياه بشعر لأبو الفتح البستي :

عليك بالعدل إن وليت مملكة وإحذر من الجور فيها غاية الحذر

فالملك يبقي على عدل الكفار ولا يبقي مع الجور في بدو ولا حضر

احتقن وجه الغوري بشدة لاحظها الجميع قبل أن يقول بحدة:

- الدوادار الكبير بيتهمني بالظلم وناسي إنه أحد أعمدة حكمي.

طومان باي بحدة :

- أحد أعمدة حكمك إللي نسيتها وأهملتها وأصبح حكمك كله يرتكز على هذا البركات إللى ما بتعصى له أمرا، ثم في النهاية وليته أتابك للعسكر وهو حتى م يعرفش يمسك سلاح .

إحتد طومان باي أكثر فرفع سيفه قائلًا وهو يقترب من بركات بن موسى :

- أمسك سيفك وبارزني يا أتابك العسكر.. ورّينا شجاعتك و إقدامك

خفض بركات رأسه في خبث مبتسمًا وهو يقول:

- لو الأمير طومان باي طمعان في منصب الأتابكي فأنا بأعلن أمام الجميع إ ني تخليت عن منصبى حفاظًا على الوطن وسلامة أراضيه.

طومان باي بحدة:

- الشعارات الوطنية عندما تخرج من أفواه الخونة تكون مقززة للغاية لدرجة قد تجعلك تمقت الوطن نفسه.

ا نسحب السلطان من المجلس غاضباَ فثارت موجة من الجدال بين الأمراء، ارتفعت الأصوات وارتفعت السيوف، بينما انسحب بركات بهدوء تبعه ابن إياس ...

بعد جدال طويل وصل لحد التراشق والتخوين.. اتفق الجميع على تعيين الأمير طراباي أتابك للعسكر، صعد طومان باي ليبلغ السلطان بمطلب الأمراء وتحت ضغط شديد قرر السلطان تعيين الأمير طراباي أتابك للعسكر مع جعل بركات متحدثًا عن الأتابكية.

****

محرم ٩١٧ هـ :

كانت أثار السفر بادية على وجه طومان باي، التعب والإرهاق الشديد أوشكا على الإطاحة به عقب عودته من الجهة الشرقية وتصديه لعصابات المنسر..

بالرغم من ذلك اتجه على الفور لدار ابن زنبل الرمال مذهولًا مذعوراً:

- بمجرد ما سمعت خبر موت الأمير طراباي وأنا مذهول .. مات إزاي؟!!

ابن زنبل بأسى:

- نفس طريقة وفاة الأمير قرقماس.... وجدوه ميت لكن المرة دي في دورة المياه، نفس إمارات وعلامات الرعب والفزع على وجهه.. واحد من خدامه أخبرنا بإنه سمع صوته بيستغيث قبل ما يقوم الحراس بكسر الباب ليجدوه ميت... خادم تاني قال إنه استمع قبل الإستغاثة إلى صوت سيده بيسب المحتسب بركات ابن موسى.

- والحل إيه مع الشيطان بركات؟ ده قتل جنديين منا.. يعني قضى على نص قوتنا

ابن زنبل بهدوء :

- هننتظر لرمضان القادم ونواجهه لوحدنا

طومان باي بدهشة :

- ننتظر حتى رمضان!!! إحنا دلوقتى في نهاية المحرم يعنى هننتظر سبع شهور كمان من شان نقضي على الشيطان .

ابن زنبل بهدوء :

- توقيت المعركة أهم من المعركة ذاتها... وزي ما قولتلك هو بيكون في أضعف حالاته في رمضان، ثم أنا جهزت له سلاح جديد يضمن لنا حسم المعركة عند المواجهة.

طومان باي بحمية :

- تعتقد الأفضل إننا نضم لنا أمراء جدد؟ ولا مصيرهم هيكون نفس مصير قرقماس وطراباي ؟

- الرأي هنا رأيك انت، أنا بس محتاج الإنتظار لشهر رمضان .

طومان باي مفكراَ:

- أنا بقترح نضم لصفوفنا الأمير دولات باي ابن أركماس هو من أكتر الأمراء شجاعة ووطنية، وبيكره بركات بن موسى أشد الكراهية.

سكت ابن زنبل، فأضاف طومان باي :

- أنا هروح القلعة من شان أعرض على السلطان فكرة تعيين دولات باي بن أركماس أتابكًا للعسكر وبعدين أضمه لينا وأحذره من الشيطان.

- أنا بشفق عليه وخايف يكون مصيره الموت زي إللي سبقوه .

- ما تخافش.. هيكون معاه عدد حراس أكبر مش هيغفلوا عنه للحظة واحدة .

****

الخميس ١٠ صفر ٩١٧ هـ :

المنادي : " يا أهل مصر.. قرر السلطان الغوري تعيين الأمير دولات باي بن أركماس أتابكا للعسكر "

الخميس ١٧ صفر ٩١٧ هـ :

اجتماع ثلاثي بداخل دار ابن زنبل الرمال أقسم فيه الأتابكي دولات باي على الوفاء والإخلاص حتى يتم القضاء على بركات بن موسى .

الجمعة ٢٥ صفر ٩١٧ هـ :

المنادي : " يا أهل مصر.. توفي إلى رحمة الله الأمير دولات باي بن أركماس أتابك العسكر "

****


أسك زاد

١٧- المواجهة

أوشك الغضب أن يفتك بطومان باي، راح يسير عدة خطوات للأمام والخلف بعصبية شديدة، ركل أحد المقاعد فهشم جزء منه، ثم راح يضرب الحائط بقبضته القوية عدة مرات .

ابن زنبل بهدوء :

- إهدى وحافظ على قبضتك ليوم المواجهة .

طومان باي بعصبية :

- أنا السبب ... أنا إللي اتسببت في قتله ... يا ريتنى كنت حملت سيفي وروحت لإبن الشيطانة وقطعت راسه .

أمسك طومان باي بمجمع ثياب ابن زنبل ودفعه نحو الحائط بقوة وهو يقول :

- إنت ليه رافض مواجهة بركات وكل شوية تأجل المواجهة ؟!! أنا شاكك إنك متواطئ معاه فى السر .

إمتص ابن زنبل غضب طومان باي قائلًا :

- بسرعة كدة قدر بركات يفرقنا؟!

ثم أضاف وهو يحرر عنقه من قبضة طومان باي :

- قولتلك قبل كده إحنا مش هننتصر عليه إلا بالعلم، فلا داعي للتهور .

وضع طومان باي راحته على وجهه واستغفر قليلًا، قبل أن يقول :

- سامحني يا ابن زنبل . الشيطان بيضغط على أعصابنا بأفعاله ومش

هسكت إلا لما أثأر لدم الأبرياء...

ابن زنبل بهدوء :

- انتصر الشيطان الأسود علينا قبل ما تبدأ المواجهة، لكن يوم ما تبدأ هيشوف منى عجب العجاب، أنا استعديت له بأكتر من سلاح .

- طيب هنكتفى بنفسنا فى مواجهة بركات ولا نستعين بحد تاني؟

- أنا شايف نكتفي بنفسنا وكفاية إللي سقطوا .

****

صباح الثلاثاء ٢٩ صفر ٩١٧ هـ :

دعا طومان باي جميع الأمراء لأمر ما داخل القاعة الكبرى بالقلعة، حضر الأمراء بحماسهم المعهود.. وبعد التشاور الطويل اتخذوا أمرَا قاطعًا عزموا على تنفيذه فوراً، بعد دقائق معدودة نزل السلطان على يمينه ابنه الأمير الأصغر محمد.. يتبعه بركات بن موسى، اندفع الأمراء نحوهم فجأة مشهرين سيوفهم، ارتبك السلطان وضم ابنه إلى صدره صارخًا:

- أنا بخلع نفسي من السلطنة... أنا بخلع نفسي من السلطنة، أتركونى أعود لبيتي مع ابنى... أنا قولت من البداية مش عاوز الحكم وأنتم إللي أصـ ......

قاطعه طومان باي قائلًا :

- محدش طلب منك خلع نفسك.... إحنا بنطلب خلع بركات بن موسى بس .

الغوري بحدة :

- ليه ؟!!

أحد الأمراء :

- وليه يستمر فى القلعة؟ لا هو منا ولا نعرف له أصل ولا فصل .

علا صوت أمير آخر :

- أنت أو بركات.... واحد منكم هيغادر القلعة دلوقتى إلى الأبد وعليك الاختيار .

نظر الغوري إلى بركات بأسى، أراد أن يقول شيئًا ولكن الكلمات غاصت في حلقه، فى حين إحمرت عينا بركات ولكنه بدا متماسكًا وهو يقول :

- من أجل السلطان ومن أجل البلاد أخلع نفسي من كل المناصب..

غمدت السيوف وساد الإرتياح على الأمراء، بينما خلع بركات عمامته واقترب من طومان باي قائلًا بهدوء :

- ها أنذا أخلع نفسي من كل المناصب وأسلمها للدوادار الكبير طومان باي .

رفع بركات عمامته لأعلى، وأوشك على وضعها فوق رأس طومان باي.

- إحذر يا أمير طومان باي أن ترتدي العمامة .

قالها ابن زنبل الرمال الذى ظهر فجأة، ارتدَّ طومان باي خطوتين للخلف عقب هذا التحذير، نظر بركات إلى ابن زنبل بغضب شديد قبل أن ينسحب غاضباَ تاركًا المكان، مال ابن زنبل نحو أذن طومان باي قائلًا

بإبتسامة :

- هرب قبل ما يغضب أكتر وينفضح أمره

إبتسم طومان باي قائلًا :

- إستئصلنا الشيطان من القلعة .

ابن زنبل :

- مؤقتًا... ابن موسى مش هيسكت.

طومان باي مبتسمًا :

- إنت جيت إمتى وإزاي؟

ابن زنبل :

- شوفت في رمالي خطر بيحوم حواليك فجيت أنبهك ...

طومان باى بدهشة :

- خطر ايه؟!!

- خطر العمامة.. تعرف إنك لو إرتديت عمامته الشيطانية كنت هتصير تابع له للأبد .. دى مش بتتنزع إلا بنزع الراس من الجسد.

خفق قلب طومان باي قبل أن يقول :

- سلامٌ قولٌ من ربٍ رحيم .

****

ظهر الثلاثاء ٢٩ صفر ٩١٧ هـ :

بعد ساعات قليلة من عزل بركات!!!

لا يعلم أحد مصدر هذه النيران التي اندلعت فجأة في كل أنحاء البلاد بالمنازل والمخازن والمحلات، النيران تندلع وتتصاعد بشدة دون أي مصدر أو سبب لها... النيران تندلع من اللا شئ... أحد أصحاب محلات الأقمشة رأى النيران تشب أمامه من العدم تلتهم صف الأقمشة ثم تذهب للصف الذي يليه ثم الذي يليه بشكل منتظم، شبت النيران في أحد الأحذية التي يصنعها الإسكافي ثم تجولت إلى باقي المحل بما فيهم جلباب الإسكافي نفسه الذي أقسم أن النيران كانت كالكرة تقفز من حذاء لآخر، وكأن هناك من يحركها، تجار الخضر والفاكهة لم يروا من قبل نيران تندلع من البطيخ أو الملوخية أو الجرجير أو العنب ...

أما عجب العجاب ما رآه السقايين؛ النيران اشتعلت في قرب المياه حتى لم يعد هناك قربة ماء واحدة لم تمسّها النار، أسطح المنازل كلها بدت وكأنها شعلة لهب....

أما في الريف فقد اندفعت تلك الفئران السوداء ذات الشكل المقزز لتلتهم كل ما تجده أمامها من ثمار وحبوب وأشجار ومحاصيل، كانت أعدادها كبيرة جدًا.. آلاف الآلاف منها في كل مكان، تأتي من اللا شئ وتندفع نحو كل شئ، تزداد أعدادها أثناء عدوها، تحدث أقدامها في الأرض صوت دبيب مرعب، لو استمر الوضع هكذا ليومين آخرين سوف تهلك مصر عن آخرها!!!!!

مساء الثلاثاء ٢٩ صفر ٩١٧. هـ

صعد بركات بن موسى إلى القلعة بناءاَ على طلب السلطان.. فتوقف كل شئ، اختفت الفئران، وانطفأت النيران .... وهدأت مصر إلى حين .

****

بترشيح من الأمراء دون أدنى تدخل من طومان باي قرر السلطان الغوري تعيين سودون العجمي أتابكًا للعسكر ... ليكون الرجل الثالث في السلطنة بعد السلطان والمحتسب الذى زاد نفوذه وزادت قوته وأصبح الآمر الناهي في السلطنة من جديد بإمتيازات أكبر وسلطة أكبر.. فرض ضرائب جديدة أهمها ضريبة الحماية، صار يعرض الوظائف والمناصب لمَن يدفع أكثر فى مزاد علني، حتى القضاة والمشايخ والكشافين كان بقاءهم فى مناصبهم مرهون بالدفع للمحتسب.

ا حتاط طومان باي وتجنّب أي مواجهة مع بركات حتى حلول شهر رمضان بناءاَ على طلب ابن زنبل الذى عاد لعلومه ودراساته وتجاربه فى انكسار، وفى حين ضجّ الناس بسبب الغلاء والإحتكار وتوقف إصدار المراسيم وعدم تسعير السلع، انشغل السلطان برياضة ضرب الكرة بتناطح الكباش والثيران في ميدان القلعة وبالعزائم والولائم والحفلات التي يقيمها له بركات بن موسى يومياَ، نسي السلطان حفلات الذكر وقراءة القرآن التي كان يقيمها ليلة النصف من شعبان، راح يضحك ببلاهة على المهرج السمين علي باي الذي كان يُضحك السلطان بنكاته وتقليده للأمراء وكبار رجال الدولة بشكل ساخر أثار إستياء الجميع إلا السلطان الضاحك اللاهي...

بعد أسبوعين وعقب رؤية هلال شهر رمضان صعد قضاة المذاهب الأربعة بصحبة الخليفة محمد بن المتوكل على الله وكبار العلماء إلى القلعة لتهنئة السلطان ولآداء صلاة التراويح جماعة كما جرت العادة.. ولكنهم لم يجدوه، فالسلطان تلهّى عن صلاة التراويح وعن السحور لأول مرة فى حياته.

****

السبت ٢ رمضان ٩١٧ هـ :

كان لا بُد من المواجهة مبكرًا، توجه طومان باي وابن زنبل الرمال إلى بركة الرطلي عقب صلاة التراويح وقد أقسما على الثبات أمام شيطان مصر بركات بن موسى... اليوم سيتم القضاء عليه، اليوم آخر أيامه، اليوم نهايته أو نهايتنا.

ازداد عبوس وجهه وانعقد حاجباه بشدة وهو يتجه نحو الباب، فصوت هذه الطرقات القوية أثارت غضبه بشدة، مَن هذا الذي يجرؤ على طرق باب المحتسب بركات ابن موسى في هذا الوقت بهذه القوة...؟ إن لم يكن الأمر ذا أهمية فسيكون الطارق وجبة عشاء.

فتح بركات الباب بقوة أوشكت أن تنتزع الباب من موضعه، وقبل أن ينتبه للطارق كان طومان باي وابن زنبل قد دلفا للداخل بسرعة، أغلق الباب وسار نحوهما بهدوء وعيناه الجاحظتان ترمق ابن زنبل بحدة، أوقفه طومان باي قائلًا باللهجة الفصحى:

- قف مكانك ولا تعلو قدرك أيها الشيطان.

توقف أمامهما فى طاعة قائلًا:

- بتأمرني في داري إللى دخلتها بدون إذني يا أمير؟

طومان باي بسخرية:

- أنا إستأذنتك قبل دخولي.. ايه؟ ما سمعتنيش وأنا بقول أعوذ بالله من الخبث والخبائث؟

ابتسم ابن زنبل بطرف فمه قبل أن يقول:

- بركات بن موسى السامرى.

التفت بركات نحوه واحتقن وجهه بشدة، وابن زنبل يواصل:

- بركات بن موسى السامري ابن الجنية عنقا زعيمة وادي الغيلان القريب من طور سيناء.

احمرّت عيناه وبدأ ينفث بخار الماء من فمه وأنفه معًا وهو يقول:

- عاوزين ايه؟!!

طومان باي بهدوء وهو يشهر سيفه:

- راسك

بركات:

- أودامك أهي لو قدرت.

طومان باي بحدة:

- إمسك سيفك وواجهني يا نسل إبليس.

بركات بسخرية:

- السيف ده للضعفاء أمثالك وأمثال الرمّال الفاشل.

قالها وهو ينظر إلى ابن زنبل، إلا أن الأخير فاجأه بإلقاء بعض الرمال في وجهه بسرعة شديدة فإمتلأت عينيه بها، أخرج طومان باي زجاجة مملوءة بأحد السوائل وسكبها في وجهه أيضًا، فتح عينيه التي بدت حمراء كالدم، زفر بشدة فتطايرت بعض الأشياء الخفيفة، ركلة قوية جدًا من قدم طومان باي في صدره لو أصابت جدارًا لأسقطته، ولكنه لم يتراجع من مكانه إلا بمقدار نصف خطوة، دار ابن زنبل حوله وهو يسكب سائل أزرق اللون صانعًا دائرة مركزها بركات!!

انتفض جسد طومان باي وسرت به قشعريرة خفيفة وهو يرى لأول مرة وجهه الحقيقي البشع فقد برز النابان، واكتسى وجهه وجسده بالشعر الغزير، وامتد فكيه للامام فيما يشبه القرود، وتحوّلت أطرافه إلى مخالب حيوان مفترس.. كان يحاول إزالة آثار الرمال من عينيه المفتوحتين بصعوبة.

استغرق لحظات قبل أن يحاول الهجوم على طومان باي، ولكن الدائرة الزرقاء منعته من الخروج منها، حاول مرة أخرى بعصبية شديدة ولكن الحاجز الغير مرئي صلد، ألقى ابن زنبل حفنة أخرى من الرمال فى عينيه جعلته ينكس رأسه وهو يزوم كحيوان يحتضر.. صرخ ابن زنبل بقوة:

- دلوقتي يا طومان بااااااي.. **اقتله بسرعة.**

اقترب طومان باي من بركات رافعًا سيفه، أراد أن يهوي به على رقبته ولكن الأخير رفع رأسه لأعلى فجأة وراح يعوي كالذئاب بصوت مرتفع جدًا جعل طومان باي يتراجع للخلف خطوتين.. كان المشهد مرعب بحق؛ مسخ

بشري يعوي بصوت يصم الآذان، طومان باي أشجع الشجعان تراجع بخوف.. وابن زنبل يواصل صراخه:

- اقتله دلوقتي.. الفرصة دى مش هتتكرر تاني.

اقترب طومان باي منه مرة أخرى رافعًا سيفه بيمناه القوية، إلا أن بركات طرق الأرض بقدمه بقوة فأحدث زلزلة أرضية خفيفة تراجع معها طومان باي مجددًا.

ابن زنبل بثبات لطومان باي المرتبك:

- ما تقلقش، دى زلزلة بسيطة مش هتضرنا فى شئ.. هو ضعيف دلوقتي، فى أقصى درجات ضعفه.. اقتله وريّح الناس من شروره.

كان بركات يواصل العواء وطرق الأرض بقدميه وقد سال الزبد من طرفي فمه بغزارة... حين قفز ابن زنبل نحو طومان باي المذهول وخطف السيف من يده المرتعشة واقترب من بركات بحذر.. خطوة... الثانية... الثالثة... وقف على حدود الدائرة الزرقاء المحبوس بداخلها بركات وأخذ نفسًا عميقًا ثم رفع السيف لأعلى وهوى به وبقوة نحو رقبة بركات بن موسى.

****

١٨- مواجهة أخرى

صباح الأول من شوال ٩١٧

انتهى السلطان من آداء صلاة العيد.. صعد إلى القصر لتلقِّي التهاني من الخليفة وقضاة المذاهب الأربعة وكبار الأمراء ورجال الدولة... كان السلطان يصافح الجميع، وقد بدا على وجهه العبوس الشديد بسبب هذا المرض العارض الذي أصاب جفن عينه اليسرى فسبب لها الإرتخاء.. فبدت كأنها عوراء، إلى يمين السلطان يجلس بركات بن موسى راسمًا إبتسامة عريضة مرعبة بعينيه التي لا تجفلان أبدًا، على الجانب الآخر من مجلس السلطان يقف الأمير طومان باي مكسورًا مهزومًا وإلى جواره ابن زنبل الرمال يقف بثبات وعزيمة وشجاعة... عيناه مثبّتتان على عين بركات بن موسى الواثق المنتصر....

خاطر ابن زنبل يُحدّثه:

- سنعود وننتصر عليك أيها الشيطان.... هنيئًا لك بالجولة الأولى فقط.

يهز بركات رأسه قليلًا ويبتسم بسخرية وكأنه يقول:

- هربتم كالفئران المذعورة ولم يصدر مني سوى رد الفعل، فما بالكم بالفعل.

فرغ السلطان من تلقي التهاني والدعوات له بالشفاء، فمال نحو بركات بن موسى ودار بينهما حديث خافت بعده أعلن السلطان عن عدة قرارات ومراسيم بزيادة أسعار السلع وزيادة الضرائب وإلغاء إقطاعات الفقراء والمتصوِفين والمنقطعين للعبادة. احتقن وجه طومان باي، ولكنه انتبه والسلطان يقول:

- كما قررنا أن يكون الأمير طومان باي أمير لمحمل الحج القادم.

رحب الأمراء بالقرار.. في حين نظر طومان باي إلى ابن زنبل بحدة قبل أن يقول بصوت خافت:

- الشيطان بيبعدني من شان تخلى له السلطنة.

ابن زنبل بنفس خفوت الصوت:

- لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراَ.. الحمد لله ربنا كتب لى الحج.

ابتسم طومان باي قائلًا:

- أفهم من حديثك إنك هتصطحبنى في رحلة الحج؟

- بكل تأكيد.. أنا نفسي متوقة للحج من سنين، ثم بصراحة أنا أخاف أبقى وحيد مع بركات بعد إللي شوفناه يوم المواجهة.

طومان باي:

- أنا كمان أشتاق لمكة والمدينة للمرة الثالثة.. ولكن هنترك الشيطان يفسد في بلادنا.

تلاشى ابن زنبل عبارة طومان باي الأخيرة قائلًا:

- هجهّز له مفاجأة لما نرجع.

هنا اقترب بركات منهما وابتسامته المرعبة لا تفارقه، وقف أمامها ووضع يمناه على كتف طومان باي ويسراه على كتف ابن زنبل قائلًا:

- الوداع.. الوداع.. الوداع.

****

١٨ شوال ٩١٧ هـ :

خرج محمل الحج الشريف بقيادة الأمير طومان باي الذي اصطحب معه زوجته (خوذر) ابنة الأمير الراحل أقبردي الدوادار، وابنته الصغيرة ذات الأربع سنوات... كانت بداية الرحلة من صحراء الريدانية إلى بركة الحاج ذات السوق الكبير ليتزوّد منه الحجاج بكل إحتياجاتهم قبل الإنطلاق نحو عجرود شمال السويس.. ثم مواصلة الرحلة عبر سيناء إلى بئر مبعوق.. ومنها إلى قلعة نخل ذات السوق الأشهر بسيناء والخان الكبير الذى أنشأه الغوري لخدمة الحجاج.

ثم انطلقت الرحلة عبر بئر التمد ودبة البغلة إلى أن وصلت العقبة ومنها اتخذ الركب محازاة البحر الأحمر نحو الجنوب متجهين نحو الأرض الحجازية.

مر إحدى عشر يومًا حتى وصل الركب إلى مدين... أبلى طومان باي بلاءًا حسنًا ساعد المرضى والمحتاجين والعجائز في موكبه، كما أنعم على العديد من الفقراء طوال الرحلة... صفاء نفسى كبير وسكينة داخلية تغلف روحه، يُشعر من حوله بالطمأنينة... يستنشق هواء الصحراء النقي في رضا، ينظر إلى وجه زوجته مبتسمًا، يداعب ابنته فى حنان فتقبل وجنته ثم تحضنه كعادتها.

تخطّت الساعة منتصف الليل عندما كانت المحمل يشقّ ظلمة الصحراء المرعبة حاملو المشاعل يحيطون بالقافلة، يدور طومان باي حول الجميع من وقت لآخر للإطمئنان على رفقاءه الحجاج... كل شئ هادي، كل شئ صامت، كل شئ مستكين.. وحيدًا يتطلع ابن زنبل الرمّال إلى هلال ذو القعدة الذي يتوسّط السماء، يخفق قلبه فجأة وترتجف أوصاله، يشعر

بالرعب الشديد.. يلتفت حوله فلا يجد ما يدعو للخوف!! الأمور مستقرة، يزداد خفقان قلبه فيقترب من طومان باي قائلًا بصوت خافت:

- استعدّ لمواجهة جديدة.

ذابت الإبتسامة المرسومة على شفتي طومان باي قبل أن يقول:

- مواجهة مع مين؟

- معرفش !! لكن فتحة الهلال المُتّجهة لتحت بتقول إن فيه خطر قريب جدًا جدًا.

فجأة توقفت الابل وأصدرت رغاءًا قويّا وثارت الخيول وهاجت فأسقطت عددًا من راكبيها، اضطرب طومان باي وهو يحاول السيطرة على حصانه وارتفعت الأصوات خاصة النساء والأطفال، ظن البعض أنه هجوم لقطّاع الطرق واللصوص. نظر طومان باي نحو الصحراء ونحو الجبال البعيدة الصماء؛ لا لصوص، ولا قطاع طرق، ولا سباع أو وحوش!! ماذا يحدث إذن؟!!

- أنظر في رمالك... وقولّنا إنت شايف ايه.

- نظرت ومش شايف حاجة... معرفش ليه؟!

ثم صمت ابن زنبل قليلًا قبل أن يقول:

- ولكن كلمة الوداع إللي ردّدها بركات بن موسى ٣ مرات بيتردِّد صداها في وداني، سامعها جاية من ناحية الجبل.

نظر طومان باي بإتجاه الجبل قائلًا:

- أنا هروح أشوف فيه ايه عند الجبل؟

ابن زنبل بحكمة:

- لا تتعجل قدوم الشر.. بل إنتظره.. لعله لا يأتيك.

في هذه الأثناء ظهر من ناحية الجبل فارس يمتطي حصانًا قادمًا نحوهم بسرعة شديدة، وخلفه عدد كبير من الجنود دون خيول ولكنهم في نفس سرعتها، الأكثر غرابة أن الحصان الذى يمتطيه الفارس كان عبارة عن كتلة من اللهب المُجّسم، يعدو نحوهم كالشهاب، يضيء الصحراء بنيرانه.... ازداد اضطراب المحمل بين بكاء وصرخات النساء والأطفال وفزع الرجال... إستلَّ طومان باي سيفه وتقدم للمواجهة، إلا أن ابن زنبل دار حول المحمل بسرعة شديدة وهو يسكب سائل أزرق من قربة كبيرة وما أن انتهى حتى صرخ آمرًا الجميع بالتلاحم وعدم الإبتعاد عن الدائرة.

ابن زنبل هاتفًا:

- إطمنوا مش هيقدروا يوصلولنا.. لكن محدش يطلع من الدايرة .

ثم أمر طومان باي الواقف خارج الدائرة في إنتظار الفارس قائلًا:

- إرجع يا أمير طومان باي لداخل الدايرة وإطمن الدايرة هتسمح بمرورك منها.

أحاطوا بالمحمل وعلى مقربة منهم وقف الفارس للحظات قبل أن ينزل عن حصانه الناري، خلفه جنوده مجموعة من الرجال الأقوياء، مفتولي العضلات، عرايا الجذع، ذوي أجساد بشرية ووجوه ذئاب، أما هو فكان بشريًا خالصًا.. بإستثناء أن له عين واحدة فقط ولا أثر للعين الأخرى، طويل، قوي، غليظ الوجه والجسم، أبيض اللون، دميم الملامح بشدة...

اقترب من الموكب مترجلًا دون سلاح قبل أن يصطدم بسد مانع خفي،

تفاجأ بهذا السد فبدت المفاجأة على وجهه وهو يتحسّسه بيده، حاول إختراقه مرة أخرى ولكنه كان منيعًا... دار الفارس حول الحاجز الخفي دورتين كاملتين وهو يتحسّسه من وقت لآخر لعله يجد ثغرة ما، صمت قليلًا قبل أن يقول بلغة عربية فصحى:

- فعلتها يا ابن زنبل.... فعلتها ومنعت طعام جنودى، إنهم جوعى منذ عشرة أيام وقد وعدتهم بوجبة شهية ولكنك أفسدتها عليهم... لعنة الله عليك.

طومان باي لإبن زنبل:

- هو ده شيطان؟!! إزاي بيذكر اسم الله دون خوف؟!! مين ده يا ابن زنبل؟

الفارس:

- أخبره يا ابن زنبل من أنا.

ابن زنبل بثقة:

- ده صائد أخو بركات الشهير بإبن صياد.

طومان باي هامسًا:

- ايه رأيك لو طلعت من الدايرة وقطعت راسه بضربة واحدة من سيفي ورجعت للدايرة في لمح البصر قبل ما ينتبه جنوده؟

ابن زنبل بهدوء:

- لما حاول عبد الله بن عمر بن الخطاب قتله في الماضي حدث بينهم

صدام انتهى إلى أن عبد الله ابن عمر هرب وراح لأخته السيدة حفصة رضي الله عنه فعاتبته وأنَّبته.

ثم واصل ابن زنبل بحكمة:

- لا تدخل مغامرة.. فى فشلها موتك.

- طب والحل ايه؟!! هل هنفضل متحاصرين هنا لحد ما نموت؟!!

ابن زنبل بثقة:

- لا إطمن... مع بزوغ الفجر هيرحل، لإن جنوده ما تقدرش تشوف ضوء الشمس، ولو شافته هتتعمي... مع أول شعاع للشمس هنهرب من المكان ده بسرعة.

دار صائد دورة أخرى كاملة وهو يتحسّس الحاجز الغير مرئي ثم نظر لجنوده الأصماء كالتماثيل، وقف خلف حصانه الناري وابتسم بخبث ابتسامة جعلت ابن زنبل يستشعر الخطر..

نكز حصانه من الخلف فإندفع الحصان للأمام مخترقًا الحاجز، قفز الحصان الناري وراح يركض بعشوائية بجسده المشتعل باللهب... ازدادت الصرخات وازداد الرعب، اشتعلت النيران بملابس أحدهم بعد أن لمسه الحصان، راح البعض يهيل التراب عليه لإطفائه، حالة من الهرج سادت بين الحجاج، أحدهم أمسك بحجر وألقاها على الحصان فذاب الحجر بداخله، أحد الأمراء ألقاه برمح فإنصهر الرمح على الفور، أشار صائد لجنوده بالدخول عبر الفجوة التي أحدثها حصانه.. انطلقوا نحوها بإندفاع شديد ولكنهم لم يتمكنوا من اختراقها، حاول طومان باي التصدي للحصان الثائر.. صرخ ابن زنبل:

- الكل يقعد على الأرض.

ا قترب طومان باي بحذر من الحصان رافعًا سيفه، ألقى أحدهم بماء نحو الحصان فلم يحدث شئ، أصر آخر على إلقاء الرمال نحوه دون أدنى تأثير، أمر ابن زنبل الجميع بالهدوء والصمت التام، بعد لحظات هدأ الحصان، وقف طومان باي فى مواجهته، أخرج ابن زنبل بعض رماله من جلبابه ونثرها فى عين الحصان بشدة فقفز متألمًا، ألقى ابن زنبل حفنة أخرى أكبر فصرخ الحصان صرخة بشرية بألم شديد محاولًا الخروج من الدائرة إلا أن طومان باي قفز كالفهد نحوه وعاجله بضربة قوية من سيفه أطاحت برأسه لخارج الدائرة، بينما انتصب جسده للحظات نصفه داخل الدائرة والنصف الآ خر خارجها قبل أن يسقط أرضًا وتنطفئ نيرانه سريعًا فتكشف عن هيكل عظمي لإنسان منزوع الرأس.

بإنطفاء نيران الحصان فرّ الجنود هاربين فى الصحراء بعيدًا عن الجبل وكأنهم تحرروا من قيدِ ما، صرخ صائد آمراَ إياهم بالرجوع مع سيل من التهديد والوعيد دون جدوى، شعر بغضب شديد وانتفخ بشدة أكثر من خمسة أضعاف جسمه، فارتفعت أصوات الرجال والنساء رعباَ، وتعالت صرخات الرعب لدى الأطفال، قبل أن يطلق زئيراَ قوياَ يقطع صمت الصحراء، طرق الأرض بقدميه فحدث زلزال شديد جدًا، ازداد رعب الجمع، صراخات متواصلة ممزوجة بإستغاثات وأدعية وتلاوة لآيات قرآنية... وابن زنبل يواصل تحذيراته لهم بعدم مغادرة الدائرة أو الوقوف.

طومان باي من داخل الدائرة فى مواجهة صائد:

- شايف الهزيمة فى عينيك... قصدي فى عين واحدة بس.

صائد بهدوء:

- أتهزأ بى؟!! أتعيب الخلقة أم تعيب الخالق؟

نظر طومان باي نحو ابن زنبل الذي قال:

- نفس أسلوب أخوه بركات.... شيطان بيدعو للفضيلة.

طومان باي:

- وإحنا جند الله للقضاء على الشياطين.

صائد بهدوء موجَّهًا حديثه لطومان باي:

- هلا سمحت لي بأن أحج معك لتتأكد أنني لست بشيطان ولا جان، إنما بشر مثلك؟

طومان باي:

- وهو في إنسان عادى بيركب حصان من نار وبيقود جيش من الوحوش.

صائد بالعربية الفصحى التى لا يتحدث إلا بها:

- كنت مضطر لذلك حتى أستطيع العيش وسط الصحراء.. لقد كرهنى البشر وكرهتهم حتى أوشكت على الإنتحار، فتركت حياة المدينة ولجأت للجبال وحيدًا، إنهم يتهمونني أنني المسيح الدجال لمجرد أن لي عين واحدة.. هل تصدق ذلك؟ أصلي مع المسلمين وأصوم رمضان معهم وأدخل مكة والمدينة المحرمتان على الدجال، وبالرغم من ذلك يتهمونني بهذا الإتهام المقيت..

لهث صائد قليلًا ثم قال بغصّة فى صوته:

- الكل يكرهني... الكل يتجنبني.. الكل يخاف مني دون أدنى ذنب لي...

أنا على يقين أ نني لو حججت البيت معكم وطُفت وسعيت ورجمت إبليس اللعين ثم عدنا في الطريق ستتهمونني أيضًا أنني المسيح الدجال..

ثم رقَّق صوته قائلًا:

- أريد أن أحيا حياة البشر، ولكنكم ترفضون وتصرون على أن تصنعوا مني وحش الصحراء الأعور المخيف.

ساد الصمت التام بين الجميع وبدا التعاطف من البعض وصائد يواصل وصدى صوته يتردد في الصحراء:

- فلتقبلوني أو لتقتلوني... لقد سئمت هذه الحياة، أنا بين الإنس عدو وبين الجن عدو!!

ثم رفع يداه إلى السماء قائلًا:

- رحماك يا الله من هذا العالم الكريه... رحماك يا الله.

تأثر طومان باي بكلماته ولكنه لا يزال خائفًا مترددًا وصائد يواصل:

- هيا أخرج أيها الأمير من الدائرة وإقتلني.. قدِّم لي معروفًا و إقطع رقبتي بسيفك هذا.. هيا يا أخي إصنع معروفًا فى أخيك المسلم وإقتلنى.

نظر طومان باي إلى ابن زنبل يستطلع رأيه، فهز الأخير رأسه بالنفي... في هذه اللحظة أفلت طفل صغير لا يتجاوز العامين يد أمه التي تأثرت بما تسمعه ولم تنتبه إلا وطفلها يعدو خارج الدائرة، حاول ابن زنبل الإمساك به ولكنه كان قد ابتعد، قفز طومان باي خطوة خارج الدائرة ليجذبه ثم عاد سريعًا عندما رأى صائد يحمل الطفل لأعلى فى حنان ويمسح رأس برفق قائلًا:

- عشاء الليلة.

صرخت أم الطفل بفزع عند سماعها للعبارة الأخيرة، اندفعت لتخرج من الدائرة ولكن بعض النساء أمسكوا بها وأرقدوها عنوة، إلى جوارها وقف والد الطفل يبكي فى يأس، مبتسمًا أدار صائد ظهره للجمع وسار متجهًا نحو الجبال، نظر طومان باي إلى ابن زنبل المرتبك ثم اندفع حاملًا سيفه لخارج الدائرة قائلًا:

- أترك الطفل وواجهني، أنا خرجت لك من الدايرة.

التفت صائد نحوه ثم أمسك بجسد الطفل بإحدى يديه ورأسه باليد الأخرى وشرع في ا نتزاع رأس الطفل ولكن طومان باي اندفع نحوه مسرعًا مشهرًا سيفه، ألقى صائد الطفل أرضًا، وتفادى ضربة السيف قبل أن يمسك برقبة طومان باي بقوة ويرفعه لأعلى بيد واحدة، هزّه بقوة فسقط السيف، حاول طومان باي الإفلات من قبضته ولكن الضغط على حنجرته كان قويًا، صاح الحجاج برعب ولطمت زوجته وجهها وامتزج نداء ابنته بالبكاء، ألقى صائد طومان باي أرضًا بقوة ثم أمسك بالسيف، حاول طومان باي النهوض.. ولكن الألم كان شديدًا فلم يقوَ على ذلك، اقترب صائد قائلًا:

- الوداع الوداع الوداع.

كالبرق اندفع ابن زنبل لخارج الدائرة، وقف بينهما قائلًا بثبات:

- اتركنا وإرحل يا صاد.

نظر إليه صائد بتعجب قبل أن يقول:

- صاد؟!! تعلم عني الكثير يا ابن زنبل.

ابن زنبل:

- إتركه وإرحل لجبالك الوعرة... وأتركنا إحنا كمان نؤدي فرض الله.

صائد بإبتسامة:

- لو قتلتكم سيكتب لكم أيضًا ثواب الحج.

ابن زنبل لاهثًا:

- لو أردت إقتلني أنا... أ نا وحيد لا زوجة ولا أبناء ومش هيحزن حد عليّا.
- سأقتلكم جميعًا.

جاهد طومان باي كثيرَا حتى نهض مرة أخرى، وقف إلى جوار ابن زنبل، رفع صائد سيفه قائلًا:

- أبدأ بمين؟

دار ابن زنبل حول صائد برشاقة قائلًا:

- إبدأ بيّا أنا الأول.

ثم ألقى ابن زنبل بسرعة خاطفة قبضته نحو وجه صائد فأفرغ كل الرمال التي كانت بيده في عينيه، صرخ صائد مترنحًا وهو يتعسّس حوله كالكفيف، جذب ابن زنبل طومان باي وحمل الطفل الصغير وهرولا لداخل الدائرة مرة أخرى بأمان، تهلَّل الحجاج فرحًا بسلامتهما، قفزت الطفلة نحو أبيها واحتضنته بقوة شديدة وسعادة.

تعالت صرخاته وعواءه في الصحراء فإرتعدت الوحوش المفترسة، ومع بزوغ أول ضوء للشمس ارتحل المحمل الشريف إلى الأراضي المقدسة في سلام.

****

١٩- هجوم ابن موسى

عاد المحمل الشريف سالمًا، استقبل أهل القاهرة الحجاج في الريدانية بالزينة والأعلام، نزل طومان باي عن دابته رغم مشقة السفر ليتقبل التهاني من العامة بكل ود وتواضع، سألهم عن أحوالهم في غيابه فأخبروه أن الفساد عمّ البلاد كما لم يحدث من قبل، إحتكار السلع زاد من ثمنها للضعف والضعفين، بالإضافة إلى زيادة الضرائب والمكوس ومصادرة أملاك الأغنياء وإقتطاع أرزاق الفقراء، أما الأسوأ فهو صكّ عملة جديدة قيمتها أقل من العملة المتداولة بمقدار الثلث.

احتفالية بسيطة أقامها السلطان كما جرت العادة عند وصول المحمل، صعد طومان باي للقلعة وبعد ترحيب السلطان قال بحدة:

- ما جعلنا الله حكامًا وسلاطين إلا من شان نعطي الناس حقوقهم مش ناخدها منهم.

ظهر الإحتقان الشديد على وجه الغوري فنظر إلى بركات بن موسى الذي رفع كفيه بما يفيد أن لا شـأن له، ترك الغوري المجلس غاضبا، وفي اليوم التالي أصدر أوامره بتكليف الأمير طومان باي بالتوجه لناحية البحيرة لصد هجوم العربان الذين أفسدوا الزرع وحرقوا المحاصيل وخربوا المدينة عن آخرها.

****

سافر طومان باي إلى البحيرة برفقة ابن زنبل الرمال والأمير علان الدوادار الثاني - دول مش عربان متمردين!! دى مخلوقات غريبة ما شوفنهاش قبل كده.

قالها الأمير علان في خضمّ المعركة التي انتهت بإنتصار طومان باي ورجاله، نظر الأخير نظرة ذات مغزى لابن زنبل ذو العيون الذابلة بسبب قلة النوم وقال:

- بركات بيحاربنا عن بعد بإستخدام شياطينه.

ابن زنبل:

- ولكنهم ضعفاء جدًا.. إنت انتصرت عليهم بسهولة.

طومان باي:

- بفضل الله ثم بفضل علومك.

ابن زنبل:

- وشجاعتك إنت وفرسانك وثباتك أمام إللى عاملين نفسهم عربان متمردين.. ألفين متمرد لهم نفس الشكل والهيئة كأنهم توائم!! فكرونى بجنود صائد.

ما إن عاد طومان باي وقبل أن يسترد قوته وعافيته حتى أمره السلطان بحماية صعيد مصر من الفتنة التى وقعت بين قبيلتي بني كلب وبني عدي فحصدت أرواح كثيرة من الطرفين وأهلكت الحرث والنسل، حتى الغلال فى سنابلها لم تجد من يحصدها، فلا شئ يحصد إلا الرووس، ولا شئ يجمع إلا الجثث، تساقطت الفواكه عن الأشجار وعطبت الخضر ولم تجد

من يجمعها، كان الأمر جدَّ عسير.. فالعصبية القبلية ومبدأ الثأر هما سيدا الموقف فى الصعيد، وفى حين كان طومان باي يجاهد فى الجنوب للحفاظ على وطنه كان بركات يصطنع العديد من الضرائب الجديدة فى الشمال ويرسل جنوده لجمعها قسرًا وقهرًا.

عجز الفلاحون في شرق البلاد وغربها عن سداد الضرائب.. فقبض رجال بركات عليهم وعلى نساءهم وأطفالهم وأرسلهم مغلولين إلى السجون.

فسدت البلاد والسلطان لا يزال مشغول للغاية في مشاهدة تناطح الثيران والكباش ومصارعة الديوك والضحك على المهرج السمين علي باي.

لم يستيقظ السلطان من غفلته إلا على خبر وفاة صديقه بايزيد سلطان الدولة العثمانية. بكى الغورى بشدة وبكت مصر كلها، صلى الجميع صلاة الغائب على السلطان الذى عانى فى آخر أيامه من جحود أصغر أبناءه سليم الذى عزله عن الحكم وحدَّد إقامته حتى مات كمدًا وتصارع على الحكم مع إخوته قرقد وأحمد، فقتلهما وذبح كل أبناءهما وزوجاتهما، حتى الأطفال الرضع لم يسلموا من الذبح.

عاد طومان باي من الصعيد ليستمع إلى المهازل التي حدثت في غيبته، حتى أن السلطان نسي ولأول مرة أن يعفو عن السجناء الغارمين كما جرت العادة فى هذا الوقت من كل عام، حاول مقابلة الغوري ولكن الأخير رفض دون سبب.

****

٢١ ذو الحجة ٩١٨ هـ :

قرارات تعسّفية أكثر ظلمًا يصدرها بركات يفتقر منها الغني ويزداد الفقير فقراَ.. تندلع معها ثورة الغضب بين جموع الشعب المصرى الذى أرهقه الفقر والجوع، عند الظهيرة يزداد اشتعال الثورة بإنضمام بعض المماليك إلى الشعب، حاصر الثوار القلعة وقد أقسموا على ألا يتراجعوا إلا بعد القضاء على شيطان القلعة بركات ابن موسى... أرسل بعض الأمراء رسلهم يبشرونهم بإنضمامهم للثورة ويطلبون منهم القفز على القلعة والفتك ببركات وهم سيقدمون لهم يد المساعدة من الداخل.

مر أسبوع والقلعة محاصرة، الخوف والقلق يسيطران على الغوري، والثبات والهدوء يحيطان ببركات الذى تحدَّدت إقامته الجبرية بداخل القلعة من قبل الثوار، طومان باي وابن زنبل فى انتظار ما ستسفر عنه الأحداث.

الاثنين ٢٨ ذو الحجة ٩١٨ هـ :

عند الظهيرة أرسل الثوار إنذارهم الأخير للسلطان عبر الشيخ أبو السعود إمام وشيخ مسجد كوم الجارح : "سنقتحم القلعة ونخربها عن آخرها، أمامك حتى الإنتهاء من صلاة العصر، سلمنا بركات تنتهي ثورتنا وتعود الأمور كما كانت، وإلا فدماءكما مباحة"

قرأ السلطان الرسالة فارتعدت أوصاله، انتزعها بركات من يديه وألقاها فى وجه الشيخ قائلًا:

- وإحنا فى انتظاركم.

عاد الشيخ أبو السعود بالرد لتشتعل الثورة أكثر، تغلي الدماء فى عروق الثوار، تتعالى الهتافات المطالبة بسقوط بركات والسلطان معًا، يهمس طومان باي لابن زنبل الرمال:

- هأكتفي بالحفاظ على حياة السلطان.
- وأنا جهزت خطة للقضاء على بركات بمجرد هجوم الثوار.

أذَّن المؤذن لصلاة العصر، توقفت الهتافات الحماسية، وإصطفَّ الناس فى صفوف متفاوتة لآداء الصلاة، الهجوم عقب الصلاة سيكون قوياً شرسًا عنيفًا..

انتهت الركعة الثانية، قام الإمام من التشهد الأول مكبرًا تكبيرة الركعة الثالثة عندما خسفت الشمس خسوفًا عجيبًا دون مقدمات أو أسباب علمية، أظلمت السماء فجأة ظلامًا فاحشًا، حدَّث الإمام نفسه: أعصر هذا أم عشاء...؟ كان هذا هو الخسوف الأغرب للشمس، تحوّل نهار القاهرة إلى ليل، الظلام الدامس هو سيد الموقف، تحول الثوار كل إلى داره متعسسًا الطريق فى صمت، ولكن الريح العاصف الشديد المحمل بالبرد تلاعبت بهم قليلًا كما يتلاعب الصياد بفريسته الكفيفة.

السبت ٤ محرم ٩١٩ هـ :

هدأت الثورة ولكنها لم تخمد، فمع بداية العام الهجري الجديد كان هناك الكثير من القرارات والأوامر التعسفية الجديدة التي ضغطت على عنق الشعب بقوة فعاود ثورته.. خرجت مسيرة حافلة تطالب بعزل بركات وعزل السلطان الذي تجاوز الثانية والسبعين من عمره ويبدو أنه قد

أصابه الخرف، مما أعطى الفرصة للمحتسب ليتلاعب بالسلطنة كيفما شاء،

نزل الأمراء إلى صفوف الثوار، القصر محاصر من الخارج ومحاط من الداخل، يستنجد الغوري بطومان باي للسيطرة على الأمراء المنقلبون فجاء رده:

- إعزل بركات بن موسى يستقيم لك الحال.

يستدعي ابن زنبل الرمّال فيقول بحكمة:

- أنا معاك طالما الحق معاك.. فلو تركته تركتك.

يوافق السلطان على مضض على عزل بركات ولكن الأخير يطلب من السلطان مهلة يوم واحد فقط لخمد الثورة واعدًا السلطان بعزل نفسه إن لم تخمد الثورة تمامًا وإلى الأبد.

الأحد ٥ محرم ٩١٩ هـ :

استمر حصار القلعة لليوم الثاني على التوالي.. مطالب الثوار ارتفعت لتصبح رأس بركات بن موسى وليس الإطاحة به فقط... علا الهتاف فهزّ جنبات القلعة:

- لن نغادر القلعة ... حتى نقتل الأفعى.

علت الهتافات، علا طرق الثوار الأرض بأقدامهم، وطرق سور القلعة بأياديهم... إرتجف قلب السلطان، ابتسم بركات، سقط أحد الثوار أرضًا مرتجفًا بشدة، أصابته حمى مفاجئة، راح يرتعش بشدة قبل أن يفارق

الحياة سريعًا، تلاه آخر.. ثم آخر.. ثم آخرون، توقف الهتاف والطرق!!
صرخ أحد الثوار:

- الطاعون رجع تاني.... الطاعوووون رجع.

كانت هذه العبارة كفيلة بتفرق الثوار متقهقرين، عاد أقلهم لمنازلهم، بينما تناثرت جثث أكثرهم في الطرقات، استمر الطاعون لعدة أيام يعصف بالآلاف دون رحمة.

الإثنين ٢١ محرم ٩١٩ هـ :

بالرغم مما حدث، عاد عدد قليل جدًا ليتظاهر مرة أخرى حول القلعة.. فبدأت أعداد الثوار تزداد مرة أخرى، تم فتح أبواب القلعة من الداخل للثوار، اندفعوا بهيسترية حاملين ما بدا لهم من مختلف الأسلحة ولكنهم ما أن توسّطوا ساحة القلعة حتى دبّ زلزال شديد جدًا وهبَت معه ريح سوداء شديدة محملة بالطاعون مجددًا فتساقط القتلى تباعًا، البعض فرّ من القلعة ومَن حاول الثبات شعر بزلزال آخر قبل أن يأتي الزلزال الثالث العنيف الذى تصدعت معه أحد أسوار القلعة.

ليتفرق آخر مَن تبقى مِن الثوار.

صباح الجمعة ٢٥ محرم ٩١٩ هـ :

وقف الشيخ أبو السعود يخطب في الأعداد الغفيرة الثائرة من الشعب والمماليك والأمراء بساحة دار الأمير طومان باي بفصاحة:

- هكذا إبتلانا الله بالطاعون والزلازل والفقر والقحط لسكوتنا على الظالم بركات، ولا بديل أمامنا إلا بتسليم روحه لملك الموت، اليوم يوم الملحمة، سوف نصلي الجمعة بـبركة الرطلي ثم نتجه جميعًا لدار المحتسب، سنغلق الأبواب والنوافذ من الخارج ثم نشعل النيران في الدار وصاحبها، ولا نتركها إلا رمادًا.

أحد الأمراء:

- ولو هرب أثناء الصلاة نعمل ايه؟!

ابن زنبل بهدوء:

- ما تقلقش.. أنا عملت إحتياطاتي.

عقد الأمير حاجبيه بعدم فهم، فواصل ابن زنبل وهو يلوِح بزجاجة بها سائل أزرق:

- أنا أضمن لكم عدم خروجه من داره.

أحد الثوار بحماس:

- هنقتله النهاردة حتى لو اتزلزلت الأرض وخسفت الشمس وقتلنا الطاعون واحد واحد.

على الجانب الآخر ببركة الرطلي.. كان محمد بن إياس يهرول نحو دار بركات ليحذره من المؤامرة الجديدة.

قبل صلاة الجمعة بنحو الساعة سقطت أمطار غزيرة بدأت بقطرات مياه ثم تحوّلت لمياه مختلطة بحصاة قبل أن تتحوّل إلى حجارة صغيرة بحجم

حبة البندق تساقطت على البيوت والشوارع والمحلات بقوة وغزارة !!!!

سالت دماء مَن لم يسعفه الوقت فى الفرار، توارى الثوار في منازلهم، حبس الجميع نفسه متجنباَ أمطار الحجارة التي تتساقط من السماء بقوة، لم يستطع أحد الخروج ولم يؤذن لصلاة الجمعة في أي مسجد من مساجد القاهرة، تواصل المطر بهذا الشكل الغريب إلى ما قبل الغروب، وبداخل داره كانت أسنانه تشع بياضًا وهو يبتسم إبتسامة النصر... نظر إليه ابن إياس بسعادة قائلًا:

- أشهد أن الحاج بركات بن موسى أحد أولياء الله الصالحين.

بركات بهدوء:

- أكتب ده فى دفاترك يا ابن إياس علشان الأجيال الجاية تعرف أد ايه أنا خدمت الوطن.

****

انتصف الليل.. خرج من حجرة العلوم توضأ وصلَّى ركعتين قبل أن يخلد إلى النوم، الإرهاق والضغوط العصبية والنفسية والعلمية جعلوه يذهب في سبات عميق سريعًا، راحت أنفاسه تتلاحق، أصدر غطيطًا قويًا، بعض الكوابيس تزحف بداخل رأسه، ولكن الكابوس الحقيقي كان يزحف بالردهة، متجهًا إلى حجرته، ثعبان أسود ضخم حالك السواد من النوع المسمى " أناكوندا "، هذا النوع الغير موجود ببر مصر على الإطلاق يزحف الآن ببطء نحو حجرة ابن زنبل، الأبواب والنوافذ موصدة بإحكام شديد، لا يوجد أي ثغرة تسمح بمرور دودة لداخل الدار، كيف توغَّل هذا الثعبان البشع...؟! دفع رأسه باب الحجرة فإنفتح قليلًا، عبر للداخل، زحف نحو

سرير ضحيته بهدوء.. وما أن اقترب حتى رفع رأسه ليستكشف ذلك النائم ذو الغطيط المزعج، تحت ضوء السراج إلتمع سواد جلده ذو اللون الأبانوسى، دار حول السرير نصف دورة قبل أن ينفخ أوداجه، شدَّ قامته للأعلى، فتح فكيه بوحشية ثم هبط بقوة نحو النائم المسكين.. ليسطر آخر لحظة فى حياة ابن زنبل الرمّال.

ولكن ما هذا الحاجز الوهمي الذي يعيقه عن الوصول إلى النائم؟ حاول الثعبان إختراق الحاجز، فلم يستطع... تحرك يمينًا ويسارًا بعصبية... ازدادت محاولاته الفاشلة فازدادت حركته العصبية... تراجع للخلف واندفع مرة أخرى ولكن الحاجز كان صلدًا، راح ينهش الحاجز الغير مرئي بقوة لعله يفتح ثغرة ما.. ولكن هيهات، لم ييأس.. واصل طرق رأسه بالحاجز بقوة شديدة جدًا راحت أنيابه وأجزاء من رأسه تتطاير وتتناثر أشلاء وهو يواصل الطرق إلى أن انفجرت رأسه تمامًا.

****

٢٠- عصر جديد

توغل الطاعون بفحش غير مسبوق، هرب البعض إلى المدن الساحلية، وهرب البعض الآخر إلى الطور لكونها من البلدان الآمنة التي لا يدخلها الطاعون، أما من بقي بالقاهرة أدركه الطاعون ففتك به أو أدرك أحدًا من أهله، أصبحت مدينة الموتى.

شهدت القاهرة جنازة الأمير العثمانى الشاب سليمان ابن أحمد حفيد السلطان العثماني السابق بايزيد نتيجة الطاعون، كان قد فرّ من عمّه السلطان سليم الأول عندما أمر بقتل كل أبناء اخوته، فرّ من قضاء الله لقضاء الله، لعدم وجود مشيعين بسبب غربة الميت وخوف الناس من الطاعون، كانت الجنازة أقل من العادية.. فالنعش حمله ثلاثة فقط أحدهم شقيقه الأمير علاء الدين الذى مات بعده بأيام معدودة نتيجة الطاعون أيضًا، عدد الموتى لا يعد ولا يحصى.. ولكنه لم يقل يوميا عن ثلاثة آلاف شهيد.

سنَّ الناس عادة غريبة وهى صبغ كفوف وأقدام البنات المتوفيات بالحناء عند تغسيلهم ووضع طرحة زفاف فوق النعش..

توقفت كل مظاهر السعادة، لا زواج ولا أفراح ولا احتفالات، تحوّلت القاهرة لمدينة بشعة لا تعرف إلا الموت والأمراض والأحزان والفقر.

ضاق صدر السلطان الغوري بما يحدث فى وطنه، فتقرب إلى الله وتضرع لرفع البلاء، وقف بنافذة القصر تسيل دموعه رغمًا عنه وهو ينشد:

- **يا مَن لا يوصف بالظلم والجور   إرحم عبدك قنصوة الغوري**

تزداد همومه أكثر بإرتخاء جفن عينه اليسرى، رأى الأطباء والكاحلين ضرورة قصّ جزء من الجفن حتى يتمكن من الإبصار بها، ولكنه خاف وتراجع.

****

طرقات قوية على الباب أفزعت ابن زنبل!!

فتح الباب ووقف طويلًا يحدق فى وجه الضيف فى صمت قبل أن يقول الأخير:

- تأذن لي بالدخول؟

انتبه ابن زنبل من غفلته التى حلَّت عليه وهو ينظر لوجه ضيفه مشيراَ له بالدخول:

دخل السلطان الغوري منفردًا واضعًا عصابة سوداء على عينه اليسرى، جلس على أقرب مقعد قائلًا:

- رؤيا غريبة شوفتها، مش عارف كانت حلم ولا حقيقة، عاوزك تفسّرها بكل أمانة زى ما عاهدتنى يا ابن زنبل.

ابن زنبل بهدوء:

- إتفضل قول رؤياك.

تنهّد الغوري بشدة قبل أن يقول:

- شوفت إني فى صحراء بعيدة معرفش مكانها، لكنى فى الرؤيا كنت عارف إنها مش فى مصر، كان معايا كل الأمراء والجنود، الجو حار والشمس ساطعة، فجأة غابت الشمس وحلّ الليل فوجدت نفسي وحيد محدش جنبي.. إمتلأت السماء بالنجوم وصار القمر بدر كبير بينوّر السماء بضياءه وفجأة سقطت النجوم كلها واحدة ورا التانية، ثم سقط القمر فأظلمت الأرض والسماء من حولي.

انتهى الغوري من سرد رؤيته، فنظر لإبن زنبل بقلق قائلًا:

- إيه تفسير الرؤيا دى؟ قول وبلاش تخفي شئ.

صمت ابن زنبل لفتره طويلة محدقًا فى وجه الغوري، ثم أغمض عينيه قليلًا قبل أن يطلق زفرة قوية قائلًا:

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

بدأ القلق والتوتر على وجه الغوري وهو يقول:

- الظاهر إن الفال مش كويس.

ا بن زنبل وهو ينظر أرضًا بخجل:

- أيوة... تأويل رؤياك يقول كده.

الغوري بهدوء:

- وإيه هو تأويل الرؤيا؟!!

- آن الأوان لنهاية دولة العصر والزمان.

الغوري:

- قصدك إن دي هى نهاية حكمي؟!

ابن زنبل بأسى:

- لأ دي نهاية الدولة كلها.. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

- والحل إيه؟!!

- النهايات الجميلة تمحو أخطاء البدايات.

- قصدك إيه؟!!

- إرفع الظلم عن الناس، حتى إذا جاءت النهاية جاءت وإنت فى جانب الحق.

****

تعود العلاقة بين ابن زنبل الرمّال والسلطان الغوري إلى بداية عهدهما فلا يصدر أمرًا أو مرسومًا إلا بموافقته، يلحقه السلطان بوظيفة فى نظارة الجيش ويجعله المسئول الأول عن تسليح الجند.

ينزل السلطان إلى الأسواق والشوارع والطرقات يواسي الثكلى واليتامى.. يشارك الناس أحزانهم التى لم تنطفئ، يتقرب من الله.. فيتقرب من الشعب، يقرر إبطال ضريبتي المشاهرة والمجامعة، وإلغاء كافة الضرائب والمكوس التى فرضها المحتسب بركات بن موسى، يأمر بتسعير السلع، يظهر العدل ويبطل الظلم؛ وكأنه ولد من جديد.. يشعر السلطان الغوري براحة وصفاء نفسي، يوافق على كل طلبات ابن زنبل، يفرج عن كل المساجين حتى اللصوص يستتوبهم ويعطيهم بعض المال ليبدأوا حياة جديدة شريفة، يعفو عن جميع خصومه السياسيين ، يعفو عن كل مَن نفاهم سواء لخارج مصر أو للواحات أو للصعيد ويكرمهم، يعيد كافة الحقوق لأصحابها، ينادي المنادي فى الشوارع :

- " يا أهل مصر... بأمر من السلطان الغوري لا ظلم بعد اليوم، وكل من له مظلمة فليذهب إلى القلعة ليسترد حقه "

بالعدل يعود للقاهرة حسنها وجمالها، تتنفس المدينة المخنوقة، تزدهر من جديد، تتفتح ورودها وأزهارها، تتزين شوارعها وميادينها، تعود الإبتسامة والسعادة على وجوه العامة.

يسعد السلطان بذلك ويتمنى أن تزداد سعادته بشفاء جفن عينه اليسرى، يقطر ابن زنبل سائل شفاف كالماء فى عين السلطان كأحد أنواع العلاج، ويطلب منه الذهاب للخليفة السابق المتمسك بالله يعقوب لطلب العفو والصفح منه؛ حيث سبق وأن قال له الغوري يوم عزله: " أنت لا تصلح

للخلافة؛ لأن نظرك ضعيف "، يسامحه المتمسك بالله فيَقبَل الغوري رأسه ويتعانقان فى ود كبير.

بإيعاذ من ابن زنبل وطومان باي يقرر السلطان عزل بركات بن موسى من منصب المحتسب، يغضب ابن إياس بالوكالة عن بركات فيذم السلطان قائلًا:

- **سلطاننا الغوري غارت عينه لما اشترى ظلم العباد بدينه**

يستيقظ الغوري لآداء صلاة الفجر فيجد عينه قد طابت تمامًا وذهب ما كان بها، يسعد لذلك ويقيم إحتفالية كبرى عبارة عن تلاوة القرآن الكريم وذكر سير الأولين ويقيم مسابقة فى الأسئلة الفقهية العسيرة والشعر والأدب.

يصعد ابن إياس إلى القلعة ويمدح السلطان قائلًا:

- **بعافيه السلطان قرت عيوننا ونال الورى منه بلوغ المقاصد**

قالوا به عين أصابت عينه فلما شفت غارت عيون الحواسد

إبتسامة ساخرة جميلة ترتسم على وجه ابن زنبل الرمال وهو يحدِّق فى وجه الرجل الوطني محمد بن إياس!!! انتصر ابن زنبل بمساعدة طومان باي لوطنهما بإقامة العدل على الشر الصامت، وإن كان صمته يدعو للقلق.

يمر عامًا كاملًا والناس بين رخاء وسعادة، وفجأة!!

صباح الإثنين ١١ جماد الأول ٩٢٠هـ :

كان المنادي يمر من أمام الناس الذين بدوا كالمسحورين وهم يسمعون نداءه:

" يا أهل مصر... أمر السلطان الغوري بتعيين بركات بن موسى إستادار للذخيرة"

****

عاصفة من القلق تجتاح القلعه من السلطان الجديد لدولة الروم سليم الأول، فهذا الأخير بالرغم من كونه أصغر أبناء السلطان بايزيد.. إلا أنه تجرأ على والده وقام بعزله حتى مات كمدًا، ثم أقام مذبحة لأخويه أحمد وقرقد ولأبنائهم.. حتى الرضع لم يسلموا من الذبح، وما أن إستتب له الحكم حتى بدأ يناور الممالك المجاورة له ويضمها إليه، كان أكثر ما تعجب له الغوري أن السلطان سليم أعطى ظهره للفرنجة وأوقف سلسلة الفتوحات التى بدأها أجداده وتسلَّط على البلاد الإسلامية الصغيرة المجاورة له فضمها إليه ثم توجّه إلى محاربه الصفويين، لا شك أن الغوري لطالما تمنى زوال الدولة الصفوية التى كانت مصدر تهديد له طوال حكمه، ولكنه لم يتمنى زوالها على يد سليم الأول.

طومان باي:

- شايف ايه فى أمر سليم ابن عثمان؟

ابن زنبل:

- كل الشر.

طومان باي بهدوء:

- رأيك ده ولا رأي رمالك؟

ابن زنبل بحدة:

- للأسف.... رأي رمالى.

طومان باي بقلق:

- والحل؟

ابن زنبل بنفس الحدة:

- بتسألني عن الحل وكأن أنا السلطان.

صمت طومان باي، فواصل ابن زنبل حديثه بغضب وبأسلوبه المسرحى الشهير وهو يلوِح بذراعيه:

- روح لعمك السلطان هناك فى القلعة وإسأله عن الحل؟ كل ما نتقدم خطوة يرجّعنا السلطان وشيطانه بركات ١٠٠ خطوة.. وكأنهم بيكرهوا وطننا، دا إحنا استبشرنا خير لما بدأنا مع السلطان تصحيح المسار من جديد، لكن بركات سيطر عليه تاني، وأقنع السلطان بتعيين محمد بن الغوري الطفل الصغير فى منصب النائب، من شان لما يموت الأب يسيطر بركات على الابن.

طال صمت طومان باي على غير عادته قبل أن يقول:

- مصر مش هتستعيد قوتها طول ما أعداءها ولاة أمرها، الصبي الطايش ابن السلطان مش هسمح بجلوسه على عرش السلطنة حتى لو استدعى الأمر لقتله، مش هنعيد عصر محمد بن قايتباى بعد ما غار بشروره.

ابن زنبل بعصبية:

- مش عارف هنتصدى لسليم العثمانى فى الشمال، ولا للفرنجة فى البحر، ولا لأساطيل البرتغاليين فى الجنوب، ولا للصفويين فى الشرق، ولا لبركات فى الداخل؟!!... لك الله أيها الوطن المتحضر.

****

إجتماع طارئ بالقلعة بناءاَ على أوامر السلطان الغوري حضره جميع الأمراء الأربعة والعشرون الكبار أصحاب الطبلخانات لمناقشة أمر السلطان العثماني سليم الأول الذي يحشد قواته على حدود الشام لغزو دولة المماليك.

الأمير كرتباي:

- أنا شايف إن سليم أضعف من إنه يفكر في محاربتنا.. أبوه السلطان بايزيد كان أقوى وأشد منه.. ولما اشتبك معانا في عهد السلطان الراحل قايتباي هزمناه أربع هزايم مخزية اضطرته للبكاء والتوسل لسلطاننا لإنهاء الحرب، ولولا طيبة قلب السلطان قايتباي لكنا أفنينا أبناء عثمان عن آخرهم.. من شان كدة أنا واثق من خوف سليم العثماني من قوتنا وشدة بأسنا، إحنا الراجل منا برجال.

الغوري بتروي:

- يعنى شايفين إيه؟... نحارب ولا لأ؟

طومان باي بهدوء:

- لأ ... لحد ما يعلن هو الحرب.

أدار الغوري رأسه نحو الأتابكي سودون العجمي مستطلعًا رأيه، فقال هذا الأخير:

- أنا شايف إننا لازم نحتاط، خاصة إن أكتر من نص قوتنا بتدافع عن المسلمين في الهند وفي الشرق، وأغلب أساطيلنا البحرية بتواجه البرتغاليين في بحر العرب، فلو دخلنا المعركة هندخلها بأقل من ربع قوتنا.

كرتباي وهو يشير نحو سيفه بعصبية:

- على حصاني وبسيفي ده إعطوني ١٠٠ جندي بس وأتركونى أواجه الجيش العثماني وهرجع لكم برأس المعتوه سليم.

الأتابكي سودون العجمى:

- نعلم مدى شجاعة وقوة الأمير كرتباي... لكن ما ينفعش نبدأ الحرب مع سلطان مسلم وجيش مسلم إلا لما يبدأ من شان يكون هو الباغي.. ده إللى إتعلمناه فى مدارس الفروسية وإحنا صغار.

الأمير أركماس بهدوءه المعهود:

- مش هنبدأ الحرب، لكن سليم لازم يشوف قوَتنا.

الغوري متخذًا قراره بعد تفكير عميق:

- خلاص كده.. أنا قررت أنتظر لما يبدأ هو.

كرتباي:

- دولتنا إللي قضت على التتار وكنست الصليبين من البلاد الإسلامية، من العار إنها تصمت على تجاوزات ابن عثمان، لازم نعطيه درس في إحترام الفرسان.

الغوري بحدة:

- أنا مستحيل أهاجم دولة إسلامية إلا لو بدأت هي بالهجوم، ننتظر لعله يتراجع.

انفضَّ الإجتماع على ذلك، وفي اليوم التالي كان هناك إجتماعًا أخر لنفس

الأمراء فور وصول رسالة إلى السلطان الغوري من السلطان سليم الأول.. قرأ الغوري الرسالة فتجهَّم وجهه وصمت طويلًا قبل أن ينتزع كرتباي الرسالة ويقرأ محتواها بصوت جهير:

- من السلطان سليم الأول ابن السلطان بايزيد ابن السلطان محمد الفاتح ابن السلطان مراد حتى عشرين سلطانًا من هذا النسب الشريف إلى الغوري لا أعلم ابن مَن.. إرجع عمّا أنت فيه من الظلم وإلا جئتك بجنودي وخربت مصرك عليك "

طوى كرتباي الرسالة بعصبية قائلًا:

- أهو بدأ الحرب.

اشتعل الغضب في رؤوس الأمراء وتعالت أصواتهم طالبين تلقين ابن عثمان درسًا في الأخلاق حتى يتأدَّب عند مخاطبته لسلطان مصر والشام، لم يرجِّح الغوري هذا الرأي، وبالرغم من ذلك انتهى الأمر إلى خروج السلطان على رأس حملة كبيرة للشام وإنتظار ما سيفعل سليم ابن عثمان، فإن نوى حرب كنا لها.. وإن نوى سلامًا فهذا أأمن له.

بدأت الإعدادات للحملة سريعًا.. استدعى السلطان ناظر الذخيرة بركات بن موسى الذي عرض عليه كل أنواع الأسلحة الحديثة من بنادق ومدافع، بالإضافة إلى الأسلحة التقليدية من سيوف ورماح.

بخجل مصطنع قال بركات:

- لو أراد السلطان الحرب دلوقتى ف إحنا على أتمّ الإستعداد، ولكن.....

الغوري:

- ولكن إيه؟

أشار بركات إلى شاب يرتدي جلباب وعمامة الأزهر الشهيرة، فتقدم منهما وبركات يواصل:

- الشيخ محمود بن عبد البر بن الشحنة إمام المذهب الحنفي إتكلم معايا فى مسألة فقهية مهمة وأنا طلبت منه يعرضها على السلطان بنفسه.

نظر الغوري إلى الشيخ محمود الذي لم يتجاوز العشرين من عمره قائلًا:

- كان أبوك من خيرة العلماء.. من شان كده لما طلب مني بركات تعيينك بعد منه في نفس المنصب وافقت فى الحال.

هز محمود رأسه في رضا وعرفان قائلًا:

- أطال الله عمر السلطان.

الغوري ملوِّحًا بيده:

- قول إللى عندك.

الشيخ محمود بلغة عربية فصحى:

- لقد رأيت المكاحل والبنادق مع الجنود، وهي من أسلحة الغدر والخسة التي تقتل عند بُعد، فلا فرق بين الشجاع والجبان والفارس والرعديد... وكم غمّني علمي أن بهذه الأسلحة سيتقاتل بها جيشان مسلمان.

الغوري بحدة شديدة:

- اختصر.... عاوز تقول ايه؟

بلَّل محمود شفتيه بلسانه قبل أن يقول:

يقول الله عزوجل "وأعدَّوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم" .... ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار".

أنظر إلى الآية الكريمة لقد أمرنا الله عند قتال الكفار بإستخدام ما استطعنا من قوة سواء كانت بنادق أو مكاحل، أما عند اقتتال المسلمين لبعضهما فيجب أن يكون بالسيف فقط كما أشار الحديث الشريف.

الغوري:

- تقصد ايه برأيك ده؟!

- أعني إنك يجب أن تواجه جيش ابن عثمان بالسيف فقط، ولا يحق لك محاربته بسلاح الغدر والخسة الذي جعله الله على رقاب الكافرين فقط.

الغوري بعصبية:

- خلاص انتهيت ولا لسه عندك كلام تانى؟

محمود بخجل:

- نعم انتهيت.

الغوري وهو يشير بيمناه نحو الباب:

- أظنك ما سمعتش قبل كده من والدك إنى كنت بمتحن العلماء فى المسائل الفقهية وإنى كنت بغلبهم.

****

يستعد الجيش ويتهيأ للخروج إلى الشام، تنصب خيام الجند بالقرب من الريدانية، يعلن الغوري أن الرحيل الجمعة القادمة فلا يتخلف أحد....

كانت خيمة السلطان بالمعسكر كخلية نحل أمراء ومماليك وجنود وكل من له رأي أو وجهة نظر في أمر ما يعرضها على السلطان والأخير يستمع إلى الجميع ويتناقش بحرية تامة، انفرد ابن زنبل بالسلطان فترة ليست بالقصيرة.. تبعه بركات بن موسى، ثم عاد ابن زنبل وجلس مع السلطان في سرية تامة!!

خرج ابن زنبل من الخيمة بمجرد دخول بركات الذي انفرد سراَ بالسلطان إلا أنه لم يطل مجلسه فخرج على الفور عابسًا وعلى وجهه علامات الغضب بعدما أصر السلطان على استخدام المدافع والبنادق.

مساء الخميس ٢٠ ربيع ثان ٩٢٢ هـ

شبت النيران في خيمة السلطان فجأة فأجهزت عليها، قيل أن شرارة انطلقت من مكان ما لمست الخيمة فأحرقتها بالكامل في طرفة عين، اطمأن الأمراء على سلامة الغوري الذي وثب لخارج الخيمة مسرعًا قبل أن تلتهمه النيران. ثم انفرد به بركات بن موسى للمرة الأخيرة.

(يوم الرحيل) صباح الجمعة ٢١ ربيع ثان ٩٢٢ هـ

وقف الغوري يخطب في الجمع معلناً آخر قراراته وأوامره:

" أعلن أنا قنصوة الغوري سلطان مصر والشام والحجاز إنني وهذا الجيش العظيم سوف نرحل إلى الشام للنظر فى أمر ابن عثمان، فإن أراد خيراَ

فنحن معه وإن أراد شراَ فنحن له، ولن نبدأ الحرب أبدًا ولن نستخدم سلاح الغدر والخسة ضد المسلمين أبدًا، لذلك فسوف نرحل دون المكاحل والبندق وسنكتفي بسيوفنا وسهامنا فقط "

تطلع الأمراء لبعضهم البعض والسلطان يواصل:

" كما أعلن أ ننى قررت تعيين الأمير طومان باي نائبَا للغيبة يخلفني في السلطنة لحين العودة... وله كل ما لي من إصدار القرارات والأوامر والمراسيم، وله أن يولِّي مَن يشاء ويعزل مَن يشاء بإستثناء بركات بن موسى، فلا يحق لطومان باي عزله عن مناصبه، كما قررت إعادته مرة أخرى لمنصب المحتسب "

غضب طومان باي بشدة، فهو الفارس الذي لا يطيق البَعد عن المعركة، كما إن وصية السلطان يجب أن تنفذ فكيف سيتعامل مع الشيطان بركات؟

بعد صلاة الجمعة كان الرحيل.. ودَّع ابن زنبل السلطان بتقبيل يده ورأسه ثم عانقه بشدة، كان يحاول مواراة دموعه عندما قال له السلطان :

- فاكر الرؤيا؟!!
- أيوة فاكرها
- هل أنا راحل لتفسيرها؟!

سالت دموعه في إنسيابية، وتلجم لسانه فلم يستطع الرد، والسلطان يواصل:

- ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

ابن زنبل بهدوء بعدما مسح دموعه:

- إذا أزفت الأزفة ليس لها من دون الله كاشفة...

ثم مدَّ ابن زنبل يده بداخل ملابسه وأخرج زجاجة صغيرة بها سائل شفاف اللون قائلًا وهو يناولها للسلطان:

- إحتفظ بالمشروب ده.. لو كتبلك الله النصر رجّعهالي تاني وما تسألنيش عنها، أما لو كانت الكسرة علينا فإشرب منها القليل.. وإبعد عن ساحة المعركة.

****

بمجرد وصول الغوري إلى حلب استقبله خاير بك والي المدينة بترحاب مبالغ فيه، أخبره أن هناك قاصد من قبل سليم الأول يدعى ركن الدين قاضي العسكر جاء برسالة ما .. فتح الغوري الرسالة وقرأها سراَ فإبتسم قبل أن يعيد قراءتها جهراَ أمام جميع الأمراء:

- يا أغوات.. اسمعوا الرسالة إللي وصلتنى من سليم ابن عثمان، الرسالة بتقول من الابن سليم الأول إلى أبيه سلطان البرّين والبحرين السلطان المعظم قنصوة الغوري عندما كنت أشتاق للحلوى كنت أخبر أبي بذلك فيحضرها لى، والآن وبعد وفاة أبي لا أجد من أطلب منه الحلوى الشامية والسكر سوى أبي السلطان الغوري.. فأرسل لي مع القاصد ما شئت أن ترسله لإبنك المخلص سليم الأول "

تنفس الغوري الصعداء وحمد الله على حقن دماء المسلمين وأرسل الحلوى مع القاصد وتهيّأ للعودة إلى مصر عندما جاءت الأنباء أن الأمير مغلباي

رسول الغوري إلى سليم قد تعرّض للضرب والإهانة على يد العثمانيين وأن سليم أمر بحلق شعر رأسه ولحيته وأشهره على حمار أعرج في الشوارع وعلى رأسه طرطور.

- إذاً فقد أعلن المارق سليم بن بايزيد الحرب علينا... اللهم أشهدك إني ما انتويت قتاله ولا قتال أي جيش من جيوش المسلمين ولكنه بغى علينا.

قالها الغوري بحدة، فتعالت صيحات جنوده تأييدًا للحرب. .

****

٢١- وقعت الواقعة

مرج دابق صحراء واسعة شمال سوريا، عشرون ألفًا هم قوة جيش المماليك، أسلحتهم بدائية.. سيوف ورماح ولكن لا يضاهيهم فى القوة والشجاعة أحد.... مائة وعشرون ألف جندي هم عدد الجيش العثماني بأسلحتهم الحديثة كالمدافع والبنادق التى غيرت مفهوم الشجاعة والفروسية.

أزفت الأزفة وحملت الحرب أوزارها.. قد تبدو الكفتان غير متساويتان، ولكن شجاعة وبسالة المماليك بسيوفهم ورماحهم أوقعت عشرون ألف قتيلًا في الساعة الأولى من المعركة تقهقر الجيش العثماني أمام هؤلاء الأسود المفترسة والوحوش الكاسرة الذين توغَّلوا وانتشروا وسط الجنود الإنكشارية بالجيش العثمانى، فلم يستطيعوا استخدام المدافع ولا البنادق.

صاح سليم الأول في وجه وزيره يونس باشا قائلًا بلغة عربية ضعيفة:

- إنت الذي دفعتني لهذه المعركة الخاسرة منذ بدايتها... أخبرتك من قبل بأننا لا قبل لنا بهؤلاء الرجال الذين كسروا المغول والصليبين، أنت السبب وهذا اللالا الفاشل.

رد يونس باشا وهو يفزع هربًا:

- فليثبت السلطان ساعة وسوف يأتينا النصر من بين صفوفهم، لقد اتفقت على كل شئ.

تزداد حدة المعركة بزيادة قتلى العثمانين ... فالأمير أصلان بن بداق توغَّل بجنوده بين الجنود الإ نكشارية العثمانية وراح يضرب بسيفه يمينًا ويسارًا بيده السريعة جدًا التى لا تكاد تُرى من سرعتها، حتى أصيب خصومه

بالذهول، حوله الأمراء سودون العجمي وأركماس وسيباي وغيرهم بنفس القوة والسرعة والشجاعة... انكسر الجيش العثماني وفجأة قام خاير بك قائد جيش الميسرة بالإنسحاب وترك ميسرة الجيش ثغرة ينفذ منها الجنود الإنكشاريون، سقط العلم العثماني.. بكى سليم عندما نهره حصانه فسقط أرضًا، توسّل لوزيره أن يستسلم قبل فوات الأوان.. ولكن الأخير أخبره أن خاير بك المتواطئ معهم فى السر أدَّى مهمته.

فجأة هبّت عاصفة شديدة بإتجاه وطاق الغوري عاصفة رملية حلزونية وكأنها موجهة للجيش المملوكي فقط، سقطت راية المماليك الصفراء الشهيرة وتخبط الأمراء والجند حتى لم يعد أيّا منهم يرى زميله.. صرخ جان بيردي الغزالي:

- السلطان مات... الغوري مات.

توقف هجوم المماليك فجأة لتفرغ المدافع والبنادق العثمانية ما في أحشاءها في اتجاه جيش المماليك.

اختلط الأمر وعميت الأبصار وبدأت الكسرة على جيش المماليك.. وقف الغوري بشجاعة يدعو جنوده بالثبات ويخبرهم أنه لا يزال حي وهو يصيح بصوت جهورى:

- الشجاعة صبر ساعة... الشجاعة صبر ساعة.

ازداد تخبط وارتباك المماليك، هاجت خيولهم تحت طلقات وأصوات البنادق والمدافع، من بقي على قيد الحياة من المماليك بدأ يفكر في الهروب والغوري يواصل:

- الثبات الثبات يا أغوات.

اقترب جان بردي الغزالي من السلطان قائلًا:

- انتهى أمرنا، لازم نهرب دلوقتي.

الغوري بثبات بالرغم من سنوات عمره السابعة والسبعون:

- الأسود بتموت فى الميدان.

الغزالي بسخرية:

- موت لوحدك يا أحمق.

نيران العثمانين لا ترحم، أصبحت أشلاء المماليك في كل مكان... النصر كان قريباَ جدًا منهم ثم انقلب سريعًا إلى هزيمة منكرة، قتل مَن قُتِل.. وفرّ من فرّ، والغوري صامد في أرض المعركة، يخرج من طيّات ملابسه الزجاجة التي أعطاها له ابن زنبل قبل الرحيل من مصر:

" إذا أظلمت عليك تجرع هذا المشروب ".

يتطلع إليها بدهشة قبل أن يتجرع نصف المشروب الذي تحتويه الزجاجة، هو يثق في ابن زنبل، يثق في إخلاصه، يثق في علمه، يثق أنه لن يضره أبدًا، تجرّع السائل ذو الطعم الحامض الغريب... ينظر إلى الأرض، إلى السماء، إلى الصحراء الواسعة، تتسلَّل الذكريات إلى عقله فيتذكر رؤياه.. نعم هي نفس الأرض التى رآها من قبل ونفس السماء المتربة..

يتذكر يوم أن نصبوه سلطانًا رغمًا عنه ويوم أن قال له ابن زنبل:

" سلطانك سيدوم طويلًا.. طويلًا جدًا. سنوات عديدة ثم ستأتي النهاية... لا محالة ستأتي "

الجنود العثمانيون يهنئون بعضهم بالنصر، بعضهم يفخر بالإنتصار

والبعض الآخر يدق عنق المصابين من المماليك، يا لهول الموقف! ها هي جثث الأمراء سودون العجمى وسيباي وأصلان بن بداق وغيرهم ملقاة في كل مكان وقد مزّقتهم المدافع العثمانية، غريب أمر سودون العجمي وجهه يشع نور وابتسامة شديدة على وجهه.

على الفور انتبه الغوري إلى سر هذا المشروب، علم أنه اختفى عن الرؤية العثمانيين لا يرونه بينما هو يراهم ويسمعهم، نظر إلى الزجاجة مرة أخرى.. ثم تجرّع ما تبقى منها، الإحتفالات العثمانية وصلت لحد هيستيري.. وقف يراقب الأحداث، الجنود العثمانيون يبحثون عنه وسط الجثث بواسطة خاير بك!!

برغم أحزانه تماسك، انطلق بحصانه نحو الغرب، كم صار يمقت مشهد غروب الشمس هذا.

كل ما حدث لم يكسره هو فارس مملوكي تدرّب منذ صغره على قسوة البشر والأيام وتقلبات الدهر. وصل إلى ساحل البحر المتوسط ومنه اتجه جنوباً بمحازاة الساحل نحو وطنه مصر، بينما اتجه جيش العثمانيين نحو حلب بقيادة السلطان سليم الأول وإلى يمينه خاير بك الذي ارتدى ملابس الأتراك ووضع على رأسه عمامتهم الدائرية الشهيرة... هرب الأمير قانصوه الأشرفي والي حلب بجنوده نحو مصر تاركًا المدينة الحصينة للجيش العثماني دون حرب، على الفور توجّه الخليفة العباسي محمد المتوكل على الله وجميع قضاة المذاهب الشافعية والمالكية والحنبلية إلى معسكر سليم الأول معلنين له الولاء والطاعة، في حين فر القاضي الحنفي محمود ابن عبد البر بن الشحنة إلى مصر مع الجنود الفارين، طلب سليم الأول من الخليفة العباسي أن يتنازل له طوعًا عن خلافة المسلمين أمام الجميع لتصبح الخلافة في بني عثمان بدلًا من بني العباس وإلا سيناله عقابه

وعذابه الأليم، وافق الخليفة الشاب على الفور وتنازل عن الخلافة وشهد بذلك جميع الحاضرين بما فيهم قضاة المذاهب الثلاثة ومعهم خليفة الشيخ السيد البدوي وخليفة الشيخ إبراهيم الدسوقي، نزع الخليفة العباسي عباءته وقدمها لسليم ثم قام بتسليمه سيف عمر بن الخطاب.

دقَّت الطبول لتعلن الإحتفال بنصر جديد، شرب سليم الأول وأغلب قادته وجنوده الخمر إحتفالًا بتوليه الخلافة الإسلامية؟!!! فى حين رفض عدد كبير منهم هذا الإحتفال وأبدوا استياءهم منه قبل أن ينطلق إلى دمشق فيحتلها أيضًا.

****

كان سيصبح له شأن كبير لو تولى حكم مصر في زمان مختلف، مجبراَ بعدما أقسم أمامه الجميع على ألا يظلموا أحدًا وأن يقيموا حدود الله.. وافق طومان باي على تولِّي السلطنة، أحدث تغييرات عديدة في المناصب؛ كان أولها بالطبع عزل بركات بن موسى تمامًا عن أي منصب وتولية الأمير ماماي الصغير محتسباَ لمصر، والأمير سودون الشهابي أتابك للعسكر والأمير علان دويدار كبير.

الجيش العثماني يتجه نحو مصر... الخزائن خاوية بالكامل، لم يترك الغوري دينارًا واحدًا تحسّباَ لما حدث، كان يظن أنه سينتصر فيوزع الأموال على الجنود.

على كرسي السلطنة جلس مهمومًا يدعو الله برفع الغمة التي حلَّت بالبلاد بظلم ولاة أمرها، ولأن السلطان الجديد طومان باي كان أقرب لعامة الشعب.. لذا فقد عرض الأزمة على الناس وطلب ممّن يجد حلًّا مناسباَ أن يعرضه عليه، للأسف جاءت آراء ومقترحات العامة أشد قسوة من آراء

المماليك، صعد إلى القلعة على الشعباني نقيب المحتسب وابن خبيز سمسار الغلال الشهير وقد أعلنا عن وجود خطة لحل الأزمة المالية سريعًا... رحب بهما طومان باي في البداية، ولكن تعبيرات وجهه تحوّلت إلى الغضب وهو يستمع للعبارات الآتية:

- نقترح أن مولانا السلطان يفرض ضريبة عن كل كيلة غلال، ومكوس جديدة على كل تجارة وضريبة الإستعداد للحرب و.......

وقف طومان باي بعصبية قائلًا وهو يشير للحراس نحو ضيفيه:

- إضربوهم وأشهروهم في الشوارع عرايا الرأس... ده جزاء إللي يدعو للظلم في بلدنا.

اقترب منه الأمير علان الدوادار قائلًا:

- إبحث إقتراحهم وخد منه إللي ما يخالف الشرع.

طومان باي بعصبية:

- لا والله ما أجعلها تتكتب في صحيفتي أبدًا... إعلم يا أمير علان إن المظلمة الصغيرة بذرة ممكن تنبت شجرة ظلم كبيرة، عهد الغوري مش بعيد علينا.

هز الأمير علان رأسه في رضا قبل أن يضيف طومان باي:

- أومال فين ابن زنبل الرمال؟!! مختفي فين؟!

في داره مشغول بعلومه من يوم واقعة مرج دابق ومش عاوز يقابل حد.

صمت طومان باي قليلًا وقد تسلّل الحزن إليه أيضًا قبل أن يقول:

- أنا وعدت الشيخ أبو السعود إنى هزوره فى كوم الجارح، استعد من شان تيجى معايا.

****

الثلاثاء ٩ شوال ٩٢٢ مسجد كوم الجارح :

بعد صلاة الظهر فرغ المصلون من أداء صلاة السنة، غادر أكثرهم المسجد بينما اقترب القليل منهم من الشيخ أبو السعود الذي اعتاد على شرح أحد الأحاديث النبوية الشريفة عقب كل صلاة..

بعد أكثر من ساعة انتهى الدرس الديني وخلا المسجد إلا من الشيخ أبو السعود الذي لاحظ وجود هذا الرجل الجالس بأحد الأركان مُنكَّس الرأس.. لا يظهر من وجهه شيئًا، اتجه إليه الشيخ بهدوء.. ربّت على كتفه فرفع الرجل رأسه فإذا به بركات بن موسى.

مفاجأة أفزعت الشيخ، قبل أن يبادر قائلًا بتعجب:

- بركات بن موسى!!! ... ايه الذنب إللي أنا أذنبته من شان يصلي خلفي المحتسب السابق؟

بركات بوداعة:

- إن الله يغفر الذنوب جميعًا... بالعكس منكم يا معشر العلماء.

شعر الشيخ بالخجل فقال بهدوء:

- أستغفر الله العظيم... سامحني يا بركات، لكن أفعالك الشيطانية وأكلك حقوق الناس بالباطل هما السبب إنى أقول كده... حقك عليا، قول إنت

جاى ليه.

بركات بهدوء:

- أنا جيت من شان تتوسّط لي عند السلطان طومان باي يرجّعنى فى منصب المحتسب واستدار الذخيرة مرة تانية.

الشيخ أبو السعود:

- لكن ماضيك الأسود في الحسبة لا يشجعني فى التوسط إليك.

بركات باسمًا:

- أوعدك إني مش هظلم أى حد بعد كده وإني هنشر العدل بين الناس و ...

قاطعه الشيخ قائلًا:

- وإيه الضامن إنك هتوفى بوعدك؟

أخرج بركات من بين طيّات ملابسه صرّتين كبيرتين جدًا وضعها أمام الشيخ أبو السعود قائلًا:

- خمسين ألف دينار دهب همّ الضامن.

صفعة قوية هوت على وجه بركات تلقّاها ببرود وهو يقول:

- وأزيد عن الخمسين ألف ميت ألف.

هبّ الشيخ أبو السعود من مكانه صارخًا مستدعيًا خادمه وخادم المسجد، وسريعا امتلأ المسجد بالمارة من سكان كوم الجارح.

أمر الشيخ أبو السعود خادمه وخادم المسجد بالقبض على بركات بن موسى إلا أنه دفعهما بقوة، أحدهما سقط مغشياَ عليه والآخر كسرت ساقه اليمني، تجمهر الأهالي بداخل المسجد محاولين الإمساك بالمحتسب السابق دون جدوى.. راح يضربهم ويركلهم ويصفعهم، وكلما تكالب عليه عددًا هزمهم بسهولة.

فى هذه الأثناء وصل السلطان طومان باي برفقة الأمير علان وبعض الحرس توجه على الفور للمسجد ليشهد الواقعة، كم كان يتمنى وجود ابن زنبل الرمّال إلى جواره، حاول الأمير علان الإندفاع نحو بركات ولكن طومان باي أمسك بكتفه قائلًا بهدوء:

- مش هتقدر عليه.

التفت الأمير علان إلى السلطان قائلًا:

- عندك شك في قوتي؟!

طومان باي بهدوء:

- لأ.. ولكنى أعرف عن بركات إللى ما تعرفوش إنت.

الأمير علان:

- طب سيبنى أعرف.

اندفع الأمير علَّان وسط المئات نحو بركات بن موسى الذي وقف مسندًا ظهره على أحد الجدران، وكلما اقترب منه أحد نالته صفعه أو لكمة أطاحت به فطار للخلف، وكلما اقترب عددًا لم يؤثر ذلك سوى إن المصابين يزد ادون.

اخترق علان الجميع وصل إلى بركات. وجده أعزل فألقى سيفه جانباَ، شمّر عن ساعديه وهجم عليه، أمسك علان برقبة بركات بقوة شديدة وسط ذهول الجميع بما فيهم السلطان والشيخ أبو السعود.... حاول بركات الإفلات من القبضة القوية ولكنه لم يستطع، أمسك بيدي علان وحاول إبعادهما عن رقبته ولكن هيهات . إن الحديد لأشد رقة وليناً من يد الأمير علان، دفع الأخير بركات نحو الجدار بالرغم من طوله وقوته وسط تكبيرات الناس.... ابتسم السلطان طومان باي وهو يرى علان يرفع بركات لأعلى ثم يدفعه في الجدار بقوة عدة مرات قبل أن يتركه ليسقط أرضًا خائر القوى.

بناءاَ على أوامر الشيخ أبو السعود، تم حلق لحية بركات بن موسى وإشهاره عاري الرأس على حمار أعرج قبل أن يتم حبسه بسجن المقشرة ليكون عبرة لمَن يعرض رشوة على رجال الدين الحقيقيين.

- كنت فين من زمان يا أمير علان؟

قالها السلطان طومان باي، فابتسم الأمير علان والسلطان يواصل:

- جبت القوة الخارقة دي منين؟

الأمير علان بتعجب:

- أي قوة؟

طومان باي:

- القوة إللي جعلتك ترفع بركات لفوق وتضربه فى الجدار.

- وإيه العجيب في كده؟... أنا فارس أمير مقاتل وهو مجرد راجل ضخم

الجسم بس مش فارس ولا مقاتل. بركات ضعيف لا يمتلك أي قوة.

ابتسم طومان باي قائلًا:

- تظن فعلًا إنه ضعيف ولا يمتلك أي قوة؟

- أنا متأكد من كده

نظر طومان باي إلى وجه الأمير علان بإنبهار، أراد أن يقول شيئًا ما ولكنه أخفاه لحينه.

****

صباح الجمعة ١٩ شوال ٩٢٢ هـ :

- هتعمل إيه مع بركات؟ هل هتكتفي بحبسه؟

قالها الأمير علان، فكان رد السلطان طومان باي:

- لأ طبعًا... أنا هقتل بركات وأخلَّص الناس من شروره.. وإنت اللى هتساعدني في قتله، دا أنا ما صدقت لقيتك.

تعجب الأمير علان من العبارة الأخيرة قبل أن يقول:

- سمعت أن الشيخ أبو السعود أصدر فتوى شرعية بضرورة قتله لأنه من المفسدين في الأرض وقال لازم يتقتل فى أسرع وقت.

عقد طومان باي حاجبيه قائلًا:

- المهم إن الشيخ ما يرجعش في كلامه.

صعد الشيخ أبو السعود مهرولًا إلى القلعة، لم ينتظر حتى يسمح له

حاجب الحجاب، دخل على الفور قائلًا للسلطان بذعر:

- بالله عليك فك أسر بركات ابن موسى وأطلق سراحه.

علت الدهشة وجه الأمير علان بينما ابتسم السلطان وهو يقول:

- كنت متوقِّع حضورك من شان تطلب مني الطلب ده.

- بالله عليك... بالله عليك.... بالله عليك... إعفو عن بركات.

****

السبت ٢٠ شوال ٩٢٢ هـ

صعد بركات بن موسى إلى القصر ليشكر السلطان عن العفو، رسم ابتسامته الخبيثة المرعبة وهو يطلب من السلطان عودته مجددًا لمنصب المحتسب واستدار الذخيرة، لم يجبه طومان باي بالموافقة أو بالرفض.

صباح الأحد ٢١ شوال ٩٢٢ هـ :

قرر السلطان تعيين شرف الدين بن عوض إستدار للذخيرة، مما أغضب بركات بن موسى الذي انتفخ في داره غيظًا، لم يضرب الأرض هذه المرة بقدميه.. ولكنه بصق بغزارة في وعاء الماء المجاور له فأحدثت بصقته ما يشبه دوامة فى المياه.

الأثنين ٢٢ شوال ٩٢٢ هـ :

كانت سفن المماليك المحملة بالبنادق والمدافع في طريق عودتها لمصر من الهند، عشرات السفن تشق طريقها في سلام وهدوء.. فلا عواصف ولا أخطار، السماء صافية.. والرياح ساكنة.. والبحر هادئ كفتى خجول... ربان أحد السفن يشير إلى ركاب سفينة أخرى فيردون له التحية في سعادة.. الأحوال هادئة تماماً ومستقرة، البعض ينظف الأسلحة والبعض يساعد في إعداد الطعام... بعض الأمراء منهمكون في أحاديث جانبية عن إشتياقهم لوطنهم وأولادهم وزوجاتهم والبعض الآخر يتحدثون أحاديث إباحية لا تخلو من بعض الألفاظ البذيئة.

هناك على سطح إحدى السفن ظهر الإرتباك والقلق على وجه رجل مسنّ من الجنود، تارة يجري نحو حافة السفينة فيدقق النظر إلى مياه البحر وتارة يرفع رأسه إلى السماء وكأنه يبحث عن شئ ما... كرر هذا الفعل أكثر من عشر مرات قبل أن يصرخ فجأة قائلًا:

- **نذير الشووووم**......... فيه كارثة هتحصل حالًا.... احذروا نذير الشوم.

قطع صراخ الرجل كل الأحاديث الأخرى، انتبه له جميع ركاب السفينة وهو يواصل:

- لا طيور في السما ولا أسماك في البحر، مفيش غيرنا.. مفيش مخلوقات إلا الإنسان الظلوم الجهول، احذروا نذير الشوم.

كان سيصبح مادة للسخرية والإستهزاء دون مراعاة لشيب رأسه ولحيته، لولا تلك الأمواج العملاقة التي ظهرت فجأة عن بعد تقترب منهم فى شراسة، الأغرب إنها كانت تحيطهم من كل الجوانب، على عكس المتعارف

عليه، بدت السفن العملاقة ضئيلة جدًا إلى جوار تلك الأمواج الشاهقة وهي تتجه نحوهم، ما بين صرخات وأدعية علت أصوات ركاب السفن ثم خمدت للأبد عندما إنطبقت الأمواج عليهم من جميع الإتجاهات لتغرقهم في لمح البصر.. وتغرق معهم آلاف من القطع الحربية من بنادق ومدافع كان طومان باي في أشد الحاجة إليها لصدّ هجوم ابن عثمان.

****

من السلطان طومان باي إلى السلطان سليم الأول:

" تعالى نحقن دماء المسلمين "

من السلطان سليم الأول إلى طومان باي:

" أنت عبد تباع وتشترى، وأنا ملك ابن ملك إلى عشرين جد... إن أردت أن تنجو فإنزل تحت رايتنا وإلا قتلناكم جميعًا وشققت بطون الحوامل وقتلت الأجنة "

من خاير بك إلى أمراء مصر :

" قضي الأمر والنصر للسلطان المعظَّم سليم الأول أدعوكم للنزول تحت لواءه، إنه سخي جدًا"

كانت الرسائل والمناوشات تتبادل بين الطرفين عندما دخل حاجب الحجاب على السلطان طومان باي قائلًا:

- الجنود في الخارج رموا أسلحتهم وأعلنوا العصيان طالبين جوامكهم.

- بلغهم إن الخزاين فاضية عن آخرها، السلطان الغوري أخد كل الأموال معاه وهو مسافر علشان يحفز الجنود للحرب ويوزعها عليهم لو انتصر...

حاجب الحجاب:

- بلغتهم فقالوا قول للسلطان يجمع الأموال بالقوة من الشعب.

خرج طومان باي إلى الجند منفعلًا وبادر بالقول:

- والله لن أظلم أبدًا ... والله لن أجمع حبة قمح ظلمًا وبهتانًا أبدًا.

تعالت صيحات الإستنكار من بعض الجند، ولكنها خمدت عندما قال السلطان:

- أنا هتنازل عن الحكم وأسافر مكة أقضي ما تبقى من حياتي هناك.... تقدروا تديروا السلطنة بالطريقة إللي تعجبكم... لكني بحذركم إياكم والظلم.

- الظلم هو إنك تمنع جوامك العسكر ونفقاتهم، عمك الغوري ضيع الشام وإنت هتضيع مصر بظلمك.

قالها الأمير جان بردي الغزالي وهو يخرج من بين صفوف الجند الثائر، فرد عليه الأمير علان بعصبية قائلًا:

- الخاين بيتكلم.

أشار طومان باي للأمير علان بالصمت، إلا أن الأخير واصل بنفس الحدة:

- أنا قولتها قبل كده في السر ودلوقتي بعلنها على الملأ.... الأمير جان بردي الغزالي ملاح علينا زيه زي الخاين خاير بك وبيوصل كل أخبارنا لسليم ابن عثمان.

علت أصوات الأمراء ما بين مؤيد ومعارض، حتى قطع طومان باي حالة الهرج قائلًا بحدة:

- كفاية كده يا أمير علان.. ده مش وقت تخوين وتشكيك في بعض.

علان بعصبية مشيراَ للسلطان:

- نفسي أعرف السلطان ساكت ليه على خيانة الغزالي مع إنه متأكد منها؟ فاكر لما ابن زنبل الرمّال قال لك إن خاير بك والغزالي مكتوب فوق أساميهم في الرمال كلمة خاين.

طومان باي بهدوء:

- جيش ابن عثمان على مسيرة يوم واحد مننا، وإحنا في انتظاره بنحشد قوتنا، فمفيش داعي للكلام ده.

هنا تدخَّل الأتابكي سودون الشهابي قائلًا:

- ممكن أعرف ليه السلطان رافض إننا نخرج نقابل ابن عثمان ومُصرّ إننا ننتظر قدومه؟ مع إن الأفضل إننا نواجهه بعيد عن ديارنا و أهلنا.

طومان باي بحكمة وهو ينظر للسماء:

- من الناحية العسكرية إنت بتتكلم صح، ولكن من الناحية الشرعية أنا مش عاوز أحمل وزر قتال جيش من المسلمين... هانتظر يمكن سليم العثماني يرجع في كلامه ويحقن الدماء.

الأمير علان:

- إللي زي سليم مستحيل يتراجع عن أطماعه هو كان حقن دم إخواته وأهله علشان يحقن دمنا؟... سليم ده ديب متعطش للدم.

****

٢٢- الريدانية

الخميس ١٩ ذي الحجة ٩٢٢ هـ صحراء ا لريدانية (العباسية حاليًا)

صرخ طومان باي بفزع:

- مين إللي أشار لكم بدفن المكاحل؟

أحد الجنود:

- الأمير جان بردي الغزالي أمرنا ندفنها في الفجر ونسيب فوهة المكحل من شان جنود ابن عثمان ما يعرفوش مكان المكاحل أو عددها.

الأمير علان بحدة:

- مش قولتلك الغزالي خاين... جيش ابن عثمان وصل خلاص..

الأتابكي سودون الشهابي:

- أنا أمرت الجنود بإخراج المكاحل بسرعة والإستعداد للحرب.

الأمير علان:

- الوقت مش هيسعفنا، جيش ابن عثمان أمامك أهو.. والمكاحل دي محتاجة نص يوم على ما تطلع من مكانها وتتهيأ.. مصر ضاعت خلاص يا أغوات.

الأمير طومان باي بتحدي:

- معانا سيوفنا ورماحنا وإحنا شجعان نقدر نحمي بلدنا.

قبل أن يعطي طومان باي أمره بالهجوم، فوجئ بآلاف الجنود العثمانين

ينسلّون من خلفهم من ناحية الجبل كالجراد المنتشر، العدد أكبر مما توقَّع ولكنه لم يهَب الموقف، إستدار قائلًا لسودون وعلان:

- هنهجم على وطاق ابن عثمان ونقتله.. فيضطرب جيشهم وينسحب.

سودون الشهابي أمراَ جنوده بصوته الجهير:

- إتصدُّوا لجنود ابن عثمان بشجاعة وإحنا هنتوغل فى داخلهم.

اندفع السلطان طومان باي والأمراء سودون الشهابي وعلان وكرتباي الوالي نحو الجيش العثماني اخترقوا الصفوف بشجاعة، راحوا يضربون يميناً ويساراً ويتفادون الضربات بسرعة البرق وسط ذهول العثمانين إلى أن وصلوا إلى وطاق سليم الأول.

- يا سليم... إنت عمل غير صالح.

قالها طومان باي وهو يجذب سليم العثماني من فوق حصانه بيسراه ثم يرفعه لأعلى بذراعيه القويتين ويلقيه أرضًا بقوة فتتهشَّم أضلاعه قبل أن يبادره الأمير علان بضربة سيف واحدة تطيح برأسه... اكتفى طومان باي بذلك وارتد مسرعًا لجنوده وأمرهم بالتوقف عن القتال عسى أن يتراجع الجند العثماني عقب مقتل سلطانهم.. ارتفعت صيحات المماليك بالتكبير فور علمهم بمقتل سليم ابن عثمان، إلا أن خاير بك أمر الجند العثماني بمواصلة القتال.

- إللي إتقتل مش السلطان سليم... طول عمرك أحمق يا طومان باي.

قالها خاير بك بصوت جهير في الوقت الذي كان طومان باي جمع جنوده وهمّ بعرض صلح عقب قتل مَن كان يظنه سليم العثماني، قبل أن يفيق طومان باي وجنوده من دهشتهم كانت المدافع والبنادق المعادية تلفظ

طلقاتها نحوهم بشراهة. أصابت إحدى طلقات البندقية ساق الأمير علان فهشمت عظامها.. ولكنه تحامل أكثر من حصانه الذي أصابته طلقة أخرى فخرّ صريعًا.

متلاشياَ آلامه صرخ:

- عاوز جنيب بسرعة.

أحضروا له حصان من الخيل الإحتياطي قفز فوقه وواصل قتاله بكل شجاعة وبسالة إلا أن طومان باي رده قائلًا:

- مش هتقدر تواصل، عالج نفسك أفضل ما تقع بين إيديهم في المعركة، إرجع لإنهم هيمثّلوا بجثتك لو نالوا منك... روح الصعيد إحشد أهلنا هناك لمساعدتنا.

مع عشوائية الطلقات وهمجية المعتدي تراجع الأمير علان تحت غطاء من طومان باي، وصل الجيزة ومنها انطلق نحو الصعيد.. فهناك رجال يحبون السلطان طومان باي منذ أن كان داوادار وأقاموا معه علاقات طيبة لما وجدوا فيه من حسن الأخلاق، سيذهب لحشدهم ودعوتهم لإنقاذ سلطانهم... نزف كثيراَ... كثيراَ جدًا.. يحتاج التوقف للعلاج، لكنه لن يتوقف .. الأمر عسير جدًا... السلطان والأمراء يحاربون بلا مدد.. لا بد من نجدتهم...

كان حصانه كالرمح يخترق الهواء في موازاة نهر النيل... تنهار قوى علان يشعر ببرودة أطرافه ولكنه يواصل.. الأمر جد عسير.. تتسلل الحمى إلى جسده ... رجفات شديدة توشك أن تسقطه من فوق حصانه ولكنه أقسم بألا يوقفه إلا الموت... وقد أبر بقسمه، فعند قرية نويرة بإقليم بهنسيا

نزل عن حصانه وتوجه نحو القبلة نطق الشهادتين ثم أسلم روحه لخالقها.

أما السلطان طومان باي فقد تراجع بجنوده تحت وابل الطلقات إلى شوارع القاهرة وأزقتها وحواريها الضيقة. انطلق الجيش العثماني بأوامر من السلطان سليم نحو القاهرة، استباحوا أهلها واغتصبوا نساءها، نهبوا المحلات والدكاكين والبيوت، خربت المدينة عن آخرها.. سرقوا الجمال الخيول والبغال والغلال والطحين، أسروا النساء والأطفال والعبيد....

- الطاعون أرحم منكم يا بني عثمان... الطاعون أرحم منكم.

قالها أحد أئمة المساجد قبل أن يطلق عليه جندي عثماني مقذوف يخترق عنقه فيرديه قتيلًا والجيش العثماني يواصل العبث بالبلاد.

خاير بك يرشد سليم الأول وقادته على مخازن المال والغلال والخيول والجمال ومعه جان بيردي الغزالي الذى اختفى فى الريدانية ثم ظهر، ها هو الخائن الثانى.

****

في القلعة جلس السلطان العثماني سليم على كرسي الحكم، زفر بشدة قبل أن يشير لخاير بك متحدثًا بلغة عربية رقيقة:

- أنا لا أشعر بالأمان في هذه القلعة ... أريد مكان أكثر أمانًا.

خاير بك مبتسمًا:

- القلعة أمان.. جنودك في كل مكان حولها

- أريد جزيرة تحيطها المياه من كل جانب أقيم فيها أنا وجنودي فقط، لا

يدخلها أحد من المصريين، خاصة الخونة أمثالك يا خاين بك.

قالها سليم الأول ثم انفجر ضاحكًا، ازدادا إحمرار وجه خاير بك وهو يصطنع الإبتسام قائلًا:

- يبقى تقيم فى الجزيرة الوسطى في النيل.

أواخر السنة الهجرية ٩٢٢ هـ

اجتمع طومان باي بمَن تبقى من الجند وعدد من الأمراء أشهرهم الأمير أنص باي حاجب الحجاب وبخشباي أمير المجلس وقنصوه العادلي كاشف المنوفية وأزبك المكحل وتاني بك النجمي وغيرهم..... قرر الجمع خوض حرب الكر والفر أو ما يسمى بحرب الشوارع مع الجيش العثماني.... يجب وقف إعتداءهم الوحشي على الناس.

مرت الأيام ثقال على الجنود العثمانية أكثر من قادتهم، فهم لم يعتادوا على حرب الشوارع التي يقودها طومان باي ضدهم، المصريون أدرى بشوارعهم وطرقاتهم.. يضربون الضربة القوية ثم يفرون بين الأزقة والحواري... آلاف الجثث العثمانية ملقاة في الطرقات.. وصل الأمر إلى أن بلغ عدد القتلى في يوم واحد خمسة عشر ألف قتيل...

عاصفة من الغضب تنفجر من سليم الأول وهو يوبِّخ خاير بك ويعنِّفه:

- أخبرتك من قبل يا خاين بك بألا أحضر إلى مصر وأنت الذي زيّنت لي ذلك، أخبرتني أيها الكلب الخائن أن مصر خلت من رجالها.. فما الذي يحدث هناك؟ هذا الرجل طومان باي أثار الذعر في جنودي وفي قادتي وفي أنا شخصياَ، الجميع يقسم أنه ورجاله ينزلون عليهم كالبرق يحصدون

الرقاب بسيوفهم ثم يتبخرون وسط الشوارع الضيقة.. فإذا ما اتبعوهم لا يجدون أحد.

خاير بك:

- بطِّمن سلطان البلاد إن دي سكرات موت طومان باي، أتباعه عددهم قليل وكل يوم ينقصوا فمش هيقدر يواصل الحرب أكتر من كده.

سليم الأول:

- أنا أريد رأس طومان باي حالًا... ولن أهدأ حتى تأتيني بها.

ابتسم خاير بك كعادته قبل أن يقول:

- قريب جدًا هتكون راسه بين يديك... والآن إسمح لي أن أقدم لك أول راس من رجال طومان باي.

جحظت عينا سليم الأول ونظر لخاير بك متساءلًا:

- من هو؟

خاير بك وهو يشير للحرس:

- الأمير كرتباي الوالي.

دخل الأمير كرتباي الوالي مكبَل اليدين يتكئ على ساقه التي سبق وأن أصابتها إحدى الطلقات... بادره سليم الأول قائلًا:

- إنت كرتباي؟!

كرتباي بهدوء:

- أيوة أنا الأمير كرتباي.

سليم بحدة:

- أتعرف ماذا فعلت أنت برجالي؟

كرتباي:

- عارف.. قتلت منهم لوحدي أكتر من أربع آلاف جندي.

سليم بدهشة:

- أراكَ لا تخشى الموت.

كرتباي مبتسمًا:

- بالفعل أنا لا أخشى الموت.

سليم:

- سأقتلك جزاء مَن قتلت مِن جنودي.

كرتباي:

- قسمة ال

-

-

-

-

-



-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-





-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-







-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-



-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-

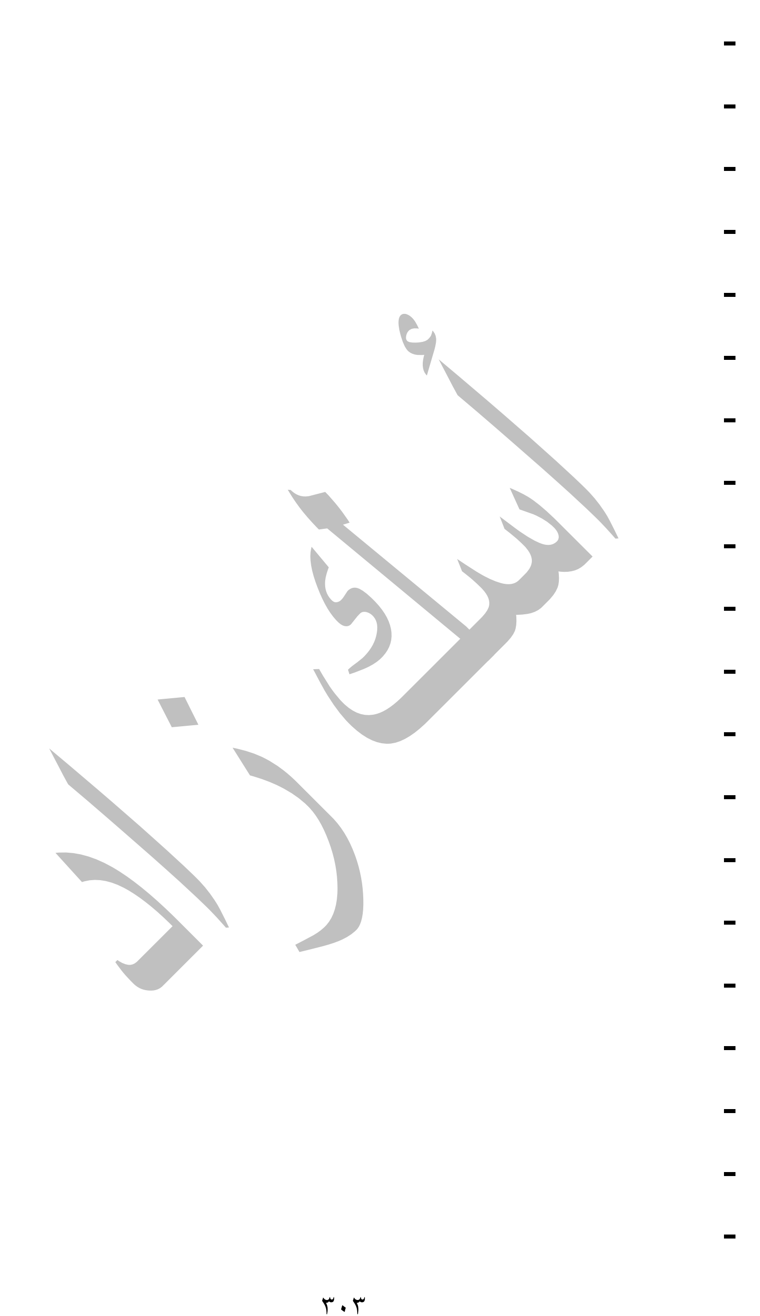
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-


أسك زاد

-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-


أسك زاد





-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-







-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-

-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-







-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-

-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-





-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-


أسك زاد

-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-


أسك زاد



-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-

-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-







-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-







-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-



-

-

-

- ك....

قاطعه كرتباي بحدة:

- معاذ الله أن أكون وزير لمثلك وأنت قاتل لرحمك شارب دماء المسلمين، بإيعاز من الفرنجة دخلت بلاد المسلمين واستحللت دماءهم ونساءهم....

سليم بعصبية:

- اقتلوه.... اقتلوه.

كرتباي بحدة:

- يا خاين لنا موعد في الآخرة.

تحوّلت إبتسامة خاير بك إلى ضحكة عندما أطاح السياف برأس كرتباي فتدحرجت حتى وصلت إليه.... وضع قدمه فوقها قائلًا للسلطان سليم:

- الرأس القادمة هتكون رأس طومان باي.

****

محرم ٩٢٣ هـ :

كانت إحتفالات البلاد برأس السنة الهجرية مغايرة تمامًا عمّا سبق..... إحتفالات عثمانية خالصة، موكب كبير يضم كبار القادة العثمانيين بعمامتهم الدائرية الشهيرة إلى جوارهم كبار الخونة بنفس العمامة خاير

بك والغزالي ومحمد بن الغوري والمحتسب الجديد الذي تمّ تعيينه من قَبَل السلطان العثماني بركات بن موسى الذي بدا أكثر قبحَا بالعمامة العثمانية الضخمة إلى جواره محمد بن إياس أول من بادر بإرتداءها، أمام هذا الموكب كان الأتابكي سودون الشهابي الذي أصيب يوم الريدانية مقيّدًا فوق حمار أعرج حليق شعر الرأس واللحية، يتم الطواف به وتجريسه، كان سبق وأن وبّخه سليم بعبارات نابية فكان الرد من سودون أكثر حدة وهو الذي أُشتهر بالفصاحة والثقافة وحسن اللسان.

سليم:

- هل تعلم أنك ستموت الآن؟

سودون:

- إنك لميت و إنهم لميتون.
- سأمثل بجثتك أيها الحقير.

سودون مبتسمًا:

- شرف ليّا أن يتم التمثيل بجثتي زي ما إتمثل بجثة سيدنا الحسين وعبد الله بن الزبير بن العوام.
- لكن الأمر مختلف، لأن من سيمثل بجثتك مسلم وليس كافر.

ضحك سودون قائلًا:

- يا لجهلك.... إللي مثلوا بجثث الحسين وابن الزبير ما كانوش كفار، لكنهم كمان ما كانوش مسلمين. إنت جاهل بتاريخ المسلمين ومع ذلك عاوز تكون خليفة عليهم بأي أمارة وأي حجة.

- لأنني الأقوى والأشجع.

- إثبت ده بالدليل وإنزل مبارزة مع طومان باي، وإللي ينتصر يصبح خليفة المسلمين ونجنب المسلمين شرور الحرب.

سليم محاولًا تغيير الحوار:

- أتقبل أن تعمل وزيراَ تحت إمرتي؟

بحدة:

- لأ طبعًا

- لماذا؟!

- لأن أربعة من كُنَّ فيه كان منافقًا خالصًا ومَن كانت فيه خصلة منهم كان فيه خصلة من نفاق.... إذا حدَّث كذب وإذا عاهد غدر وإذا وعد أخلف وإذا خاصم فجر.

سليم بإستهزاء:

- وأي خصلة منهم وجدتها فيّ أيها الأعرج؟

سودون:

- الأربعة أيها المنافق الخالص.

سليم:

- ستموت موتة تليق بك وبأمثالك.

سودون:

- إنا إلى ربنا لمنقلبون....

توقف الموكب العثماني، تمّ نزع ملابس سودون الشهابي فبدا مثلما ولدته أمه، لا شئ يستره... لم يتحمل قلبه هذا الخزي والعار فسقط صريعًا قبل إعدامه.

أثار ذلك حمية طومان باي وباقي الأمراء ومَن إنضم إليهم من الأعراب وأعيان الصعيد.

****

الأربعاء ٥ محرم ٩٢٣ هـ :

الجزيرة الوسطي آمنة هادئة ساكنة يحيطها الحراس من كل جانب بمراكبهم العملاقة ومدافعهم الثقيلة، لا تجرؤ بعوضة على الإقتراب منها.... كان سليم مطمئنًا تمامًا فى هذه الجزيرة التي تم إخلاءها من جميع سكانها، أشهرهم كان أحمد بن زنبل الرمّال الذي رحل حاملًا كتبه متحسَرًا على علومه التي حرقها الجند العثماني قبل أن يتم القبض عليه ووضعه تحت حراسة خاصة بالقلعة تحت أمر السلطان سليم الذى أعجب بعلومه.

عند أذان الفجر تحولت الجزيرة لبركان بشري ثائر؛ طومان باي ورفاقة هبطوا على الجزيرة كطير أبابيل.. ألفين فارس مملوكي حولوا الجزيرة الوسطي إلى جزيرة الدم عشرة آلاف قتيل عثماني في ضربة مباغتة، راح المماليك يضربون يمينًا ويسارًا بوحشية وإنتقام شديدين تناثرت الأعضاء

البشرية للجيش العثماني في كل مكان، من نجا منهم قفز في النيل. كان هدف طومان باي هو وطاق السلطان سليم سيقتله وينتهي الأمر ستتوقف الحرب ويسترد مصر والشام ويعود الجيش العثماني لدياره. كالأسد الغاضب هجم طومان باي شاهراَ سيفه على خيمة سليم.. شلَّ الخوف والرعب حركة هذا الأخير، صرخة قوية من طومان باي أسقطت قلبه:

- إرفع سيفك وواجهني يا سليم.... ورِّيني نفسك يا جبان.

لم يجرؤ سليم على مغادرة سريره، نهض سنان باشا من السرير المجاور لسليم مسرعًا بملابس النوم، أعزل في مواجهة طومان باي، نظر له هذا الأخير نظرة ازدراء قبل أن يغمد سيفه قائلًا:

- الأعزل لا يواجهه إلا أعزل.

ثم رفع سنان باشا برغم ثقل وزنه -بذراعيه القويتين- وألقاه أرضًا بقوة فخرّ صريعًا على الفور، تلاحقت أنفاس سليم تحت بردته وهو يرى هذا المشهد المميت ويسمع صوت تحطم ضلوع سنان باشا، لم يستطع المواجهة، لم يستطع حماية وزير بل لم يستطع مغادرة سريره إلا بعد أن رحل طومان باي عن الجزيرة.

الخميس ٦ محرم ٩٢٣ هـ :

تنتقل المعركة إلى الجانب الغربي للنيل... اشتدَّ القتال حتى اليوم التالي، سقط المزيد من الجيش العثماني...

استدعى سليم خاير بك ووبّخه قائلًا:

- أنت الذي طلبت مني القدوم إلى مصر أيها الخائن، هذا فخ نصبته أنت لي، أنت تعلم إن هؤلاء الفرسان لا يهزمهم حتى الأسود المفترسة، سأقتلك يا خائن بك.

خاير بك بهدوء:

- الصبر يا خليفة المسلمين وملك البر والبحر..

بعصبية:

- كيف أصبر وقد سقط منا ثلاثين ألف مقاتل في يومين فقط؟

خاير بك مستطردًا:

- وطومان باي سقط منه خمسمائة... ده يعني إن ربع جيشه سقط، أما إحنا عددنا آلاف الألوف.... أصبر بس هو مش هيقدر يواصل الحرب معانا أكثر من يومين كمان.

****

صلاة الجمعة ٧ محرم ٩٢٣ هـ :

ارتفعت الأصوات بالدعاء للسلطان طومان باي بالنصر، كان هذا أول دعاء له على المنابر بعدما كان الدعاء لسليم العثماني في الأسابيع السابقة، ألهب الدعاء حماس المصريين وما أن انتهت صلاتهم حتى لزموا مساكنهم إنتظاراً لما كُتِبَ لهم فى أقدارهم.

٨ محرم ٩٢٣ هـ :

ليست حرب عصابات أو حرب شوارع.. هي ملحمة سيقف أمامها التاريخ مبجَلًا إياها، ازداد عدد قتلى الجيش العثماني، الكفَّتان غير متساويتان في العدد والعتاد.. ولكنها الشجاعة في أزهى صورها والقوة التي لا يتحلَّى بها إلا فرسان المماليك الذين سقط منهم ألف شهيد مقابل آلاف العثمانيين.

٩ محرم ٩٢٣ هـ :

فى اليوم الخامس اضطر طومان باي للتراجع، فرجاله أنهكتهم حرب الأربعة أيام المتتالية، العدد صار قليل معه، الإستمرار في الحرب مهلكة.. يجب أن يرحل الآن ليعيد ترتيب جيشه الضئيل ويعود سريعًا.

بمجرد ا نسحاب طومان باي عاث العثمانين فسادًا في كل ربوع مصر وقراها ونجوعها، أحرقوا مسجد شيخ والمنازل المجاورة له.... نبشوا قبر السيدة نفيسة وسرقوا قناديل مسجدها الفضية، كذلك حدث مع مقام الإمام الشافعي والإمام الليث بن سعد.. نبشوا قبورهم وسرقوا المساجد والنذور، حتى قماش المقام لم يسلم من أيديهم.

١٥ محرم ٩٢٣ هـ :

تم إخلاء كل البيوت والمحلات المحيطة بالقلعة وتسكين الجيش العثماني بها، أصدر سليم العثماني بعض القرارات التي اقترحها عليه المحتسب الجديد بركات بن موسى، منها زيادة الأسعار والضرائب بالإضافة إلى دفع دية مقدارها مائة ألف دينار عن كل قتيل من الجيش العثماني يتمّ جمعها من الشعب عنوة وقصرَا.

حملة كبيرة قادها جان بردي الغزالي من أجل جباية هذه الأموال لصالح سليم العثماني، نهب كل شئ حرفياَ من الأغنياء والفقراء ومن لم يستطع الوفاء أخذ أطفاله وباعهم في سوق النخاسة.

صفر ٩٢٣ هـ :

رسالة من طومان باي لسليم:

" تعالى نصون دماء المسلمين.... سأعترف بك سلطان على المسلمين ولكن أخرج بجنودك من مصر "

رسالة من سليم لطومان باي:

" وإذا رفضت الخروج من مصر ماذا ستفعل؟!! "

طومان باي:

" إذًا ا لاقني في بر الجيزة وتحمّل الذنوب وحدك "

الجيزة ١٠ ربيع الأول ٩٢٣ هـ :

دار السلطان طومان باي حول أمراءه وجنده الذين جلبهم من عربان الصعيد، هو يعلم أن كفاءة المتطوعون الجدد من الشعب أقل كثيراَ من المماليك ولكنهم أفضل من العثمانين الجبناء، الأمراء شاربك الأعور وقانصوه العادلي ويحيى بن أزبك وأبرك ودولتباي وغيرهم على أتمّ الاستعداد، تهيّأوا جيدًا للمعركة التي بدأت بهجوم من الغزالي قائد الجيش العثماني في هذه المعركة، هو فارس مملوكي مُحنّك وضع خطة حاصر بها

جيش طومان باي ما بين الجبال وقبيلة غزالة المتمردة بقيادة زعيمها حماد بن خبير.... يغوص المماليك وسط الجيش العثماني تتساقط الأيدي وتتطاير الرؤوس.. ملحمة جديدة يكتبها الجيش المملوكي، الأمراء الكبار يحصدون الرؤوس حصدًا، خسائر فادحة في الجيش العثماني كالعادة، يقترب الأمير قنصوة كرت من الغزالي ليطيح برأسه حتى يشفي الله صدره وصدر باقي المماليك ممّا فعله هذا الخائن، يقترب بحذر يرفع سيفه ويهوي به على رقبة الغزالي ولكن هذا الأخير يتفاداه ببراعه ويوجه له طعنة غائرة في قلبه ترديه قتيلًا.

من أعلى الجبل انطلقت المدافع لتفرغ ما في أحشاءها من قنابل نحو الوادي الضيق، وراحت البنادق تمطر طلقاتها بغزارة... كانت هذه هي خطة بركات بن موسى التي عرضها على السلطان سليم ووافق عليها، التضحية بجزء من الجيش العثماني في مقابل حصد كل الجيش المملوكي.... فرّ الغزالي بإعجوبة كما فرّ طومان باي وبعض الأمراء من أرض المعركة التي تمخَّضت بدماء أكثر من ألف مقاتل من المماليك وأكثر من عشرة آلاف من الجيش العثماني...

مع إبتسامة ظفر من سليم العثماني انحنى بركات ابن موسى وقبّل الأرض تحت أقدامه قائلًا:

- بركات بن موسى جندي مخلص من جنود السلطان سليم.

****

- لله الأمر من قبل ومِن بعد.

قالها طومان باي بعدما ا بتعد عن أرض المعركة برفقة مَن تبقُّوا معه من الأمراء.

الأمير شاربك الأعور وهو يلهث بشدة:

- إنت شايف إيه؟! نستمر في المقاومة ولا كفاية لحد كدة؟

طومان باي بهدوء:

- الموقعة دي قضت على آخر أمل لينا في النصر... أنا شايف إن دولتنا زالت وانتهت، والدول زي البشر أعمار، لما يحين الأجل بتشخص الأبصار... وإحنا حالياَ في المرحلة دي... مرحلة إحتضار دولتنا.

ساد الصمت الحزين بين الأمراء قبل أن يقطعه الأمير شاربك قائلًا:

- يبقى نرحل عن مصر ونبحث لنا عن بلد تانية، إحنا خلاص ما عاد لنا حياة بمصر.

طومان باي بشجن:

- صحيح إحنا ما إتولدناش في مصر، لكن ما نعرفش لنا وطن تاني غيرها.. أنا هروح ناحية البحيرة عند حسن بن مرعي استخبى عندة لفترة إلى أن يأذن الله بما أراده.

الأمير يحيى بن أزبك:

- إنت مطَّمن لحسن بن مرعي؟!

طومان باي:

- هو كان مسجون ظلم في عهد السلطان الغوري وأنا عفوت عنه وردِّيت

له أقطاعه المسلوب منه، فلا أعتقد إنه ممكن يخون.

الأمير يحيى بن أزبك:

- وأنا هسافر للشيخ أحمد بن بقر أنا خدمته كتير وأكرمته أكتر لما كان بإيدي سلطة.. وأظن ده وقت رد الجميل....

****



٢٣- حسن بن مرعى

بدار حسن بن مرعي بناحية البحيرة أقسم صاحب الدار سبع مرات وهو يضع يده على كتاب الله القرآن الكريم أنه لن يخون السلطان طومان باي في السر ولا في العلن وأنه سيظل مخلصًا له أبد الدهر...

ابتسمت والدة حسن بن مرعي، حدَّقت في وجه ابنها قائلة:

- الله يحفظك يا ولدى.

ثم مدَّت يدها لتضعها فوق رأس طومان باي قائلة:

- عاهدناك أمير شريف تقي حافظ لكتاب الله.. وعاهدناك سلطان صالح عادل لا بتظلم ولا بتجور على حق حد من العباد.. وإحنا بنعاهدك نحفظ سرك ونحافظ عليك ونصون دمك.

قبّل طومان باي يدها قائلًا:

- إدعي لي يا أمي.

- حفظك الله يا ولدي، والخاين يخونه الله.

مال حسن مرعي نحو ابن عمه شكر قائلًا:

- وادي الغابة هو أفضل مكان نخبي فيه السلطان، أرضه سبخة مفيش حد يعرف يوصل له بسهولة، وممره ضيق يسمح بدخول راجل واحد بس، هو أمن وأمان للسلطان.

شكر:

- كمان له تل عالي بينظر البحر المالح، فلو أراد السلطان الخروج من

الناحية البحرية كان أسهل له.

حسن بن مرعي:

- يبقى على بركة الله نرحل لوادي الغابة.

ودَّعتهم السيدة المسنة مرددة:

- في أمان الله يا سلطان البرَين والبحرين فى أمان الله يا ولدى والخاين يخونه الله.

شعر حسن بن مرعي بوخزة من تكرار والدته لهذه العبارة وهي تنظر له بحدة، حدَّثته نفسه: لماذا تقول أمي الصالحة ذلك هل تظن سوءاَ بإبنها البار؟، هل تعتقد أمي أنني قد أخون رجل أخرجني من السجن الأبدي وأعاد لي أملاكى؟ كيف أخون مَن أقسمت له على المصحف سبع مرات؟

ما أن وصل الركب إلى وادي الغابة حتى نزل حسن ابن مرعي عن حصانه وترجل في ممر ضيق للغاية، تبعه طومان باي وشكر بحذر.

حسن بن مرعي:

- مال السلطان إتغير فجأة كدة ليه؟.. المكان هنا أمان.

طومان باي بهدوء:

- أنا شوفت المكان ده في رؤيا من يومين.

صمت حسن وشكر، فواصل طومان باي:

- شوفت إ نى قاعد فوق التل ده وفجأة أظلمت الدنيا ودخل عليّا خمس كلاب سود فجذبت سيفي علشان أضربهم.. لكن السيف وقع من إيدي

إنحنيت علشان أجيبه فالعمامة وقعت، فهجم عليا الكلاب وإفترسوني ولما صحيت من النوم عرفت تفسير الرؤيا... وقوع العمامة يعني وقوع السلطنة، ووقوع السيف يعني إني فقدت قوتي، أما الكلاب فهما الأعداء إللي هيتمكنوا مني.

حسن بن مرعي:

- لا تخف... أنا وابن عمي شكر على إستعداد بالتضحية بأرواحنا فداك.

****

خمس قادة من الجيش العثماني يتبع كل منهم ألف جندي يتقدمون بحذر نحو الغابة، يتقدمهم رجل مُلثَّم يسير بخطىً واثقة نحو الممر الضيق... عند وصولهم رفع الرجل لثامه كاشفًا عن وجهه وهو يقول:

- إدخلوا بحذر، هو نايم دلوقتي.

أشار له أحد القادة قائلًا:

- إنتظر أنت مكانك.

فرك حسن بن مرعي كفيه قائلًا:

- أول ما تمسكوه تسلموني المكافأة إللي أعلن عليها السلطان سليم.
- المكافأة عند عودتنا به للسلطان.

حسن بن مرعي مبتسمًا:

- موافق.

خمسة ألاف جندي يحيطون بذلك الأسير طومان باي.. قيوده الحديدية

تعيقه عن الحركة، يداه المقيّدتان خلف ظهره بوحشية تنزفان في صمت كصاحبها، يسير في سكون كالسائر إلى قبره، يلمح إبتسامة ظفر في وجه حسن بن مرعي فتتقلب بداخله الشجون يتذكر يوم أن أخرجه من السجن وأعاد له اقطاعاته، يغتم كثيراَ عندما يتذكر السلطان الغوري الذي أصرّ على وجود الشيطان بركات بن موسى في السلطنة، ابن زنبل الرمّال الرجل الوطني المخلص أسيراَ تحت يد سليم الأول.... يتذكر ابنته ذات التسع سنوات فيخفق قلبه حنينًا وإشتياقًا إليها.

مترجلًا حوله الجنود على خيولهم يصوبون بنادقهم إليه خشية فراره، على الجانبين وقف العامة يشاهدون سلطانهم الأسير بحزن شديد، لا يدري كم سار، اكتشف أنه يمر من أمام منزل حسن بن مرعي عندما خرجت المرأة العجوز تصرخ وهي تشير نحو ابنها:

- الخاين يخونه الله... الخاين يخونه الله... الخاين يخونه الله.

شعر حسن بن مرعي بالخجل فخفض رأسه أرضًا محاولًا تجنب نظرات أمه الغاضبة وكلماتها اللاذعة وهي تواصل:

- إشهد يا رب.. حسن مش إبنى ولا من أهلي، زي ابن نوح ما صار من الكفار حسن ابني صار من الخونة والخاين يخونه الله.

****

- الآن أعلن أن مصر سقطت تحت قدمي.

قالها سليم الأول بسخرية، لم يجبه طومان باي الذي إلتزم الصمت التام.. فواصل سليم بذات السخرية بلغته العربية الرديئة:

- أراكَ منهزم مكسور يا طومان باي... ألم يكن أفضل لك من البداية أن تنصاع لي وتنزل تحت جناحي مثل خاير بك والغزالي وبركات بن موسى ومحمد بن الغوري الذي صار يناديني بأبي بعد أن تزوجت أمه وأصبحت زوجة مخلصة لي... لماذا لم تخلص لي مثلهم؟! أأنت أشد حبًا وإخلاصًا للغوري منهم؟!

بهدوء قال:

- أنا إخلاصي لوطني مصر مش للسلطان الغوري.

ضحك سليم حتى سعل، ثم بصق أرضًا قبل أن يقول:

- تتحدث وكأنك مولود في مصر أيها المملوك.

- صحيح أنا ما إتولدتش في مصر لكن ماليش وطن غيرها.

سليم بحدة:

- لماذا رفضت طلبي من البداية بأن تجعل صك العملة بإسمي والدعاء لي في المساجد وتكون أنت واليًا على مصر؟ ما الذي غرّك لتدخل معنا في معارك محسومة لنا من البداية؟

- لأن مصر دائمًا تقود ولا تُقاد.

ضحك سليم فإهتزت أكتافه واهتز كرشه السمين قبل أن يقول:

- وها أنا قد خربت مصرك عليك.

- أنا مش عارف إزاي إنت تركت خط الجهاد إللي كان عليه أجدادك بمحاربتهم للفرنجة وبدِّلت مسارك لمحاربة المسلمين.

سليم بعصبية:

- أنا هجمت عليكم بفتوى علماء الدين الذين أخبرونى أنه لا يجوز حكم العبيد للمسلمين أنت وعمك الغوري، حتى قايتباي أعظمكم.. كلكم عبيد أجلاف تسلطنون أحدكم في الصباح وتقتلونه في المساء... تبًا له من حكم الذي يأتي على دماء الآخرين.

طومان باي بهدوء:

- وألف تبّ للحكم الذى يأتي على دماء الأخوة والآباء.

شعر سليم بالحرج فتلفَّت حوله في خجل قبل أن يقول وهو يشير لخاير بك:

- أنظر إلى هذا الرجل الأمين خاين بك، لقد ربح المعركة منذ البداية بدخوله تحت طاعتي... أما أنت فسيتم إعدامك قريباً.

طومان باي بثبات:

- ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.... ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ابتسم سليم ونظر إلى خاير بك فابتسم الأخير أيضًا قبل أن يقطع إبتسامتهم قول طومان باي:

- هنتظركم عند الخالق الجبار.... اقضوا من حياتكم أيام ثم هنتقابل هناك.

****

٢٤- إعدام طومان باى

٢١ ربيع الأول ٩٢٣ هـ :

اصطفَّ الناس على جانبي الطريق يشاهدون موكب السلطان طومان باي المتجه نحو مصيره المجهول.... آلاف الجنود الإنكشاريون يحيطون به رغم قيوده الوثيقة... والناس ما بين هم وغم... كان طومان باي هو أملهم الأخير... حقًا لم تتوقف مصر على أحد من قبل، ولكن بعد رحيل هذا الرجل ستتوقَّف... تمنّى الناس لو أفلت من قيوده وهرب من حراسه وأمسك بسيفه وراح يضرب يمينًا ويسارًا كما عاهدوه بطلًا أسطوريًا، لكنه يريد المعاونة وهذا الشعب يكتفي بالدعاء والتمني فقط تجنب طومان باي النظر للشعب لا يدري أخجلًا لأنه خذلهم ولم يصد العدوان عنهم؟ أم حزنًا عليهم وعلى مصيرهم القادم القاتم؟

وجود الجنود العثمانيين لم يمنع بعض الأفراد من الجهر بالدعاء لطومان باي وإعلان حبهم له، ولكنه كوضع الأزهار فوق مقابر الموتى، راح البعض يهتف له بطول العمر ويعدونه أنهم معه وخلفه مهما كلَّفهم الأمر.. شعارات نارية لا تفيد.

وصل الموكب إلى باب زويلة نزل طومان باي عن دابته تطلع لأعلى فوجد المشنقة معدة سلفًا.. نطق الشهادتين بهدوء وسكينة... هنا برز سليم الأول وخاير بك والغزالي وبركات بن موسى وكبار القادة، نظر لطومان باي ليرى الرعب في وجهه، ولكن طومان باي ابتسم وسارع بالصعود من تلقاء نفسه لمنصة الشنق، غلي الدم في عروق سليم وهو يقول لخاير بك:

- عجبًا له من فارس لم أرَ مثله من قبل!! يقدم على الموت بشجاعة!!

خاير بك:

- لو تركته مش هيرحمك، واحتمال يُحطَّك على المشنقة مكانه... إخلص منه دلوقتي يخلص لك حكم مصر.

تردد سليم للمرة الأخيرة وتوقف كثيراَ، فباغته خاير بك قائلًا:

- لو عاوز تعفو عنه أؤمره يسجد لك أمام الناس دي كلها علشان يتكسر أودامهم وما يظهرش في صورة البطل تاني.

سليم الأول :

- أنت تعلم أنه سيرفض ذلك يا نسل إبليس.

خاير بك بخبث:

- لو رفض نقتله.
- وماذا إذا وافق؟
- لو وافق يبقى هو إللي قتل نفسه في نظر الناس.
- حسنًا يا خاين بك.

التفَّ حبل المشنقة حول رقبة طومان باي.. شهق الناس بشدة، وقف المشاعلى في إنتظار الإذن بالشنق، نظر الجميع إلى سليم الذي تقدم من منصة الإعدام قائلًا:

- لقد عفوت عنك أيها الأمير طومان باي.

احتقن وجه خاير بك والغزالي، احمرّت عينا بركات ابن موسى، نظر القادة العثمانيون لأنفسهم في حين ا نطلقت الزغاريد من النساء وهلَّل العامة

فرحين بنجاة سلطانهم... وقف سليم يتطلع لهذا المشهد لدقائق قبل أن يضيف:

- ولكن بشرط..

صمت الجميع مرة أخرى وكتمت الأنفاس عن آخرها... انتظر سليم كثيرَا ليزداد الأمر تشويقًا قبل أن يقول:

- بشرط أن تسجد لي أمام الجميع.

تحوّلت الأنظار نحو طومان باي الهادئ الصامت الذى إلتفت للمشاعلى قائلًا:

- إعمل شغلك.

سليم:

- هل رفضت العرض الذي سيعيدك للحياة....؟ أسجد وانجو بنفسك.

صمت طومان باي مجددًا، فواصل سليم صارخًا وقد شعر بإهانة كبرياءه:

- إسجد وسأنسحب بالجيش....

واصل طومان باي الصمت وواصل سليم صراخه:

- أسجد وكن سلطانًا على مصر كما كنت... أسجد وإنقذ نفسك وأهلك.. أسجد وعًد كما كنت سلطان البرّين والبحرين...

طومان باي بحدة:

- هل رأيت من قبل أسد يسجد لكلب؟

تعالت صيحات المصريين بالفرح والإنتصار، كم كان سيؤلمهم سجود طومان باي، أشار سليم للمشاعلى قائلًا:

- نفِّذ الآن.

اقترب بركات بن موسى من أذن سليم قائلًا شيئًا ما رفع بعدها سليم يده قائلًا:

- توقف أيها المشاعلى.

ساد صمت رهيب قطعه سليم بعبارته:

- أحضروا ابنة طومان باي لترى شنق أبيها.

هنا سقطت دمعتان من عينيه قلا أن يرفع رأسه موجهًا حديثه للعامة قائلًا:

- سامحوني جميعًا.... لو ظلمت حد منكم سامحوني... لو قصّرت في خدمة حد سامحوني... لو عجزت فى يوم عن مدّ يد العون للفقراء والمرضى والمحتاجين سامحوني... ظروف البلاد كانت أقوى من إني أقدر أساعدكم.

هتف أحد العامة:

- سامحنا إنت يا سلطان مصر العادل.

طومان باي:

- سامحتكم جميعًا ومش عاوز مشهد إعدامي يأثر فيكم ويحبط عزيمتكم، مصر باقية بشعبها مش بحد تاني... كلها لحظات وهيتم شنقى.. وأنا طالب منكم طلب أخير.. هنقرأ الفاتحة ٣ مرات، مرة هنقراها جميعًا،

ومرة عند الشنق.. والمرة التالتة بعد الشنق، وعاوزكم إنتم والأجيال إللي هتيجي بعدكم كل ما تمرّوا على باب زويلة تترحموا عليّا وتقرأوا الفاتحة ٣ مرات.

هنا ظهر ابن زنبل الرمّال قادمًا من بعيد وقد استطاع الفرار من محبسه، اخترق الحشد فى هدوء حتى وصل إلى طومان باي، عانقه بشدة ثم مسح بكفيه حول رقبته برفق شديد وكأنه يدهنها بشئ ما قبل أن يجذبه أحد الحراس!!!

في مشهد حزين اختلط فيه البكاء بالنحيب جهر طومان باي بقراءة الفاتحة والشعب يردد خلفه بخشوع..

- ...... صراط الذين إنعمت عليهم..

ثم نظر إلى سليم مواصلًا:

- غير المغضوب عليهم

تحوّل نظره إلى خاير بك وباقي رجال سليم مواصلًا:

- ولا الضالين..... آمين

لحظات وكانت ابنته تجري مسرعة وسط الزحام وحولها الجند. ما أن رأت والدها عن بعد حتى أفلتت يد أمها وانطلقت نحوه، حاول طومان باي فتح ذراعيه لإحتضانها للمرة الأخيرة ولكن أعاقته القيود حول معصميه، قبل أن تصل إليه أمسك بها أحد الجنود وسلمها لسليم الأول الذي ربّت على شعرها برفق قائلًا:

- هل تحبين أباكِ؟

الطفلة ببراءة:

- أطيب أب في الدنيا.. هو مربوط كده ليه؟!

سليم:

- أنظري إليه مرة أخرى

إلتفتت الصغيرة نحو أبيها في نفس اللحظة التي أشار فيها سليم للمشاعلي لتنفيذ الأمر، هوى جسد طومان باي بقوة ليتدلى من حبل المشنقة.. ولكنه جذب معه الحبل الغليظ فسقط أرضًا ممزقًا المشنقة وسط ذهول الجميع، ارتفعت أصوات الرجال بالتكبير وانطلقت الزغاريد من أفواه النساء، صرخت الطفلة منادية أبيها، على صوتها صوت الجميع، احتقن وجه سليم الأول وزاغت عيناه وهو ينظر إلى خاير بك كالمسحور، إلا أن الأخير بثبات يحسد عليه قال على الفور:

- الحبل رقيق.... هات حبل غليظ يا مشاعلي.

للمرة الثانية يهوي الجسد فينقطع معه الحبل الغليظ ويعود التكبير والتهليل والزغاريد.... يتراجع سليم الأول قائلًا:

- أطلقوا سراحه وهيا نعود إلى ديارنا.... أطلقوا سراحه الآن.

حاول خاير بك الرد، ولكن سليم قاطعه بحدة قائلًا:

- أصمت يا خاين بك، أصمت.... أنت الذي سوّلت لي القدوم لمصر منذ البداية، مالي أنا ومال هؤلاء الرجال الذين لا يخشون الموت وإذا قتلناهم لا يموتون؟

اقترب بركات بن موسى من سليم قائلًا وهو يحاول ترويضه:

- أترك لي فرصة أخيرة...

نظر سليم إلى بركات في شك قائلًا:

- آخر فرصة أيها المحتسب... إما أن يموت طومان باي أو أعود لبلادي بصحبة جنودي فقط.

****

نظر بركات نحو ابن زنبل قائلًا بخبث:

- ما تقلقش يا مولانا السلطان.. أنا عارف إيه إللي بيقطع الحبل.

ثم مد بركات يده للمشاعلي وناولة حبلًا رقيقًا أسود اللون وهو يقول:

- ده حبل شيطاني من حبال الجحيم.. لو إلتف حول أي رقبة يشنقها على طول.

نظر ابن زنبل أرضًا في يأس شديد وقد أيقن أن هذه هي نهاية هذا الرجل الصالح طومان باي... على المنصة كان قلب طومان باي وعقله متجهان نحو ابنته التي أغرقت الدموع عيناها، صرخت مرتين وهللت فرحًا مرتين عقب نجاة أبيها من الشنق، صرخ طومان باي بصوته الجيهر:

- لا تحزني.. هنتقابل تاني في عالم تاني وهنكمل ضحكنا ولعبنا زي ما إتعودنا أنا وإنتي.

ثم نظر إلى الجمع وقال:

- ما تنسوش الفاتحة بعد موتي.

وضع المشاعلى الحبل الجديد حول رقبه طومان باي في قلق قبل أن يتحول هذا القلق لرعب، فقد أقسم المشاعلى أن الحبل شنق طومان باي من تلقاء نفسه دون أن يجذبه، وكأنَّ بهذا الحبل حياة شيطانية.

وأخيرَا سقط طومان باي شهيدًا، شهقت ابنته وهي ترى جسده المتدلي ينتقضِ فوق المشنقة، صرخت صرخة أصمّت آذان الحضور قبل أن تسقط مغشياَ عليها.

عمّ الحزن أركان البلاد، بكت مصر كلها لرحيل سلطانهم المحبوب طومان باي حالة من الإحباط واليأس حلَّت بالعامة، حتى السماء صارت ملبدة بالغيوم الحزينة.

أصدر سليم الأول عدة أوامر أهمها تعيين خايرِ بك والي على مصر ويصير لقبه ملك الأمراء، وتعيين جان بردي الغزالي واليا على الشام، وتعيين بركات بن موسى في منصب المحتسب ومدير المملكة وناظر الذخيرة وناظر المارستان.

صعد ابن إياس إلى القلعة مبدياً فرحه الشديد بالعهد الجديد، وما أن رأى خاير بك حتى أنشد قائلًا:

مصر أضحت سرور عندما قد تولى النيابة خاير بك

فلسان الحال عنها قائل يا لعمري قد أتاني الخير بك

****

الخميس ٢٣ شعبان٩٢٣ هـ :

بعد أن خرب مصر عن آخرها دمّر جيشها وقتل أبناءها ونهب خيراتها.. قرر سليم الأول العودة لوطنه، ألف ناقة تحمل الذهب والفضة والأموال والتحف والآثار ونوادر الكتب، هذا غير المراكب التي حملت كل خيرات مصر من القمح والشعير والخضر والفاكهة، هناك مركب أخرى جمعت كل العلماء والأدباء والقضاة والشعراء وجميع الصناع وأرباب الحرف من حدَّ ادين ونجارين وبنَّائين وحجارين وشادي العمارة وحتى الفعلاء.

رحل بعد ما يقرب من ثمانية أشهر، وقد ترك أغنياءها يتسوّلون وفقراءها يأكلون جيفة الكلاب والقطط والحمير، تركها لأمراءها الجدد من الخونة، عاد بركات بن موسى ليحكم قبضته الحديدية، يفرض ضرائب جديدة على مَن تبقى في هذا الوطن، حتى عندما زادت أعداد الوفيات فرض ضريبة دفن عن كل ميت.

احترق قلب ابن زنبل الرمال كما احترق بيته واحترقت علومه.... قبل رحيل الموكب السلطاني جاءه يونس باشا قائلًا:

- ابن زنبل الرمّال... السلطان سليم يعلم ما لديك من علم الفلك والأبراج وعدّة علوم أخرى لذلك استبقاق تحت حراسته مدة بقاءه بمصر، والآن هو يرغب في اصطحابك مع باقي العلماء إلى إسطنبول.

ارتجف ابن زنبل من الفكرة فرد قائلًا:

- أنا مكاني هنا في مصر.. مقدرش أبعد عنها حتى ولو كانت خراب.

يونس باشا:

- هل تعتقد أنني أتيت لمناقشتك في هذا الأمر؟! إنه أمر سلطاني هيا معنا إلى المركب سريعًا... هيا فنحن راحلون الآن.

نظر له ابن زنبل بدهشة أراد أن يقول شيئًا ولكنه انصاع لأمره بهدوء وهو يردِّد في نفسه:

- أول الراحلون أنت.

****

وصل موكب السلطان كاملًا إلى مدينة إسلامبول بإستثناء يونس باشا الذي قتله سليم أثناء العودة.

وبعد أسبوع وصلت السفن بما حوت من كنوز بشرية من ضمنهم أحمد بن زنبل الرمّال، لم يتبقَّ بمصر حرفي أو معلم أو كاتب أو رجل دين أو صانع أو تاجر أو مزارع ماهر.

هي أسوأ ثلاث سنوات مرت على ابن زنبل كان يشعر بالإختناق.. بالإشتياق إلى وطنه مصر، ولكن عمله كمفسر لأحلام وكوابيس السلطان سليم بالإضافة إلى قراءته للطالع يوميا له جعل بقاءه أمرًا محتومًا إلى إن جاء الأجل.. أصيب السلطان سليم بمرض نادر وغريب أطلق عليه الأطباء اسم فرخ الجمر. كان يلفظ أنفاسه الأخيرة وإلى جواره ابنه سليمان وحاشيته الكبيرة، وقف إلى جوارهم ابن زنبل الرمّال صامتًا شامتًا، قرأ السلطان المحتضر في عينيه شئ ما فأمر الجمع بالإنصراف ثم قال له:

- أراكَ سعيدًا أيها الرمّال

ابن زنبل بهدوء:

- إن للإنتقام لذة.

السلطان سليم:

- هل قتلتني بأحد ألاعيبك؟

- مش هجاوبك، هسيبك لما ينكشف عنك غطاءك وتعرف لوحدك، بس مش هتكون في عالمنا، هتكون هناك.. حيث ينتظرك طومان باي عند رب العالمين.

سليم بصعوبة بالغة:

- كنت أعلم أن نهايتي ستكون على يد أحد الخونة.

ابن زنبل بإستهزاء:

- إنت بالذات ما تتكلمش عن الخونة.. لأنهم أعوانك.

بصعوبة شديدة:

- أنا كنت أصنع دولة إسلامية كبرى لمواجهة أعداء الدين.

قاطعه ابن زنبل قائلًا:

- بلاش كمان تتكلم بإسم الدين لإنك أبعد الناس عنه؛ قتلت أبوك وقتلت إخواتك وزوجاتهم وأبناءهم وقتلت جيش المماليك إللي كان درع الإسلام الحصين على مر السنين الماضية... إزاي بتتكلم عن الدين وإنت حتى مش بتصلي ولا بتصوم؟، دا إنت بتجهر بشرب الخمر في نهار رمضان.

سليم بتحدّي رغم إحتضاره:

- أنا أستطيع أن آمر الحرس بقتلك الآن لتموت قبل مني، ولكني لا أريد أن يكتب التاريخ أنني مُت على يد رمّال ساذج، فلقد أمرت الكتاب بأن يكتبوا أنني مت وأنا أخطط لغزو جزيرة رودس.

ضحك ابن زنبل قائلًا:

- زوّرت تاريخ الدنيا، لكن تاريخ الآخرة إللي بيكتبه الملكين عن يمينك وعن شمالك هتعمل إيه فيه؟!!

سليم وهو يلفظ آخر أنفاسه:

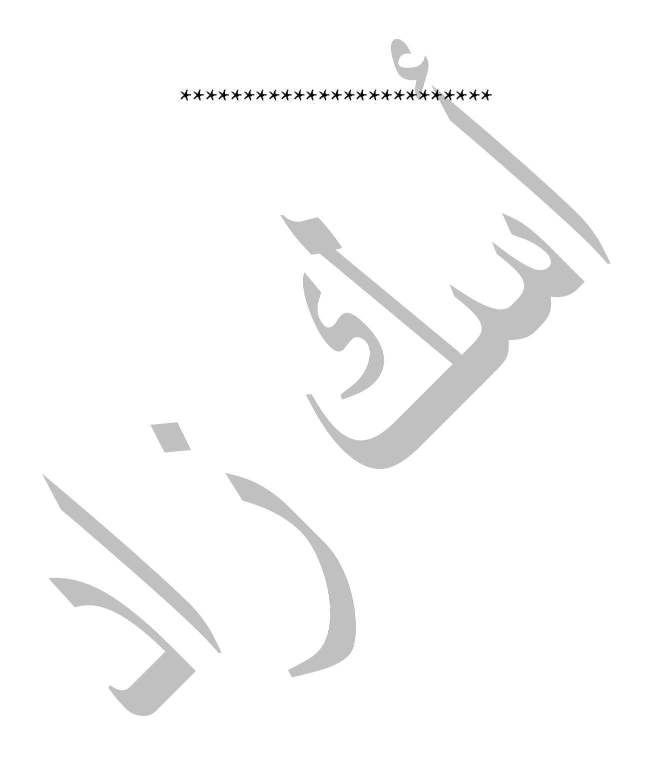
- لعنة الله عليك أيها القاتل اللعين.

بهدوء:

- رحمة الله عليك أيها السلطان...

بمجرد وفاة السلطان سليم كان أول طلب لإبن زنبل من السلطان الجديد سليمان هو السماح له بالعودة لمصر.

****



٢٥- خاير بك

على متن سفينة كبيرة يتطلع ابن زنبل أمامه لنهاية البحر التى لا تُرى، يعلم أن وطنه هناك حين ترسو هذه السفينة. يتقلَّب كالموج منتظرًا تلك اللحظة السعيدة، حاملًا كتبه وأوراقه وقواريره... الحسنة الوحيدة التي يذكرها للسلطان سليم أنه أعطاه دارًا واسعة وسمح له بإستكمال علومه وتجاربه، كان من ضمن هذه العلوم أن قام ابن زنبل بإختراع مسحوق مميت يتسبب في الموت السريع دون أن تظهر له أعراض سوى إرتفاع درجة الحرارة وضيق التنفس في بادئ الأمر، ثم يحدث فجأة الخلل التام في كل وظائف الجسم... صنع عمامة من الحرير غمسها بهذا المسحوق لعدة أيام قبل أن يهديها للسلطان الذي سقط في الفخ اجتمع الأطباء وأعلنوا أن السلطان أصيب بمرض نادر يدعى " فرخ الجمر " وهو ما عُرِفَ بعد سنوات طويلة بإسم الجمرة الخبيثة، مات سليم الأول ومات سر قاتله معه، تولى بعد منه ا بنه سليمان ذو السبعة عشر عامًا.. كان دمويًا مثل والده ولكنه كان يمتلك العقل والحكمة، بمجرد وصول السفينة إلى مدينة الأسكندرية استنشق ابن زنبل هواء وطنه بسعادة ومرح، بدا وكأنه تنفس من جديد بعد سنوات شعر فيها بالإختناق...

استقر به الحال إلى العيش بالإسكندرية، إختار منطقة أبو قير بالقرب من البحر ليعيد فيها أبحاثه وعلومه مرة أخرى بعيدًا عن القاهرة بقلعتها المقيتة المرعبة التي يسكنها الآن خاير بك وبركات بن موسى، وصلته أخبار عن تمرد قام به جان بردي الغزالي ضد السلطان الشاب سليمان، ولكن هذا الأخير أرسل له جيشًا جرار إلى الشام فهزموا جيشه.. فتنكر الغزالي مرتديًا ثياب ممزقة، حلق رأسه ولحيته وسار في الطرقات ناويًا الفرار دون أن يعرفه أحد، ولكن ابنه بالتبنِّي "علي" قد وشي به وأبلغ إياس باشا قائد

الجيش العثماني.. فتمّ القبض عليه وقطعت رأسه وأرسلت إلى السلطان سليمان، سعد ابن زنبل بهذا الخبر، كان يُمنّي نفسه بالإنتقام منه.. ولكن ها هى خيانته ترتد إليه، لم يتبقّ سوى خاير بك وبركات بن موسى.. ولهما مع ابن زنبل موعدًا لن يخلفاه أبدًا.

****

محرم ٩٢٧ هـ الأسكندرية :

هناك منزل مكون من طابقين على شاطئ البحر المتوسط بأبو قير يشهد أكبر ثورة علمية وصل إليها إنسان فى ذلك الوقت، وجوده في الدولة العثمانية منحه الكثير من الوقت ليطوَر علومه على الورق فقط، وها هو الآن يشرع في تنفيذها مرة أخرى متجنبَا أخطاء الماضي.

وحيدًا، منعزلًا عن الجميع، غرق ابن زنبل الرمّال بين كتبه وعلومه، حجرة إختبارات أكبر كثيراَ من تلك التي حرقها الجيش العثماني بالجزيرة الوسطي.

بالرغم من أنه خصّص الطابق الأرضي كمعمل كبير والطابق العلوي للسكنى.. إلا أنه لم يغادر الطابق الأرضي إلا في فترات متباعدة، فأبحاثه وعلومه أخذت كل وقته وطاقته.. حتى أن النعاس كان يغلبه فيستلقي أرضًا إلى جوار الأوعية والقوارير والكتب والأعشاب المتناثرة، لم يتوقع أن تنهار مصر ويصل بها الأمر لهذا الحال، انهارت إقتصاديًا وعلميَا وثقافيَا وإجتماعيَا الناس.. ما بين الفقير والأفقر، مَن يجد قوت يومه يُعدّ من مصاف الأغنياء، لصوص، متسولون، مرضى، فقراء.

هكذا أصبح أهل مصر التي كانت عامرة.

سأل عن حسن بن مرعي، كم كانت سعادته بالغة عندما علم أن المصريين قتلوه هو وشقيقه شكر ثم قاموا بقطع رأسيهما وعلَّقاها فوق حصان الشهيد طومان باي وطافوا بها الشوارع والطرقات فى القاهرة، وخلفهم امرأة غريبة لم يعرفها أحد تبكي وتصرخ قائلة: " أنا قولتلكم الخاين يخونه الله ما سمعتوش كلامى ليه يا ولاد؟ " .

بعد ما يقرب من العامين كان قد ابن زنبل قد بلغ من العلم ما يستطيع معه الخروج والمواجهة.

****

الجمعة ١٤ شوال ٩٢٨ هـ :

صعد القلعة في شجاعة.. أغلب الحراس يجهلونه، أما حاجب الحجاب فقد كان يعرفه جيدًا لذا فعندما أخبر ملك الأمراء خاير بك انتفض هذا الأخير قبل أن يعاود الإبتسام بسخرية مشيرًا للحاجب بالسماح له بالدخول..

ابن زنبل دون أن يلقي السلام:

- بالرغم إني كنت عزلت نفسي عن شئون الدولة منذ وفاة الشهيد طومان باي وسفري لإسلامبول، إلا أن الخبر المهم إللي أنا شوفته في رمالي، لازم أقوله لخاير بك وجهًا لوجه.

امتقع وجه خاير بك وتسلَّل القلق لخاطره لعلمه بكراهية ابن زنبل له، رأى الأخير هذا القلق فإبتسم قبل أن يقول:

- بسرعة كده خفت وإزداد إحمرار وجهك...؟! انتظر لما تسمع الخبر.

تأكد خاير بك أن الخبر ليس سعيدًا من سعادة ابن زنبل، أشار له بالجلوس قائلًا:

- ألقِ السلام أولًا يا ابن زنبل.

بشجاعة:

- السلام لا يلقى على الخونة.

إمتصّ خاير بك العبارة الأخيرة قائلًا بقلق:

- قول إللي عندك يا ابن زنبل.. أنا عارف إن رمالك مش بتعاكس.

ابن زنبل بأسلوبه التشويقي الشهير وبلغة عربية بسيطة:

- هكذا الدنيا تفعل بأهلها.. فهنيئًا لمن أعرض عنها وقنع باليسير وتصدَّق من ماله بالكثير، فتبًا لها من دنيا غدارة تجد بعد حلاوتها المرارة.. ألم ينهَك الله عن الغدر والخيانة..؟ ها أنت الآن تستعد للرحيل، فجهِّز كفنك وأترك مقعدك لمَن يجلس خلفك قريبًا... قريبًا جدًا بإذن الله، جئت أبشِّرك بدنوّ أجلك.

خاير بك برعب:

- ابن زنبل.. إنت أكيد عندك الحل.

ابن زنبل بإستهزاء:

- الحل من ايه؟! من الموت!! إنك لميت وإنهم لميتون ثم إنكم يوم القيامة تختصمون.

خاير بك:

- أعمل أي حاجة من شان أعيش وأكفَّر عن ذنوبي.

ابن زنبل وهو يستعد للرحيل:

- قُضِيَ الأمر

خاير بك صارخًا وهو يشهر سيفه لأعلى:

- إلزم مكانك .. مش هسيبك ترحل يا رمّال قبل ما تنقذ روحي.

ابن زنبل بإستهزاء:

- أنقذها من الموت إزاي؟!!

خاير بك متوسلًا:

- ممكن تقول لى أجلي باقي فيه كام يوم...؟ وهل هموت مقتول ولا على فراشي؟

ابن زنبل بعد تفكير عميق:

- أجلك فاضل فيه بحسب علم الرمال ٣ شهور.

شهق خاير بك برعب قبل أن يقول:

- والحل؟ إنت أكيد عندك الحل يا رمال... عندك الحل ومانعة عني؟

بعد تفكير قال:

- أنا عندي الحل فعلًا.. لكن شروطه صعبة عليك.

كانت هذه العبارة التي أراد سماعها من ابن زنبل، انتفض خاير بك، أمسك بيد ابن زنبل قائلًا بتوسّل شديد:

- أنا مستعد لتنفيذ أي شيء بشرط أجلي يطول.

حكَّ ابن زنبل جبهته قليلًا قبل أن يقول:

- هي نفس الشروط إللي أنا قولتها للسلطان سليم ورفض ينفذها.

- إيه هى..؟ وأنا هنفذها حالًا.

أخذ ابن زنبل نفس عميق قبل أن يقول:

- أموالك إللى جمعتها من الحرام تتبرع بيها كلها للفقراء.. تعطي المحتاجين وتكسو المساكين وتطعم الجياع.

- بسيطة.. كل أموالي من دلوقتي للفقراء.. مش هسيب دينار واحد إلا لما أنفقه عليهم.

ابن زنبل:

- بشرط إنك تنفق كل أموالك خلال شهر واحد.. وأنا هصنع لك الترياق وهرجعلك تاني بعد شهر.

- وهتسيبني أتألم وأتعذب كده؟

- لعل العذاب والألم يكفر عنك ذنوبك.. ولعل الصدقة تطفئ نار جسدك المحترق.

بعد شهر كامل يُعدّ هو الأفضل في تاريخ نيابة وحكم خاير بك لمصر؛ حيث أعطى الفقراء والمساكين والمحتاجين بغير حساب، فتح خزائنه التي لم يزد عنها سوى خزائن قارون، وهب كل أمواله للغير.

تعجّب الجند والحراس والخدم من هذه الدنانير الذهبية التي توزع ليل نهار على العامة.. وهم الذين لم يقبضوا رواتبهم منذ فترة طويلة بحجة فقر البلاد.. آلاف الآلاف يتم استخراجهم من مخازن سرية مختلفة، توزَّع على الناس مع طلب بسيط وهو الدعاء لخاير بك بالشفاء..

الجمعة ١٣ ذو القعدة ٩٢٨ هـ :

بلهفة شديدة استقبل خاير بك ابن زنبل الرمّال. ثقته بنفسه جعلته يقول بشموخ:

- شهر بالتمام والكمال.

خاير بك:

- معاك الترياق؟

ابن زنبل :

- طبعًا معايا.. أومال أنا جاي ليه؟!!

بلهفة:

- طب هو فين؟

ابن زنبل:

- عاوز بس أقولك على حاجة مهمة... قبل ما نتكلم عن الترياق لازم نتكلم عن المرض وعن أسبابه. بس قول لى الأول الأطباء قالولك ايه؟

- كل الأطباء عجزوا عن معرفة مرضي.. مفيش غير طبيب عثمانى قاللي مرضك نادر وغريب.. شبه المرض إللي أصاب السلطان سليم في أواخر أيامه.

ابن زنبل بحماس:

- قال كلمة الحق.

خاير بك مستطردًا:

- لكنه قال إنهم فشلوا في علاجه لحد ما مات.

ابن زنبل:

- صحيح وأنا كنت شاهد على كده

شعر خاير بك بالقلق فقال بحدة:

- فين الترياق يا ابن زنبل؟

ابن زنبل ببرود:

- مش لما تسمع حكاية المرض الأول.

خاير بك بعصبية:

- أنا مش عاوز أسمع حكايات، أنا عاوز الترياق دلوقتي.

ابن زنبل متجاهلًا عصبيته:

- من أكتر من تلات شهور جالك تاجر مغربي كبير، كان مسافر للحج واستقر في مصر إسبوعين... فاكره ولا لأ؟

خاير بك:

- أيوة فاكرَه التاجر المغربي الثري.. ده كان بيوزع الهدايا على الناس في الطرقات.

ابن زنبل:

- وإنت أرسلت جندك لنهب الهدايا دي من الناس واستوليت عليها.. إيشي قماش، على إيشى عطور، على إيشى متاع، دا غير الأموال... صح ولا

إيه؟

نظر خاير بك أرضًا وهو يقول:

- بس أنا كفَّرت عن ذنوبي دي كلها ووزَّعت على الناس كل أموالي بما فيهم الهدايا دي.

ابن زنبل مواصلًا:

- تاني يوم إنت استدعيت التاجر المغربي للقلعة وفرضت عليه ضريبة مرور للحج ونهبت نص أمواله برضاه

- أيوة لكن ...

قاطعه ابن زنبل مواصلًا بحدة:

- التاجر ده وهو ماشي أهداك زجاجة عطر جميلة وقالَّك إنها صنعت خصيصًا من أجلك.

صمت خاير بك ليستمع لباقي حديث ابن زنبل:

- العطر ده هو المرض إللي مالوش ترياق.. والتاجر أنا إللي أرسلته إليك.

صعق خاير بك من العبارة الأخيرة وابن زنبل يواصل بأداءه التمثيلى:

- يوم شنق طومان باي أقسمت إني أنتقم من كل الخونة إللى تآمروا عليه.. كان أوّلهم سليم العثماني إللى قتلته بنفس الداء، الغزالي قتلته خيانته، حسن ابن مرعي الشعب سبقني وإنتقم منه، مش فاضل غير اتنين: خاين بك إللي هيموت دلوقتي، ثم الشيطان بركات بن موسى إللي هييجي دوره عن قريب.

كانت شفتا خاير بك ترتجفان بشدة وابن زنبل يتشفّى قائلًا:

- أرسلتلك التاجر من شان تدوق طعم الخيانة، أمرضتك بفرخ الجمر زى الخاين سليم العثمانى إللي ترك جهاد أجداده فى بلاد الفرنجة ودار على بلادنا يقتلنا بدون ذنب، ولولا خيانتك إنت والمقبور الغزالي ما كانش حال مصر هيصبح كده، لكن نقول إيه؟ خونة كل عصر لازم يطلعوا من رجال السلطة.

صرخ خاير بك بأعلى صوته مستدعياَ الحراس.. ابتسم ابن زنبل وهو يجلس على كرسي الحكم قائلًا بسخرية:

- تعتقد أن ابن زنبل الرمّال هيفوته حاجة زي دي؟ أنا رشيت سائل أزرق هيمنع الحراس من الدخول.. ده حتى مش هيسمعوا صوتك.

وضع ابن زنبل يده على المقعد الخشبي قائلًا:

- لعنة الله عليك يا كرسي السلطنة.. إزاي بعد ما قعد عليك طومان باي يقعد عليك خاين بك...؟ إزاي استحملته وما خسفتش بيه الأرض؟

سقط خاير بك يتلوّى كثعبان يحتضر.. لم يتركه ابن زنبل إلا وهو في نزع الموت، سقط في غيبوبة تامة ثم مات بعد يومين مغضوباً عليه من العامة والخاصة، لم يدعُ له أحد بالرحمة أو المغفرة، ظل اسمه سُبّة يتبادلها المصريين لسنوات كلما أراد أحدهم أن يوصم غيره بالخيانة قال: "هو أخون من خاير بك".

يتولى مصطفى باشا ولاية مصر.. يتقرب من ابن زنبل لسابق معرفته به منذ أن كان بالعاصمة العثمانية، حيث برع ابن زنبل وقتها في تفسير الأحلام وضرب الرمل والتنجيم. لم يكن قرب ابن زنبل من الوالي الجديد إلا لغرض واحد فقط وهو الإنتقام من آخر الخونة بركات ابن موسى.

****

صعد بركات بن موسى إلى القلعة، على وجهه إبتسامة خبيثة يواري بها غضب شديد يحرقه من الداخل بعدما أمر مصطفى باشا بعزله من الحسبة وتعيين محتسب عثمانى بدلًا منه، يعلم بركات أن هناك صلة بين عودة ابن زنبل الرمّال وهذا القرار العنيف.

بركات بن موسى بهدوء:

- أنا مش بعترض على عزلي من الحسبة، لكن بتساءل إن كنت قصّرت في عملي.. أنا خدام الدولة العثمانية أكتر من عثمانيين كتير.

نظر مصطفى باشا إلى ابن زنبل بطرف عينه قبل أن يقول بلغة عربية فصحي:

- تقول النجوم أن وجودك في القلعة سوف يكون فأل نحس لي.

إلتفت بركات إلى ابن زنبل قبل أن يقول:

- الرمّال الكداب ده ولاءه لدولة الشراكسة لحد الآن أكتر من ولائه للعثمانيين.

رد مصطفى باشا:

- هذا ما يعجبني فيه ... هو مخلص لوطنه وليس خائنًا له.

شعر بركات بالصدمة.. أوشك على الانتفاخ، ولكنه سيطر على غضبه وقال:

- أنا ممكن أدفع لخزينة الولاية ضعف خراج العام الماضي.

مصطفى باشا:

- ولو دفعت الضعفين لن أقبلك في القلعة ولن تعود لمنصب المحتسب

أبدًا.

بركات بهدوء:

- الأمر أمر مصطفى باشا.. وعلى بركات تنفيذ الأمر.

- إذن تنفذ الأمر كاملًا.

- هو مش الأمر عبارة عن عزلي من الحسبة؟!!!!

نظر مصطفى باشا إلى ابن زنبل مبتسمًا وهو يقول:

- عزلك ومصادرة أموالك ودارك وكل أملاكك.

بهت بركات بشدة وطرق الأرض بقدمه ثلاث مرات ولكن لم يحدث الزلزال المعتاد، ضحك ابن زنبل قائلًا:

- بلاش تضرب الأرض برجلك لإني سكبت سائل بيمنع الزلازل الشيطانية.

إحمرت عينا بركات بشدة، بدأ في الانتفاخ.. ثم تحوّل لهيئته المرعبة وهو يزوم، قفز مصطفى باشا خلف ابن زنبل صارخًا:

- ما هذا يا ابن زنبل؟!

قفز بركات كالفهد نحو ابن زنبل الذي بادره بلكمة قوية أسقطته أرضًا.. لم يستطع بركات القيام بسهولة من قوة المفاجأة وليس اللكمة.. دهشته تركته أرضًا وهو يتطلع لإبن زنبل الذي بدا شامخًا وهو يقول:

- بحول الله ثم بالعلم أنا أقوى منك دلوقتي، السنين إللي مرت احتطت لكل شئ.. وضعت معجزات علمية كتير وهبتني القوة علشان أتخلص من أمثالك من الخونة.

نهض بركات وتمالك نفسه، قفز مجدداً نحو ابن زنبل، إلا أن الأخير أمسك برقبته بكلتا يديه وهو يقول:

- اليوم آخر أيامك يا ابن عنقا.

ضغط ابن زنبل بشدة على رقبته ولكن بركات أفلت من بين يديه وهو يعوي كالذئب المنهزم، تراجع للخلف وابن زنبل يتقدم نحوه، كان مصطفى باشا قد سقط مغشياً عليه عندما حاول بركات الفرار ولكن كل الأبواب موصدة، حاول تحطيمها ولكنها تبدو أقوى من ذي قبل.

ابن زنبل ساخراً:

- مش قولتلك.. إنت دلوقتي أضعف مني.. الأبواب والجدران متأمنة من قبل ما تحضر، المرة دي الحاجز أقوي من حاجز السائل الأزرق إللي إنت اخترقته بالنيران.. فاكر اليوم ده لما هجمت عليك أنا والشهيد طومان باي؟

بركات شبه متوسلًا:

- أنا لما كنت أقوى منك رفضت أقتلك وكنت أقدر وقتها.

رفع ابن زنبل سيفًا فضي ذو مقبض أخضر اللون وهو يقول:

- راسك هتتعلق على باب زويلة النهاردة.. عارف باب زويلة إللى اتعلقت عليه راس أطهر إنسان في زمانك؟

شهق بركات برعب فور رؤيته للسيف الفضي.. راح يجري يميناً ويساراً كفأر مذعور في مصيدة محكمة.. وقف ابن زنبل يستمع لصراخه بتلذذ.

- إعطني فرصة أخيرة يا ابن زنبل.. هتوب وهكون إنسان صالح.

- وجرايمك إللي فاتت؟

وهو لا يزال يجري يمينًا ويسارًا بقلق وخوف:

- ربنا غفور رحيم.. إعذرني أنا طبيعتي هي إللي كده، أنا ذنبي إيه..؟ نص إنسان ونص جان.

- كنت تقدر تتغلب على طبيعتك، لكن إنت بتعشق أذية الناس، ودلوقتي هتاخد جزاءك.

ا زدادت سرعة بركات وهو يتخبط ما بين الجدران باحثًا عن مخرج.

- هتروح فين من ابن زنبل يا بركات..؟ إنت عارف إن أنا الوحيد إللي أقدر أقتلك في زماني الحالي. وبصراحة أنا مش هسيب الفرصة والشرف العظيم ده.

- العفو عند المقدرة يا ابن زنبل

- مش مع أمثالك.. لأنى لو تركتك تعيش أكيد هتظلم وتخون في زمان تاني غير زماني، وساعتها مش هتلاقي ابن زنبل إللي يتصدى لك.

بخفة ورشاقة غير عادية قفز بركات نحو النافذة الوحيدة بأعلى الغرفة، ابتسم ابن زنبل قائلًا:

- انظر وراك هتلاقي ارتفاع القلعة الشاهق والصخور بتحاصرك، فلو قررت تقفز أعتقد إنك هتموت قبل ما توصل الأرض.

نظر بركات بن موسى خلفه وأمعن في النظر، هذا الإرتفاع الشاهق بالأسفل منه يقف أحد الحراس لا يكاد يُرَى من شدة الإرتفاع، ابتسم ابن زنبل ثم ذابت الإبتسامة سريعًا وهو يرى بركات يلقي بنفسه من النافذة.. انطلق ابن زنبل نحوها ليري مصير ضحيته، تلقفته صخور الجبال، تقذفه أحدهم للأخرى بقسوة، تتلقاه صخرة أخرى بعنف لتلقيه على صخرة

بالأسفل منها بحدة وهو لا حول له ولا قوة.

بعد ا رتطامه بالصخور الجبلية سقط أرضًا منكبًا على وجهه دون حركة واحدة.. بدا بركات بن موسى وكأن ضلوعه قد اختلطت ببعضها وعظامه تحطمت.. سقط جثة هامدة لا حركة فيها، ظل ابن زنبل ينظر إليه بقلق حتى حدث ما كان يخشاه، فجأة هبّ بركات واقفًا، تطلع لأعلى نحو النافذة ثم أشار لإبن زنبل بيده مودعًا إياه وهو يقول:

- إلى اللقاء يا ابن زنبل.. صعب إنك تعرف توصل لي تاني، هرحل عن مصر وهعود بعد ١٠٠ عام تكون إنت مُت.. هيسعدني وقتها إني أحرق قبرك بنفسي.

ثم طرق الأرض بقدمه ثلاثًا فأحدث زلزلة قوية... ابتسم بعدها وهو يشير مجددًا لإبن زنبل قائلًا:

- الوداع يا ابن زنبل.

استشاط ابن زنبل غيظًا فقبض على أصابعه بغضب قبل أن يقول:

- هفضل وراك يا بركات.. هبحث عنك وأنتقم منك، أنا وراك لحد يوم القيامة.

****

السويس ٩٣٠ هـ :

كان عبد الله الغريب يواصل عمله كعادته منذ الصباح الباكر بنشاط غريب، صاحب المخبز يوبخ باقى العمال وأغلبهم من الشباب ويستشهد بذلك الرجل الذى تجاوز عمره الثمانين عامًا ولا يزال يعمل بقوة وجد

دون أن تفتر همته، جاء للعمل منذ تسع سنوات، غريب عن البلدة، أبكم، لا زوجة له ولا أولاد، يعمل ولا يقبل الصدقة، تجاعيد وجهه ونظراته الحادة تثيران الفضول، مَن هذا الرجل؟ وما هى قصته؟ لا أحد يعلم، يحمل على كتفيه جوالين من الغلال والطحين.. وزن الواحد منهما خمسين كيلو جرام وسط ضحكات باقى العمال، حيث يقوم كل شابين بالتعاون فى حمل جوال واحد، واليوم قد شعر بتعب وإرهاق شديدين.. حاول رب العمل إقناعه بأخذ قسط من الراحة مع حصوله على أجره كاملًا ولكنه رفض بعند شديد، أصر على إنجاز عمله كاملًا، بل وآداء بعض المهام الغير موكولة إليه.. ولكنها فى صالح العمل، أهل البلدة جميعهم يحبونه ويبجلونه، هو شديد الطيبة معهم رقيق القلب، يحب الحدائق والمتنزهات، يهوى زراعة الزهور والرياحين ولكنه متجهِّم الوجه.. شديد الحزن دائما، يعشق الجلوس أسفل شجرة كبيرة على أطراف المدينة بعيدة عن الناس ويبكي فى صمت، توضأ لآداء صلاة العصر، سار بضع خطوات قبل أن يسقط صريعًا، لا أهل له..

ولكن بكى الجميع لفراقه وكأنهم أهله، بعد صلاة العصر كانت صلاة الجنازة، تم دفنه أسفل أحد الأشجار البعيدة التى كان يعشق الجلوس تحت ظلها.

عند منتصف الليل.. تسلل صابر أحد سكان البلدة نحو القبر، هطول الأمطار الشديد والسكون التام لم يمنعاه من آداء مهمته.. بل بالعكس سهّلا له الأمر، إلتفت خلفه بقلق، لا أحد، تأكد من ذلك، اطمأن تمامًا، لا يعلم لماذا أصر أهل البلدة على دفنه فى هذا المكان الغريب وليس فى المقابر، أزال التراب الذى تحوّل لطين بسبب الأمطار الغزيرة، وصل للكفن بصعوبة، أخرج من طيات ملابسه سوط أصفر، ضرب الميت به ثلاث مرات

وهو يردد فى كل مرة " بسم الله المحيي "، هب الميت جالسًا.

قال صابر بهدوء:

- أنا صابر يا عبد الله الغريب، إنت تعرف إنى صياد وبساعد فى تغسيل الموتى ودفنهم.. لكن في حاجة تانية محدش يعرفها، أنا بحمل سر الأموات إللي ورثته عن والدى.. فلو عندك سر عاوز توصله لحد أو أمانة عاوز تردها أنا هساعدك لأنى مكلف بكده.

نظر إليه الميت وأطال صمته وهو يحدَّق فى وجهه دون إجابة، فواصل صابر:

- إنتم مين الأول يا عم عبد الله؟! محدش يعرف عنك حاجة؟

بحدة قال:

- أنا قنصوة الغوري سلطان مصر والشام والحجاز.

شعر صابر بالذهول، ولكنه تماسك وهو يقول:

- إيه وصيتك؟

بلغة عربية فصحى:

- لا تخبر أحد بما ذكرته لك، حتى لا يحرق العثمانيون قبري، إجعل ذلك سراَ يموت معى.

٢٦- ضياع سر الأموات :

انتهى الضابط من سرد ما تعرض له وما تسبب في مقتله، فضربه زيدان بالسوط ثلاثًا وهو يردد بسم الله المميت.. أغلق المقبرة وترك ساقيه تسارعان الريح نحو زاوية الشيخ عبد القادر، وصل متلهفًا يلهث بشدة.. فلم يستطع التحدث، ربّت الشيخ على كتفه قائلًا:

- لعلها أخبار سعيدة.

أومأ زيدان برأسه بالإيجاب وأنفاسه تتلاحق، لم يستطع التحدث، فإبتسم الشيخ قائلًا:

- طب خد نفسك الأول وبعدين إتكلم.

بعد ربع ساعة....

- معنى كده يا زيدان إن البنت الميتة شيماء هي سكاديا زوجة زائر، وإنها عايشة معاه في المكان المقطوع ده في السلوم.

- أيوة تمام.

- إحنا كده عرفنا مكانها فين وعرفناها بتتحامى فى مين.

زيدان بهدوء:

- والمفروض نعمل إيه دلوقتى؟

الشيخ عبد القادر:

- سلِّم شغلك للمساعد بتاعك وإستعد هنسافر بكرة السلوم نجيب

البنت ونرجع.

فتح زيدان فمه ببلاهة والشيخ يواصل:

- البنت لسه فيها خير .. إحنا لازم نعيدها للموت ونكرمها قبل ما تتحوَل مع الوقت لشيطانة زيهم.

****

- إحنا بقالنا أسبوعين في السلوم كل يوم نطلع نروح عند البحر نعمل نفسنا صيادين ونراقب الإستراحة من بعيد.. لا البنت ظهرت ولا حد ظهر.

قال زيدان عبارته السابقة بتأفُّف، فإبتسم الشيخ عبد القادر قائلًا:

- إنت ليه عجول كده ومفيش عندك صبر أبدًا؟

زيدان مبتسمًا:

- العرق الصعيدي غلَّاب.

الشيخ عبد القادر:

- أصبر يا زيدان.. كل إللي صبر نال .. والندم كان نصيب المتعجَل.

- يعني هننتظر هنا كتير؟! أنا مش قادر أصبر.. لازم ندخل الإستراحة المقفولة.

الشيخ مقاطعًا بهدوء:

- أنا مش عارف الشيخ عبد الكريم الله يرحمه إختارك إزاي تحمل السر من بعده وإنت ما عندكش صبر؟

زيدان بحكمة:

- الإنسان صبره بينفد بسرعة لما بيتعرض لإختبار أكبر من عقله ومن احتماله.. ده حتى سيدنا موسى النبي المرسل من عند ربنا ما إستحملش إللي سيدنا الخضر عمله وصبره نفد بسرعة.

ابتسم الشيخ عبد القادر قائلًا:

- جبت الحكمة دي منين؟

- من المرحوم عبد الكريم، هو إللي علمني قصص القرآن.

- ويا ترى إتعلمت من قصص القرآن ولا حفظتها بس؟

- بتغيّر الموضوع ليه يا شيخ عبد القادر؟! إحنا هندخل الإستراحة دي إمتى ونهجم على زائر ونحرر البنت الميتة؟

- إنت ناسي إن الإستراحة عليها حراسة من يوم ما اتقتل الظابط؟

- أيوة بس الحرس بيتركوها ويمشوا من بعد المغرب لحد تاني يوم الصبح، وسهل جدًا ندخل في الوقت ده.

- أنا مخطط لكل حاجة.. وفي التوقيت المناسب هقولَّك يلا ندخل.

زيدان بضجر:

- طب إمتى؟ أنا زهقت

الشيخ ضاحكًا:

- أصبر يا عديم الصبر.. بكرة لما ندخل وتشوف الأهوال إللي جوه هتطلع تجري زي العيال الصغيرة.

صباح اليوم التالي استيقظ زيدان على صوت الشيخ عبد القادر وهو يوقظه بإنفعال وعصبية لم يعهدها فيه:

- زيدان... إصحى يا زيدان.. إلبس هدومك، إتوضَّى وصلِّي، وإستعد علشان هندخل الإستراحة دلوقتي.

زيدان بطاعة:

- حاضر حاضر، مع إني ما لحقتش أنام.

الشيخ عبد القادر بحدة:

- بسرعة.. بسرعة

أسرع زيدان في حركته وهو يتساءل:

- إيه إللي حصل؟ وإشمعنى النهاردة وبالسرعة دي؟؟

- ما تسألش.. شهِّل يلا بسرعة.

خطواته الحادة وعصبيته لم يعهدها زيدان من قبل.. اقتربا من الإستراحة توجه الشيخ عبد القادر نحوها بثقة، في حين كانت خطوات زيدان مترددة وبطيئة.

- دلوقتي خايف وبتقدم رجل وبتأخر التانية..؟ أومال فين صبرك إللي نفد؟ وفين شجاعتك؟

قالها عبد القادر بحدة، فكان رد زيدان المتواضع:

- الخوف من المجهول مفيش أشد منه.. أنا داخل مكان مسكون بالجان.. حاجة عمري ما شوفتها ولا أعرف هتعامل معاهم إزاي.. عاوزني أدخل

عليهم كأنى رايح أزور ولاد عمى..؟ دا أنا حتى ما شوفتهمش من زمن.. تصدق وحشونى؟

الشيخ عبد القادر وهو يدفع باب الإستراحة للداخل:

- إيه رأيك نسيب مهمتنا ونقعد نحكي عن قرايبك إللي ما شوفتهمش من زمن؟

شعر زيدان بسخرية الشيخ فقال بعفوية:

- ربنا يسامحك.

ابتسم الشيخ وربّت على كتفه برفق ثم دفعه لداخل الإستراحة ودخل خلفه.. تطلعا في جميع الأركان قبل أ ن يقوم زيدان بفتح النافذة بناءاَ على طلب الشيخ عبد القادر.

جلس الشيخ عبد القادر أرضًا في أحد أركان الصالة، إلى جواره زيدان الذي بدا عليه أقصى درجات الرعب والقلق:

- مش عارف إنت خايف إزاي...؟ المفروض بعد إللي إنت بتشوفه كل يوم وحديثك مع الأموات ما تخافش من حاجة.

زيدان بحكمة:

- بالعكس أنا ما عرفتش الخوف إلا بعد ما شوفت الميتين بيصحوا أودامي ويتكلموا معايا.. من بعدها بدات أعرف الخوف، لكن ربنا ثبتنى.

صمت الشيخ عبد القادر قليلًا قبل أن يقول:

- أنا هحكيلك حكاية يا زيدان... إسمعها وإوعاها كويس، مش عاوزك تحفظها.. عاوزك تفهم المعنى الباطن إللي فيها.. لأن الحكاية دي هيه إللي

دخلتني مجال التصوف وغيّرت مجرى حياتي.

نظر الشيخ لزيدان قائلًا:

- إنت فاهم أنا بقول إيه؟

هز زيدان رأسه بالإيجاب قائلًا:

- أيوة فاهم.. إنت عاوزني أعرف العبرة من الحكاية.

الشيخ مستطردًا:

- زمان أول ما خلصت دبلوم التجارة اشتغلت في مشرحة الأموات.. شوفت أهوال أقل شوية من إللي إنت شوفتها.. في الأول كنت بخاف جثث داخلة وجثث طالعة، كنت بنام جنب الجثث طول الليل لوحدي. مع الوقت اعتبرت نفسي كإني نايم جنب واحد صاحبي، أخد وآدي معاه في الكلام.. الليل طويل ومحتاج حد أتسامر معاه.. في يوم من الأيام جت المشرحة جثة لشاب حوالي عشرين سنة كان ملتحي وعلامة الصلاة في وشه كبيرة.. أول ما شوفته حسيت إن عينيه فيها حياة.. ما كانتش عين واحد ميت أبدًا، لدرجة إني سألت الدكتور وقولتله هوه ده ميت يا دكتور..؟ فرد عليّا وقال لأ ده حرّان وجاي يقعد في تلاجة المشرحة شوية.. بعد نص الليل كنت قاعد بسمع أم كلثوم وفي إيدي اليمين كوباية الشاي وفي إيدي الشمال سيجارة.

زيدان بدهشة:

- سيجارة..؟! إنت بتشرب سجاير؟

- بقولك زمان.. قبل ما أبقي الشيخ عبد الكريم، وقبل ما أتصوف.

- امممم تمام .. كمل.

ابتسم الشيخ وهز رأسه بتعجب قبل أن يواصل:

- الشاب ده كان طالب في الأزهر اسمه عبده، كان مأجر أوضة فوق سطوح عمارة قديمة جدًا في بولاق هو وواحد بلدياته من كفر الشيخ اسمه عزت.
المهم عزت ده نزل يشترى حاجة من تحت رجع لقي العمارة وقعت على سكانها، مات إللي مات ونجي إللي نجي، وكان من ضمن الأموات زميله عبده.

زيدان مقاطعًا:

- إللي هوه الجثة.

- مظبوط.. إللي هوه الجثة. المهم مات عبده وجابوه المشرحة عندنا لحد ما حد من أهله ييجي يستلمه علشان يدفنه .. كان شكل عبده غريب جدًا عن كل الأموات إللي شوفتهم قبله. تحسّ إنه مش ميت ولا حتى نايم، لا ده صاحي وعامل نفسه نايم.. قريت له الفاتحة كعادتي وقعدت جنبه أتسامر معاه، فقولتله: إزيك يا عبده أخبارك إيه يا ابن عمي..؟ مش عارف وقتها هو ابتسم إبتسامة خفيفة ولا أنا إللي إتهيألي.. سكت شوية وبعدين رجعت أكلمه علشان أطمن نفسي لإني بصراحة قلقت قوي من إبتسامته الغريبة دي إللي كانت بتزداد مع الوقت .. المهم قعدت أحكي معاه وأصبّره كأنه حي وأقوله الله يرحمك ده إبتلاء من ربنا وإنت إنسان مؤمن وإن شاء الله إللي عند ربنا يكون خير لك.. فجاة لقيت الإبتسامة زادت ولقيته بيقول: عزت... أنا اتسمرت مكاني، كنت هموت من الرعب وزاد رعبي أكتر لما مسك رسغ إيدي وضغط عليه بشدة.. روحي كانت هتطلع لولا إنه

قال: بسرعة عزت صاحبي أنا مستلف منه جنيه ووعدته إني هرجعه له أول الأسبوع إللي جاي لما أروح البلد وأرجع... ثم ضغط على إيدي أكتر وهو بيقول: أمانة عليك قبل ما أندفن تقول لأبويا يرد الجنيه إللي علياَ لعزت.

تدلَّى الفك السفلي لزيدان في بلاهة وهو يقول:

- وبعدين عملت إيه؟

- انتظرت تاني يوم علشان أبلغ أهل عبده بالأمانة محدش جه. فطبقت في الشغل لليوم التالت.. محدش جه برضه ولا حد إستلم الجثة.. كنت قاعد قلقان وتعبان من قلة النوم والراحة، لكن كنت خايف إنه يندفن قبل ما أنفذ طلبه.. قبل المغرب لقيت إتنين شباب جايين بيسألوا عليه عرفت إن واحد فيهم أخوه والتاني عزت صاحبه، وهما بيعملوا إجراءات الإستلام، سألت أخوه: أومال والده فين؟ ما جاش ليه يستلمه يوم الوفاة؟، رد بحزن أبويا إتوفى أول ما سمع خبر وفاة عبده، شعرت بالصدمة إللي أفقدتني تفكيري، فقولت بغباء: طب كان فيه جنيه عبده مستلفه من عزت صاحبه يا ريت ترده قبل الدفن، قال عزت بإستغراب: وإنت عرفت إزاي؟! هنا لقيت نفسي توهت ومش عارف أقول إيه.. إتلجلجت في الكلام شوية قبل ما أخوه يلحقني ويقول: هو إنت تعرف عبده؟ قولتله: اه فقال عزت: إمتى عبده قال لك على موضوع الجنيه؟ فقولت: من أسبوع قعدنا مع بعض وحكالي عن ظروفه وعن الجنيه إللي استلفه منك، فكشر عزت وقال عبده: إللي قالك من أسبوع مش كده؟! أيوة عبده إللي قاللي، فابتسم تانى وقال: بس عبده إستلف مني الجنيه قبل ما يموت بنص ساعة، يعني ما لحقش يقول لحد، الدنيا لفِّت بيا.. ما عرفتش أقول حاجة، ضحك عزت وقال: إنت هتخبي علياَ ولا إيه؟ هو فيه حد شاف كرامات من عبده

زي ما أنا شوفت؟

فجأة هبّ الشيخ عبد القادر واقفًا قبل أن يقول لزيدان:

- أقعد سبح ربك وأنا هقوم أعمل الورد بتاعي، وبكرة هحكيلك حكاية تانية من حكاوي المشرحة.

استمر وجود عبد القادر وزيدان داخل الإستراحة لمدة ثلاثة أيام متواصلة.. كانت عبارة عن صلوات وأذكار وحكاوي الذكريات، في اليوم الأخير قال زيدان:

- هو إحنا جايين هنا علشان نقعد ونتسامر بس؟! فين زائر وفين البنت؟ مفيش حاجة ظهرت ولا في جن ولا إنس في المكان غيرنا..

- أصبر يا زيدان

زيدان بشبه إنفعال:

- تاني هتقول لي أصبر يا شيخ عبد القادر؟، أنا ما عنديش صبر وإللي بيحصل ده فوق إحتمالي.

الشيخ عبد القادر بهدوء:

- هو إنا إللي استنجدت بيك ولا إنت؟

شعر زيدان بالخجل فقال بلطف:

- ما تزعلش مني يا مولانا.. بس أنا مستغرب من قعدتنا هنا، أنا توقعت إننا أول ما هندخل الإستراحة هنشوف العجب.. فين البنت وفين زائر؟؟

الشيخ مقاطعًا:

- ما هو قاعد متلقَّح أودامك أهو زي الكلب الأجرب.

قالها وهو يشير نحو أحد الأركان، نظر زيدان فلم يجد أحدًا، فأعاد نظره للشيخ قائلًا:

- هو مين ده إللي قاعد؟!!

الشيخ عبد القادر بهدوء:

- زائر القذر

زاغت عينا زيدان وشعر برعب قائلًا:

- يعني إنت شايفه دلوقتي؟!!

- من أول يوم دخلنا فيه الإستراحة وهو موجود .... فاكر لما صحيتك من النوم بدري وقولتلك يلا هنروح الإستراحة دلوقتي؟

- أه فاكر

- أنا كنت منتظره لما ييجي وندخل وراه.. وأول ما شافك دخلت إستعد لمهاجمتك، لكن لما شافني دخلت وراك خاف مني وقعد في الركن زي الكلب الأجرب.

زيدان ببلاهة:

- هو مين ده إللي قاعد زي الكلب الأجرب؟!

- زائر.

- يا نهار إسود... بسم الله الرحمن الرحيم.

ظل زيدان يستعيذ بالله من الشيطان ويردِّد بعض الأيات والأدعية إلى أن قال الشيخ:

- أنا بقالي ٣ أيام بحاول أستفز فيه علشان يشتبك معانا.. لكنه بارد زى التلج.

زيدان برعب:

- وبتستفزه ليييه بس؟

- لأن ما ينفعش نهاجمه، لازم يهجم هو الأول ونكون إحنا المدافعين عن نفسنا.. دي أصول العهود القديمة إللي بينّا وبينهم من زمان.

- والمفروض نعمل إيه دلوقتي؟

- نستفزه لحد ما يهاجمنا وأول ما يهاجمنا نمسكه ونربطه، تيجي قبيلته علشان تحرره فنتفاوض معاهم.. البنت قصاد زائر.

زيدان بهدوء:

- وهو سامعك دلوقتي؟!

- طبعًا

- طب وطِّي صوتك لا يعرف خطتك.

- لا ما تقلقش.. ده غبي، حتى لو سمع مش هيفهم.

زيدان برعب:

- إنت بتستفزه دلوقتي... صح!!

- صح.. لكن تقريباَ كده هو إللي بيستفزني ببروده وعدم رده عليا، ده

مش بيعمل أي رد فعل، لا حزن ولا غضب ولا حتى بيبص ناحيتنا من الأساس.

- طب الحمد لله، يا رب يفضل ساكت كده على طول.

نظر الشيخ عبد القادر لزيدان بدهشة ممزوجة بإزدراء، قبل أن يقول:

- ما تعرفش طريقة تستفزه بيها زي ما بتستفزني من أول ما شوفتك.

ضحك زيدان بعفوية قائلًا:

- أعرف طبعًا

عبد القادر بإستهزاء:

- سمّعني طريقتك السحرية، بس بالله عليك ما تستفزنى أنا.

- أنا عارف إنك بتستهزأ بيا وبتستقل مني.

الشيخ مقاطعًا وهو يربّت على كتف زيدان:

- عمري ما عملت كده مع حد يا زيدان، أنا ممكن أستغرب من تصرفات إنسان أو ما تعجبنيش أفعاله، لكن عمري ما أسخر منه أو أستقل بيه.

- يعني إنت مصدقنى إني ممكن يكون عندي الحل إللي يستفزه؟

- أه مصدقك

- طيب إحلف إنك مصدقني

الشيخ بعصبية:

- أستغفر الله العظيم... قول يا زيدان

زيدان بهدوء:

- حاضر... حاضر هقولك على إللي يخليه يقوم يتعصب علينا وإحتمال يخنقنا.

- ما تخافش.. ده ضعيف جدًا، أنا أقدر عليه وعلى قبيلته كلها بسهولة.

زيدان بصوت خافت:

- الظابط المرحوم كان قاللي في نص الحكاية بتاعته إن زائر كان بيغير جدًا على مراته إللي هيه البنت المرحومة شيماء.. وما كانش بيستحمل أي كلمة غزل فيها.

نظر عبد القادر إلى الركن بطرف عينه وابتسم قبل أن يقول لزيدان:

- هاه.. كمل بسرعة.. الله ينور عليك

واصل زيدان قائلًا:

- حاول إنك تستفزه عن طريق حبيبته المرحومة، يعني تتغزل في جمالها ومحاسنها و.....

هنا ازدادت إبتسامة الشيخ عبد القادر، وقف متهيأً للدفاع عندما اندفع زائر وهو يضغط على ما تبقى من أسنانه السوداء نحو زيدان الذي من حسن حظه لم يرَ هذا الهجوم.. تصدَّى عبد القادر لهجوم زائر بقبضة واحدة بيمناه أطاحت به فأعادته مكانه، هب زائر واقفًا مرة أخرى وكأنَّ الضربة لم تُصبه، نظر لعبد القادر بغضب فعاجله الأخير بقبضة أخرى أقوى أسقطته ولكنها لم تؤثر فيه.

- الشيطان الدميم عاوز ياخد بنتنا الجميلة.. ده بُعدك زي ما الجنة بُعدك.. إحنا جايين ناخد البنت ونرحل ولو اتكلمت أو اعترضت إنت

عارف أنا ممكن أعمل إيه.

كان زيدان يسمع عبد القادر فقط.. عندما رآه يندفع للأمام أيضًا ويوجه لكمه في الهواء وهو يقول:

- إنت مخلوق ضعيف.. أنا ابن آدم الجميل صاحب العقل والحكمة والتوبة، هاخد البنت يعني هاخدها.

زأر زائر كأسد مهزوم وواصل هجومه على الشيخ عبد القادر ولكن دون جدوى، هي ذات القبضة باليد اليمني في ذات الفك الأيسر.. سقط زائر وقام سريعًا فإندفع نحوه الشيخ عبد القادر وأمسك برقبته قائلًا:

- هات بنت جنسنا يا زائر وإلا هتنول عذابي وإنت عارف عذابي إزاي ..

سقطت قطرة ماء صغيرة على يد الشيخ عبد القادر لا يعلم مصدرها، نظر لأعلى سقف الإستراحة فلم يجد فتحات ولا يوجد أمطار بالخارج، عندما نظر لوجه زائر أدرك أنها دمعه من عينه... حتى الشياطين تبكي لرحيل أحبابهم.

أرخى الشيخ عبد القادر قبضته من راقبة زائر الذي جلس القرفصاء ينتحب ويبكي... إلتفت الشيخ عبد القادر لزيدان أراد أن يسأله عن رأيه فيما رأه ولكنه تذكر سريعًا ان زيدان لم يرَ شيئًا عندما هز هذا الأخير كتفيه ومطَّ شفته السفلى.. جلس الشيخ أرضًا إلى جوار زائر وربّت على كتفه برفق وقال:

وعزلت أهل العشق حتى ذقته فعجبت كيف يموت من لا يعشق

وعذرتهم وعرفت ذنبي إنني عيرتهم فلقيت منهم ما لقوا

ظل زائر يبكي وينتحب بشدة كطفل يودع أمه.. تعاطف الشيخ ذو القلب الرقيق معه، فلم ينتبه لتلك القطة السوداء الهزيلة التي مدت رأسها من ناحية المطبخ ثم انسحبت بهدوء، كما لم ينتبه لنظرة زائر الحادة لها... نظرة تحمل كل الشر في هذا العالم.

****

كان الهجوم على الإستراحة شرسًا من جحافل الجن.. أرضًا وجوًا وعبر الجدران ومن تحت الأرض، فقائدهم زائر مقيد تحت يد إنسي، وأين؟ في أرضه التي يسكنها منذ آلاف السنين..

وقف الشيخ عبد القادر في منتصف الغرفة طالباً من زيدان أن يقف خلفه ولا يبرح مكانه أبدًا، راح يكيل اللكمات والصفعات والركلات لتلك المخلوقات التي تحوم حوله كالذباب.. أعداد كبيرة جدًا، ولكنها لا تجرؤ على فعل أي شئ أكثر من الإقتراب من الشيخ والصراخ في وجهه.. كل من اقترب تلقّى ضربة فيبتعد وهو يحوم مصدراً عزيف مرعب.. وبينما اللكمات والصفعات تتوالى عليهم، إذ سمع الشيخ صوت استغاثة من زيدان نظر خلفه فوجد أحد الجن حمله وخرج به من باب الإستراحة قبل أن يطير بعيدًا بإتجاه البحر.

خرج الشيخ مسرعًا وهو يجري فوق الشاطئ قائلًا بقوة:

- اضربه يا زيدان بسر الأموات.. طلع السوط واضربه بسرعة.

تعثر زيدان كثيراً إلى أن استطاع إخراج السوط من داخل جلبابه الواسع، شعر بدوار شديد عندما نظر لأسفل فوجد البحر بينما كانت الإستراحة تبتعد.. هو لا يرى المخلوق الذي يحمله ولكنه يشعر بقبضته القوية فوق كتفيه يوشك معها قلبه أن يتوقف.. وجد صعوبة شديدة في التنفس وهو

يسحب هذا السوط الأصفر ويضربه فوق كتفه مباشرة.. فجأة شعر بإرتخاء القبضة ووجد نفسه يسقط في البحر.. لحسن حظه كان سقوطه قريباَ من الشاطئ.

- إضرب بالسوط فوق راسك.. على يمينك.. على شمالك.. على شمالك تاني.. فوق راسك.. إضرب في كل الإتجاهات.. لو حسِيت بإيد بتمسكك إضرب.

كان الشيخ عبد القادر يوجه زيدان فور خروجه من البحر.. المياه تتساقط من ملابسه المبللة بغزارة.. شرع عدد آخر من الجن في محاصرة زيدان في محاولة جديدة لإختطافه، أسرع الشيخ عبد القادر نحوه وهو يصفعهم ويركلهم. أمسك بزيدان قائلًا وهو يحيطه بذراعه اليمين.

- هات سر الأموات بسرعة.

تردد زيدان للحظات ونظر في عين الشيخ عبد القادر بقلق قائلًا:

- من وصايا الشيخ عبد الكريم إنى أسلم روحى ولا أسلم السوط لغيرى.

نهره الشيخ عبد القادر قائلًا:

- مفيش وقت للشرح، هات السر بسرعة.

بيد مرتعشة ناوله زيدان السوط الأصفر، رفع الشيخ عبد القادر السوط لأعلى وابتسم إبتسامة ظفر..

تراجع الجن وإصطفُّوا صفًّا واحدًا منتظمًا ومتساوي بشكل إبداعي إلى جوارهم زائر صامتًا، ابتسموا جميعًا عند وصول ذلك الرجل القادم من الصحراء ممتطيًا حصانًا، ملثَّمًا يرتدي ملابس الأعراب.. اقترب منهم وقف

في المنتصف بين جنود الجن من ناحية والشيخ عبد القادر وزيدان من ناحية أخرى.

نزل عن حصانه وأشاح اللثام عن وجهه فبدا رجلًا أسود اللون.. طويل القامة.. ضخم الجثة.. عيناه واسعتان، نظر في كل الإتجاهات ثم ترجّل نحو الشيخ عبد القادر وزيدان الذى كان يراه. وقف أمامهما ثم مد يده قائلًا:

- سلّمني سر الأموات يا عبد القادر.

تردد عبد القادر قليلًا، نظر إلى زيدان الذي فتح فمه وجحظت عيناه في دهشة، مد الشيخ عبد القادر يده للأمام مناولًا السوط للرجل الذي ما أن رفعه لأعلى حتى صاح باقي الجن في سعادة بالغة.

- أخيرًا إمتلكت سر الأموات.

قالها الرجل الأسود وهو ينظر لزيدان الذي أدار وجهه نحو الشيخ عبد القادر.

- أنا وقعت في الفخ بسهولة، صح يا شيخ عبد القادر..؟ إنتِ جرجرتني لحد هنا علشان تاخدوا مني سر الأموات وبرضايا.. ضحكت عليا وقولتلي هنجيب البنت الميتة وأنا ولا شوفت البنت ولا حافظت ع السر.. لقيتني راجل صعيدي غلبان قولت أروح أضحك عليه.

ثم ارتفع صوت زيدان وأمسك بملابس الشيخ وهو يقول:

- إنت مين؟؟ ... إنت مين؟؟ .. إنت واحد منهم أكيد.. ومين الراجل الأسود إللي أخد السر ده وهيعمل بيه إيه؟؟

****

٢٧- النهاية

أمام قبر عبد الكريم حارس المقابر السابق وقف زيدان ليلًا يبكي:

- حقك عليّا يا حاج عبد الكريم.. أنا إنسان ضعيف لا عرفت أحافظ على السر ولا أحافظ على الأموات.. البنت الميتة هربت والله أعلم فينها دلوقتي.. وسر الأموات إتاخد مني وبرضايا ومش عارف إللي أخده هيعمل بيه إيه.. هيصحَي مين؟ وهيموت مين؟ وهيضر مين؟

ثم رفع عيناه الغارقتان بالدموع للسماء قائلًا:

- الرحمة من عندك يا رب.. الرحمة من عندك.. أنا عارف إن إنت الوحيد إللي هتسامحني علشان إنت بتحاسب بالنوايا وأنا نيتي كانت خير، أنا ضعيف وخلقك أقوى مني.

انتصف الليل وزيدان يواصل نحيبه وبكاؤه، فجأة شعر بيد توضع على كتفه من الخلف.. انتفض قبل أن يلتفت بحركة حادة.

- إنت!!!

- أيوة أنا.

غلت الدماء في عروق زيدان.. أراد أن يتخذ موقف عدائي، إلا أن الشيخ عبد القادر ربّت على كتفه قائلًا:

- صلِّي ع النبي يا زيدان..

أزاح زيدان يده عن كتفه بعصبية دون أن ينطق، فواصل الشيخ:

- قولتلك صلي ع النبي.. بلاش تبقى بخيل.

زيدان بعصبية:

- عليه الصلاة والسلام.. عاوز مني إيه تاني؟!

- عاوزك تقعد وتسمع وتفهم علشان نعرف نسترد سر الأموات تاني ونرجع البنت الميتة.

- وفاكرني هصدقك..؟

- ما أنت مفيش أودامك غير إنك تصدقني.. أنا لو بكدب عليك هاعوز منك إيه تاني..؟ وإيه إللي هيرجعني ليك من أصله؟

ثم إحتدَّ صوته وهو يقول:

- إحنا واقفين أودام قبر الراجل إللي وصاني عليك، إسمع يا زيدان.. أنا كنت صادق معاك في كل كلمة وكل حرف.. أنا أقدر أهزم جيش بالكامل من الجن وكنت خلاص قيِّدت زائر وبضرب الجن وكلها لحظات والبنت تيجي عشان أترك لهم زائر.. لكن الراجل الأسود إللي ظهر في الآخر ده إللي ما كنتش عامل حسابه وما كنتش متوقع إنه عايش في المكان ده.

زيدان بهدوء:

- مين الراجل ده؟؟

- اسمه بركات بن موسى.

زيدان بتعجب:

- مين بركات بن موسى ده؟

- ده لعنة كل العصور في مصر.. أقعد هنا وأنا أحكيلك،، وركز معايا لأن إحنا في مصيبة كبيرة فعلًا.

بعد ساعة كان العرق يتصبب من جبهة زيدان بغزارة والشيخ يسرد ما يعلمه عن بركات:

- زي ما قولتلك يا زيدان.. أنا كنت رايح وجاهز لقبيلة الجن إللي بيتزعمها زائر.. زائر ده أنا عارفُه كويس.. جن قوي جدًا جدًا مع الإنس والجن، لكنه ضعيف معايا زي ضعف غزالة صغيرة أودام أسد مفترس..
لكن المفاجأة إللي ما توقعتهاش هو ظهور بركات بن موسى في المكان ده.. أنا عارفُه وعارف صفاته كويس، هو لا إنس ولا جن.. هو مزيج ما بينهم، علشان كده إنت شوفته، ما تزعلش مني يا زيدان لما سلمته سر الأموات.. هو كده كده كان هياخده.. هو أقوى مننا بكتير، وعلى حد علمى مفيش مخلوق من البشر يقدر عليه.

زيدان:

- أفهم من كده إنه هيستخدم سر الأموات في الشر؟

هز الشيخ رأسه بالإيجاب وهو ينظر أرضًا قائلًا:

- للأسف.. وأي شر يا زيدان..! ده مش بعيد الجن يرجعوا يحكموا الأرض من تاني.

طرق زيدان على رأسه بأسف قائلًا:

- يعني أنا إللي خربت الدنيا دي بحالها.

ابتسم الشيخ عبد القادر رغم المعاناة وقال:

- لازم نشوف حل يا زيدان لإسترداد سر الأموات.. تخيل مصير الأرض دلوقتى أصبح فى إيدى أنا وإنت.

زيدان بيأس:

- وإحنا هنعمل إيه مع واحد إنت بتقول عليه أقوى من كل الإنس والجن..؟ خلاص يا شيخ عبد القادر، الدنيا إنتهت وأنا السبب في نهايتها.

****

بعد صلاة العصر انعزل زيدان وحيدًا في حجرته وقد حمل أثقال العالم كله فوق كاهله.

- أنا إيه إللي جابني من بلدنا؟ مش كنت قعدت هناك واستحملت الجوع والفقر أرحم من إللي أنا فيه..؟ سر وأمانة أكبر مني وحملتها.. ابني ضاع وخسر دينه ودنيته، البنت الميتة هربت، روحت أجيبها ضيعت سر الأموات .. العالم خرب من ساعة ما طبيت مصر.. طب أرجع تاني بلدنا ولا أكمل هنا ولا إيه..؟ ولو رجعت أرجع لمين..؟ بس برضه مصر بلد قاسية، بلدنا أرحم بكتير.

زفر زيدان بقوة كأنما يطرد همومًا من صدره، قبل أن يقول:

- أستغفر الله العظيم.. أستغفر الله العظيم.. سامحني يا رب.. سامحنى يا رب وإبعتلي العون من عندك، أنا مش قادر خلاص.

انتفض زيدان فزعًا عقب سماعه لصوت طرقات قوية على الباب. هبّ من مكانه مسرعًا، تمتم ببعض الأدعية وهو يتجه نحو الباب الذي لم يكن موصدًا بالقدر الكافي، شعر برهبة شديدة لم يشعرها من قبل إلا قليلًا .. تردد ثم سحب الباب للداخل فاتحًا جزءًا بسيطًا منه.. نظر للطارق قليلًا ثم فتح الباب على مصراعيه.. حدَّق في وجهه كثيرًا. دار حوله بخفة قبل أن

يقف أمامه مرة أخرى ويقول:

- إنت؟

بإبتسامته المعهودة:

- أيوة أنا الدكتور أحمد علي نور الدين.

زيدان بحدة:

- المجرم القاتل!

- لا أنا مش مجرم ولا قاتل.. أنا ما قتلتش حد، الدكتور محمد عبد العظيم هو إللي قتل نفسه لما أخفى عني نتيجة التحاليل الطبية وكتب لي تقرير غير صحيح.. هو كان عاوز يخوض التجربة وكان مستعجل عليها، علشان كده أخفى عني إصابته بمرض الأوعية الدموية المحيطية بي في دي... لأنه عارف إني كنت هرفض أعطيه العقار لخطورته الشديدة على مرضى تصلُّب الشرايين..

مسح الدكتور أحمد عرقه وهو يشير لزيدان نحو الداخل:

- تسمحلي أقعد وأتكلم معاك وأشرح لك كل حاجة؟

زيدان بغضب:

- وبعدين ترجع تهرب مني زي زمان؟

- أنا ما هربتش.. بس إنت مش هتفهم إللي هقولهولك.

- لا هربت مني واختفيت بعدها.. أنا روحت الفيلا بتاعتك أكتر من تلاتين مرة وقالولي إنك هاجرت بلاد برة.

تنهد الدكتور أحمد بشدة قبل أن يقول:

- ولما أنا هربت إيه إللي جابني تاني لحد عندك وبطلب منك تقعد وتسمعني وإنت رافض..؟

زيدان بحدة:

- أنا مستحيل أصدقك

- لأ هتصدقني

- قولت مستحيل

حدق الدكتور أحمد في عين زيدان لما يزيد عن دقيقة، قبل أن يقول بعنجهية:

- هتسمعني وهتصدقني يا زيدان لأن أنا الوحيد إللي يقدر يرجعلك سر الأموات.

شهق زيدان لا إرادياً وجحظت عيناه قبل أن يواصل دكتور أحمد:

- وأنا الإنسان الوحيد إللي يقدر يهزم بركات ابن موسى.

شهق زيدان مرة أخرى وازدادت عيناه اتساعًا قبل أن يشير لضيفه بالدخول.

****

قدم زيدان كوب الشاي لدكتور أحمد الذي احتسى منه رشفة سريعة قبل أن يقول:

- تسلم إيدك يا زيدان ويسلم قلبك الطيب.

زيدان:

- يعني إنت بجد عمرك تمانين سنة؟!! بس شكلك شباب.. أنا مش مصدق الموضوع ده.

ضحك الدكتور أحمد حتى دمعت عيناه، قبل أن يقول:

- أومال لو قولتلك إني أكبر من كده بكتير هتعمل إيه؟

زيدان وهو يحكّ رأسه بغباء:

- أكتر من تمانين سنة كمان..!! إيه عندك ميت سنة ولا إيه؟

ضحكة أخرى جميلة من الدكتور أحمد قبل أن يقول:

- الموضوع أكبر من إنك تستوعبه يا زيدان..

- لعلمك أنا إستوعبت الأغرب وشوفته بعينيا.. قول أنا بفهم كل حاجة وعقلي أصبح بيتوقع الغرايب.

أخذ الدكتور أحمد رشفة أخرى من الشاي وحدّق في عينيَ زيدان قبل أن يقول:

- يعني لو قولتلك إن عمري ٥٠٠ سنة هتصدقني؟

صمت زيدان لنصف دقيقة وهو يحدق في وجهه، قبل أن ينفجر ضاحكًا:

- نصبة جديدة جاي تنصبها عليّا.. لا ما تخافش أنا مش هوافق إنك تجرب عليّا أي حاجة.. أنا عاوز أموت النهاردة قبل بكرة وعاوز أموت بطبيعتي من غير تجارب ولا ....

قاطعه دكتور أحمد قائلًا:

- مش قولتلك مش هتستوعب.

فجأة تجهّم وجه زيدان وقد تذكر شيئًا، فقال بحدة:

- أنا افتكرت دلوقتى حاجة قاللى عليها الدكتور محمد عبد العظيم، قال إنه لما رجع الفيلا عندك وهو تعبان وبيصرخ إنت طلبت منه حاجة كفر كده واليعوذ بالله.

- أنا ما شوفتش الدكتور محمد يوم وفاته، أنا رجعت المعمل لقيته متوفِّي بعد ما نزف دم كتير.

- يعنى إنت ما طلبتش منه إنه يعبدك قبل ما يموت بدقيقة؟

- لأ طبعًا.. أعوذ بالله من الشرك بالله.. دى فتنة الممات، عند الإحتضارالشيطان بيظهر للإنسان فى أيّ هيئة أو شكل ويدعوه للكفر فأكيد ده إللى ظهر للدكتور محمد، أرجو أن يكون الله عافاه من هذه الفتنة.

- هو نطق الشهادتين ومات.

- الحمد لله

فجأة نظر دكتور أحمد نحو الباب المغلق قائلًا لزيدان:

- قوم إفتح للشيخ عبد القادر

بعد العبارة الأخيرة استمعا لصوت طرقات قوية على الباب.. نظر زيدان للدكتور أحمد بدهشة شديدة وهو يتجه نحو الباب:

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

نظر زيدان إلى الطارق ثم أعاد نظره للداخل بدهشة... حين قال الطارق:

- عندك ضيوف ولا مشغول يا زيدان؟!

انعقد لسان زيدان وهو يحوَل نظره بين الشيخ عبد القادر الواقف أمامه والدكتور أحمد الجالس بالداخل... تعجب الشيخ عبد القادر من رد فعل زيدان.. شعر بالإحراج، حاول الرجوع ولكن زيدان أمسك بيده دون أن ينطق.. تسلَّل القلق لداخل الشيخ عبد القادر إلى أن سمع صوت من الداخل يقول:

- تعالى يا شيخ عبد القادر.. إنت إللي هتفهم كلامي وهتوصّله لزيدان.

****

جلسة ثلاثية جمعت الشيخ والدكتور وزيدان..

الدكتور أحمد:

- قبل ما أتكلم عاوز تركيز وفهم، وقبل ده كله تصدقوني لأني هقول العجب.

الشيخ عبد القادر:

- إتفضل قول إللي عندك

وقف الدكتور أحمد، تحدث وهو يلوح بيديه في كل الإتجاهات قائلًا:

- سبحان الله خالق الإنس وخالق الجن وخالق ما لا تعلمون.. سبحان الله الذي أمره بين الكاف والنون.. سبحان الله رازق المؤمنين ورازق العصاة ورازق الفجار.. سبحان الله خالق الماء وخالق النار وخالق السماوات والأرض والجبال.. أنا العبد الفقير إلى الله أحمد بن علي بن نور الدين بن

زنبل الرمّال، ميلادي كان في المحلة من خمسميت عام.. وتاريخ وفاتى مكتوب في اللوح المحفوظ.. لا يعلمه إلا علام الغيوب.

- أنا مش فاهم حاجة..

قالها زيدان بعفوية، فقطع ابن زنبل حديثه وصمت قليلًا قبل أن يقول الشيخ عبد القادر:

- ممكن يا دكتور تقعد وتشرح لنا بهدوء من غير سجع..؟ إحنا محتاجين نفهم مش نسمع زي ما قولتلنا.

قاطعه ابن زنبل قائلًا وهو يجلس في مواجهتهما:

- أنا اسمي أحمد علي نور الدين بن زنبل الرمّال، اتولدت في المحلة من حوالي خمسميت سنة فى زمن دولة المماليك الشراكسة، كنت مُقرّب للسلطان قنصوة الغوري.. عاهدت ربي إني أصلح من السلطان وأرشده لما فيه الخير للناس.. السلطان كان طيب وأمين على البلاد، وما كانش بياخد أي قرار إلا لما يستأذنّي، وفجاة ظهر في القلعة شيطان مصر لعنة كل عصر بركات بن موسى فأصبح السلطان أسير هذا الملعون.. حاولت أنا والشهيد طومان باي نقتله ونحرر مصر من شروره لكنه كان أقوى مننا.. بعون الله ثم بإستخدام العلم قدرت أوصل لبعض الإكتشافات العلمية إللي ساعدتني على التصدِّي له في بعض الأوقات، إلى أن قام بركات بتسليم مصر لخائن الأمة الإسلامية سليم بن عثمان وتم إعدام السلطان الشهيد طومان باي إللي أقسمت يوم إعدامه على الإنتقام من إللي خانوه وإللي قتلوه.. قدرت أصنع فيروس بلغة عصركم وزرعته في جسم سليم بن عثمان، ثم زرعته في جسم خاير بك الخاين، أما الغزالي فربنا أرسل له إللي يخونه ويكون سبب في قتله، وكذلك حسن ابن مرعي.. ما فضلش غير

بركات بن موسى.. بعد سنين طويلة من العلوم والتجارب قدرت إنى أطوّر اكتشافى، وبدل ما كان بيحافظ على جسم الإنسان بدون علة أو مرض لمدة ميت عام أصبح بإمكانه يحافظ عليه لمدد مماثلة.. بمعنى أدق؛ أنه بعد الميت عام يقدر ياخد جرعة جديدة فتحافظ على خلايا وأعضاء وأجهزة جسمه بدون تلف لمدة ميت عام جديدة، إلا إذا أتى أمر الله طبعًا فأمره نافذ.. المهم أنا عشت ميت عام ببحث عن بركات بن موسى، طفت الأرض كلها من شرقها لغربها ومن شمالها لجنوبها وما قدرتش أوصل له، بعد الميت عام أخدت جرعة جديدة من العقار علشان أحافظ على جسدي ودعيت ربنا إنه يحافظ على روحي إلى أن أجد الملعون، بمرور الزمن كررتها وقدرت أطوَر العقار أكتر واستخدمت العلم الحديث وبعد ما كان مشروب أصبح حقن.. ومن عهد المماليك لحد الآن حوالي ٥٠٠ سنة فشلت فيهم في الإنتقام من بركات أو حتى معرفة مكانه في الأرض.. لحد ما الرمال أخبرتنى بشئ خطير حدث على كوكب الأرض؛ وهو إن سر الأموات انتقل من يد الخير إلى يد الشر.. حاولت أعرف مين صاحب يد الشر إللي أخدت سر الأموات ما عرفتش.. استخدمت رمالى لكن ما ظهرش فيها حاجة.. ساعتها توقعت إن الشر ده ممكن يكون بركات ابن موسى لأنه مش بيظهر في رمالى، ولما إتأكدت إنه هو قررت الوصول إليه والإنتقام منه وهتكون يا شيخ عبد القادر إنت وزيدان الدليل إللي هيوصّلنى لبركات.

شرد الشيخ عبد القادر قليلًا قبل أن يقول:

- حكاية غريبة جدًا لكن أنا متعوَد على الغرايب دي.

فيما بدا زيدان هادئًا وهو يقول:

- يبقى نطلع على السلوم حالًا.

ابن زنبل الرمّال:

- هننتظر كمان أسبوعين.

الشيخ عبد القادر بتعجب:

- إسبوعين كتير أوي... ليه أسبوعين..؟ داحنا هنكون دخلنا في رمضان.

ابن زنبل في ثقة:

- وهو ده المطلوب... لأنه بيكون في أضعف حالاته.

زيدان :

- طب ما إحنا في شعبان.... وشعبان برضه أيام كلها بركة.

ابن زنبل:

- رمضان أفضل.

الشيخ عبد القادر:

- إفرض بركات هرب بالسر أو أأ..........

قاطعه ابن زنبل قائلًا:

- أنا لما قابلت الرئيس السادات من سنتين وطلبت منه يأجل الحرب لرمضان ما جادلنيش زيكم.. نفذ وهو ساكت بعد ما سمع مني.

زيدان وهو يفتح فمه بدهشة:

- إنت قابلت السادات بنفسك...؟ قابلته وشوفته بشحمه ولحمه؟

ابن زنبل:

- أيوة قابلته، مستغرب ليه وإنت بتقابل الأغرب منه؟

ضحك الشيخ عبد القادر.. فإهتزت أكتافه بشدة، ابتسم ابن زنبل قبل أن يقول وهو يمده نحوهما بالمبايعة:

- توكلنا على رب العباد.

****

زفر زيدان بقوة قبل أن يقول:

- بقالنا أسبوع في الإستراحة ومفيش حاجة حصلت جينا أول يوم رمضان ولحد النهاردة لا الدكتور أحمد ظهر ولا إللي أخدوا سر الأموات ظهروا.

هز الشيخ عبد القادر رأسه بالإيجاب دون رد، فواصل زيدان:

- إوعى تكون شايف حاجة ومش عاوز تقوللي.

- لا مش شايف أي مخلوق منهم، لا زائر ولا غيره.

- طب والحل؟!!

- مفيش أودامنا إلا إننا نصبر وننتظر الدكتور ابن زنبل نشوف إيه إللي هيحصل.

- إنت مطّمن للدكتور ده؟! الكلام إللي قاله إنت مصدقه؟!

- أيوة مصدقه

- بس أنا شاكك فيه

- طب ما أنت كنت شاكك فيّا أنا كمان وعندك يقين إني سلمتهم سر الأموات بالإتفاق معاهم

- ده كان في الأول، لكن .....

قاطعه الشيخ بهدوء:

- وإحنا كمان لسه فى الأول مع الدكتور أحمد.... أصبر شوية لحد ما نشوف رايحين على فين في المغامرة دي.

استمر الجدال الذي لا يغني ولا يسمن بين الطرفين، إلى أن استمعا لصوت طرقات خفيفة على باب الإستراحة من الخارج.. هبّ زيدان مفزوعًا وأمسك فى خوف بجلباب الشيخ عبد القادر الذي شعر بالقلق هو أيضًا ولكنه توجه نحو الباب بهدوء، فتحه ببطء، مدّ رأسه يستكشف الأمر فوجد أحمد بن زنبل ومعه صبي في مقتبل شبابه، حدَّق الشيخ عبد القادر في وجه الشاب قبل أن يقول لإبن زنبل:

- مين ده؟!

ابن زنبل وهو يدفع الباب ويدخل خلفه الشاب:

- زيدان هيقولك مين ده.

تجهّم وجه زيدان فور رؤيته، أدار وجهه بعيدًا عنه وهو يقول:

- إيه إللي جاب الملعون ده هنا؟

صمت ابن زنبل، في حين قال عبد القادر:

- حد يفهمني... مين ده يا زيدان؟!

زيدان دون أن ينظر إليهم:

- ده إللي إستأذن الشيطان قبل ما يعمل عملته والشيطان قال له أعوذ

بالله منك.

ابتسم ابن زنبل من تشبيه زيدان قبل أن يقول بآداءه التمثيلي الشهير:

- أقدم لكم الشيخ سعيد زيدان العابد الزاهد، بحثت عنه في كل البارات والخمارات وفي الآخر لقيته في مسجد سيدنا الحسين مقيم إقامة دايمة يصوم النهار ويقوم الليل.. يصلي ويبكي بحرقة على ذنب إرتكبه لعل الله يغفر له.

أدار زيدان وجهه نحو ابنه سعيد فإندفع الإبن نحوه معانقًا إياه بشدة، ثم أمسك بيده مقبلَا إياها... ربّت سعيد على كتف ابنه قائلًا:

- الحمد لله ولدي سعيد رجعلي تاني.

سعيد بحكمة:

- المهم إني أرجع لله يا أبويا.. أنا ذنبي كبير جدًا إتهزّله العرش.

الشيخ عبد القادر متدخلًا مُرددًا:

- قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعًا إنه هو الغفور الرحيم.

ابن زنبل:

- صدق الله العظيم..

الشيخ عبد القادر موجهًا كلامه لإبن زنبل:

- طب إنت جبت سعيد هنا ليه؟! وإيه الغرض؟!

فتح ابن زنبل ذراعيه على مصراعيهما قائلًا بأسلوبه التمثيلي:

- سعيد هو الطعم إللي هيجيب البنت لهنا بسرعة.. لأنها بتدوّر عليه من ساعة ما هربت من المقابر ومش عارفة توصل له لأنه كان ضيف عند سيدنا الحسين.

الشيخ عبد القادر مقاطعًا:

- طب وإحنا دورنا إيه؟ وخطتك إيه..؟ إحنا مش عارفين حاجة.

ابن زنبل:

- دورك لما تيجي البنت تربطها هنا، ولما ييجي زائر نفس الأمر، لكن لما يحضر بركات هيكون دوري أنا.

لم يستغرق الأمر وقتًا كثيرًا، فقبل مرور نصف ساعة اندفعت الفتاة لداخل الإستراحة بعدما دفعت الباب بيديها أسقطته أرضًا.. وقفت كالغولة في منتصف الحجرة بفستان الزفاف وشعرها الأبيض المتدلّي على وجهها، سواد شديد تحت عينيها شديدي البياض.. كانت تزوم وهي تمد ذراعيها للأمام محاولة الإمساك بسعيد الذي احتمى بأبيه في ذعر قائلًا:

- أعوذ بالله.. مين دي؟! مين دي؟!

وقف الأب في الصدارة لحماية ابنه قبل أن يصفعها الشيخ عبد القادر على وجهها فتسقط أرضًا دون حراك، في هذه اللحظة هجم زائر -الذي ظهر فجأة- نحو الشيخ عبد القادر الذي بادره بلكمة قوية جدًا، لكنها لم تؤثر فيه، وقف ينظر لعبد القادر بغيظ وهو جاحظ العينين ضاغطًا على أسنانه أو ما تبقى منهم:

- إلا سكاديا... إقتلني قبل أن تأخذها.

وجه له الشيخ لكمة أخرى وهو يقول:

- حاضر هقتلك وهاخدها.

زأر زائر في غضب وأمسك برقبة الشيخ، ولكن الأخير لطمه على وجهه قائلًا:

- إخسأ ولا تعلو قدرك.

ابن زنبل بهدوء:

- تحب أتدخل يا شيخ عبد القادر؟

عبد القادر وهو يحرر رقبته ويضربه بقدميه فيسقطه أرضًا:

- لاء متشكر.. ده أضعف ممّا تتخيل.

ابتسم ابن زنبل ابتسامته الجميلة ونظر نحو زيدان وابنه قائلًا:

- طبعا إنتوا مش شايفين إللي بيحصل..؟

هز زيدان رأسه بالنفي والدهشة، فواصل ابن زنبل:

- الشيخ عبد القادر ضرب زائر مقلب حرامية جابه الأرض وزائر قاعد ع الأرض يعيط زي العيال الصغيرة بس العيال الصغيرة لما يبقى شكلها بشع.

- أربط يا شيخ عبد القادر وشد الوثاق.. الحرب لسه هتبدأ.

في ثوان معدودة امتلأت الإستراحة مرة أخرى بالآلاف من الجن، صار الشيخ عبد القادر يضرب يمينًا ويسارًا يركل هذا ويصفع ذاك وهم

يصدرون عزيفًا قويًا، وإلى جواره ابن زنبل يقوم بذات المهمة على أكمل وجه..

استغرق ذلك وقتًا طويلًا قبل أن يدخل فجأة من باب الإستراحة ذلك الرجل الأسود الضخم المدعو بركات ابن موسى.. شهق زيدان رعبًا بمجرد رؤيته، أمسك بإبنه سعيد، توقف الشيخ عبد القادر عن ضرب المخلوقات لتوقفهم هم أيضًا من مهاجمته.. إبتسامة خبيثة ماكرة ارتسمت على وجه بركات عندما رأى الفتاة مقيدة أرضًا وإلى جوارها زائر.

اقترب من الشيخ عبد القادر قائلًا:

- أفهم من كده إنك بتتحداني؟

نظر الشيخ حوله فلم يجد ابن زنبل، أدار رأسه في كل الإتجاهات وقلبه يخفق بشدة، ازداد رعبًا عندما صرخ بركات بصوته الجهير المرعب.

- بتتحداني يا عبد القادر وإنت عارف إنك أضعف منى؟

كان ابن زنبل الذى قفز من النافذة قبل دخول بركات بلحظات قد دار حول الإستراحة وهو يسكب سائل أزرق اللون في شكل دائري.

أمسك بركات بمجمع ثياب الشيخ عبد القادر قائلًا وقد احمرت عيناه:

- يا ويل إللي يتحدّى بركات بن موسى.. يا ويله
- حتى لو كان ابن زنبل الرمّال؟

جاءت هذه العبارة من ناحية الباب.. انتفض بركات فور سماع هذه العبارة وهذا الاسم، إلتفت خلفه ليجد ابن زنبل واقفًا كأسد جسور رافعًا سيفه الفضي ذو المقبض الأخضر.

شهق بركات حتى أوشكت روحه أن تخرج قبل أن يقول بصوت مبحوح:

- ابن زنبل؟!!!!! إنت جيت هنا إزاي؟!!!

ابتسم ابن زنبل قائلًا:

- ممكن تعتبرني سافرت عبر الزمن أو الزمن هو إللي سافر عبري، لكن الأكيد إن ربنا أطال في عمري لحد ما قابلتك تاني.

ركع بركات على ركبتيه واضعًا يده أمام صدره، قال في توسل:

- الرحمة يا ابن زنبل

ابن زنبل بهدوء:

- إعطِ سر الأموات لزيدان

في طاعة شديدة أ خرج بركات سر الأموات من طيّات ملابسه، مد يده لإبن زنبل الذى قال بحدة:

- أعطه لزيدان.. هو صاحبه

نظر بركات لزيدان بأسى ومد يده إليه بسر الأموات، وفي اللحظة التي أمسك بها زيدان بسر الأموات سقطت يد بركات أرضًا؛ إذ عاجله ابن زنبل بضربة سيف قوية تلاها وفي لمح البصر بضربة سيف أقوى أطاحت برأس بركات بن موسى بعيدًا عن جسده الذي سقط للأبد، بينما تدحرجت الرأس إلى أن اصطدمت بالحائط.

هتف الشيخ عبد القادر وهو يرفع يديه بنشوة الانتصار:

- الله أكبر... الله أكبر، تسلم إيدك يا ابن زنبل... ما كونتش متوقع إنك

هتقضي عليه بالسهولة والسرعة دى.

- كنت عاوز أفكره بجرايمه وبخيانته قبل ما أقتله بس خوفت يهرب.

ثم أشار ابن زنبل نحو الفتاة وهو يقول لزيدان:

- شوف شغلك.

هنا صرخ زائر بألم:

- لاااا.... سكاديا لاااا...

الشيخ عبد القادر وهو يعين زيدان على مهمته:

- إرحل يا زائر عن هنا... البنت دي من جنسنا ولازم نكرمها ونعيد دفنها.

زائر باكيَا:

- إقتلوني معاها.

الشيخ عبد القادر:

- إبعد يا زائر علشان لو طالتك ضربة من سر الأموات هتقتلك.

كانت الفتاة مقيدة ومسجاة على جنبها عندما اقترب منها زيدان وضربها بسر الأموات قائلًا:

- بسم الله المميت.

كرّر القول والفعل للمرة الثانية، ثم رفع يده لأعلى ليضربها الضربة الثالثة، إلا أن زائر ألقى بنفسه بينهما فأصابته الضربة فخرّ صريعًا، لم يرَ زيدان

زائر ولكنه شعر بأن الضربة لم تصل للفتاة نظر لإبن زنبل الذي بادره قائلًا:

- زائر مات.. إضرب البنت الضربة الأخيرة.

فعلها زيدان وسكنت الفتاة للأبد، عادت جثة هامدة إلى جوارها جثة ذلك الجن العاشق الذي لم يتحمّل فراقها فقرر أن يرحل معها.

شعر الشيخ عبد القادر بقشعريرة في جسده فإستعاذ بالله من الشيطان..

اقترب من ابن زنبل، عانقه بشدة.. كذلك فعل مع زيدان وسعيد، نظر لزائر فسقطت دمعتين من عينيه وهو يردد:

هنيئا لأرباب النعيم نعيمهم وللعاشق المسكين ما يتجرع

****

شارع النيل بمدينة السويس، قرأ الفاتحة وتصدَّق ببعض الأموال عند ذلك الضريح المجهول صاحبه الذى يقع وسط حديقة عامة، لا يعرف السكان ولا المسئولين شيئًا عنه سوى اسم ضريح عبد الله الغريب.

الجمعة ٢٨ يناير ٢٠١١ القاهرة :

بشارع الأزهر أمام مسجد ومدرسة الغوري جلس ابن زنبل الرمّال على أحد المقاهي الشعبية مرتدياً بنطال جينز وتيشيرت شبابي يحتسي الشاي في سعادة، مر أمامه مجموعة من الشباب رافعين علم مصر متجهين نحو ميدان التحرير وهم يهتفون بحماس شديد:

- الشعب يريد إسقاط النظام

نظر إليهم في سعادة.. ولكنه ابتسم في سخرية.

تمت بحمد الله



المصادر

١- كتاب بدائع الزهور فى وقائع الدهور لإبن إياس الحنفى .

٢- كتاب تاريخ غزوة السلطان سليم مع قانصوه الغورى لإبن زنبل الرمال .

٣- دم المماليك وليد فكرى .

٤ – نهاية المماليك بين التاريخ والحكى الشعبى د. قاسم عبده قاسم .

٥- بحث علمى للدكتور أودرى دى جراى المتخصص فى أمراض الشيخوخة ورئيس مؤسسة " سينس " للأبحاث .

